سأخبركِ بشيء لم أخبر به أي شخص من قبل.. ربما لأنني أردتُ أن أنساه.

ماريانه فيليبس

# الاعتراف

رواية

ترجمة

د. صلاح هلال

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

# الْاعتِرَاف

**د. صلاح هلال/** أستاذ مساعد للأدب الألماني الحديث في جامعة عين شمس؛ مترجم حُر ومترجم فوري ومراجع. حاصل على الإجازة الدولية لتدريس اللغة الألمانية من معهد جوته وجامعة ميونخ. كما درس الأدب الألماني القديم والحديث والنقد الأدبي والترجمة والعلوم الإسلامية في جامعة بون بألمانيا. حائز على جائزة معرض إكسبو الدولي 2000 Expo للترجمة الأدبية.

ترجم كتب عديد من الكُتاب والأدباء الألمان إلى العربية مثل راينر ماريا ريلكه، كورت شفيترس، ماكس فيبر، أرنو جايجر، بيتر شوسوف، نافيد كرماني، وغيرهم.

.....

**الاعتِرَاف**

**طبعة 2022**

**رقم الإيـــــداع:2022/11656**

**الترقيم الدولي: 978-977-821-263-1**

**جميع الحقوق محفوظة ©**

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

**This book contains the full translation of the novel "De biecht" by Marianne Philips.**

**The publisher gratefully acknowledge the support of the Dutch Foundation for Literature.**

**تمت ترجمة هذا العمل بدعم من المؤسسة الهولندية للآداب**

Nederlands letterenfonds dutch foundation for literature

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

WWW.SEFSAFA.NET

sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

مَارْيَانَه فِيليبس

# الْاعتِرَاف

رواية

رِوَاية هُولنديَّة

تَرْجَمها عن الأَلْمَانيَّة

د. صَلاح هِلال

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

**بطاقة فهرسة**

**إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،**
**إدارة الشئون الفنية**

فِيليبس، مَارْيَانَه
الْاعترَاف: رواية/ مَارْيَانَه فِيليبس، ترجمة صَلاح هِلال
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٢
٢٥٦ ص، ٢٠ سم
تدمك ١-٢٦٣-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص الهولندية
أ- هلال ، صلاح (مترجم)
ب- العنوان

٨٣٩,٣١٣

رقم الإيداع: ٢٠٢٢/١١٦٥٦

# الجزء الأول

سأجلس معكِ، أيتها المُمرِّضة. أعلم أن هذا غير مسموح به، لكنني سأفعل ذلك على أي حال - لم أجلس على كرسي إلى طاولة عليها مصباح منذ فترة طويلة.

أتفهمين لماذا يضع الناسُ المجانين في الفراش وكأنهم مرضى؟ نعم بالطبع تعرفين، لأنكِ مُمرِّضة. بالتأكيد تتعلمون في الدورات التدريبية أننا لسنا مجانين، بل مرضى نفسيين وحسب.

لكن هذا هُرَاء. نحن مجانين بامتياز. لقد مكثتُ هنا في هذه الغرفة لمدة سبعة أشهر حتى الآن، ولم يعُد إلى المنزل إلا السيدة إنجبرتس، في حين نُقِل الآخرون إلى مؤسسة علاجية.

نعم، أيتها المُمرِّضة، كان بإمكاني دائمًا رؤية ذلك. عندما تتوقف سيارة أمام المبنى، ويُخرج المُمرِّضون أو المُمرِّضَات مريضًا، مُثبِتين إيَّاه بإحكام من كلا الجانبين، فمن الواضح أنهم

لن يصحبوه إلى المنزل. فقط السيدة إنجبرتس هي التي عادت مع زوجها إلى المنزل بشكل طبيعي تمامًا.

لم تتعرفي إلى السيدة إنجبرتس، فعندما أتيتِ إلينا كانت هي قد رحلتْ بالفعل. قالت كبيرة المُمرِّضَات إنها كانت مجرد حالة سهلة، كانت مُرهَقة قليلًا. كنتُ أسعَد لرؤيتها، أما الآخرون فكانوا قبيحين جدًّا ومُخِيفين. في الأسابيع القليلة الأولى كنتُ أرقد بجانبها، كان وجهها لطيفًا، ولم تصنع تعبيرات غريبة بوجهها، ولكنها كانت شاحبة بشكل رهيب. كما لم ترغب في التحدُّث قط، لقد كانت تنظر دائمًا وحسب.

نعم، بدتْ عيناها طبيعيتين، تمامًا مثل عيون المُمرِّضَات والأطباء. كانت فقط لا تريد التحدُّث؛ بالتأكيد كان ذلك هو المرض. الآن ترقد السيدة ديكن في سريرها بجواري؛ وهي تتحدث طوال اليوم.

إنه أمر فظيع، أيتها المُمرِّضة، عندما يرقد المرء بجوار شخص يتحدث ولا يسمع صوت نفسه يتحدث. وكأن المرء مُضطرٌّ إلى الاستماع طوال الوقت؛ لأنه لا يوجد أحدٌ غيره يسمع تلك الكلمات. يسمع المرء الكثير من الهُرَاء، ويحاول رغم ذلك فهم أي شيء.

لقد شعرتُ عصر اليوم بسأم شديد من حديثها، فقد تحدَّثتْ طوال الوقت عن رسالة تكتبها، ولكنها لم تستطِع إنهاءها، وظلَّتْ تبحث مِرارًا وتكرارًا عن الجملة الأخيرة. كل مَنْ يكتب رسالة

يفعل ذلك على هذا النحو؛ لأن الجملة الأخيرة يجب أن تتناسب تمامًا مع ما هو مكتوب بالفعل، وفي لحظة ما تعرف كيف يجب أن تكون تلك الجملة.

لكن اليوم بحثتِ السيدة ديكن لوقت طويل جدًا. قالت مِرارًا إنها انتهت من الرسالة، وكانت ترسم بإصبعها خطًّا طويلًا على مُلاءة السرير، ولكن بعد ذلك مباشرة تمسحه مرة أخرى، ثم تُعاوِد الحديث والكتابة والتهجئة.

كانت رسالة إلى والدتها المُتوفَّاة. يبدو غريبًا أن تكتب امرأة تبلغ من العمر ستين عامًا إلى والدتها المُتوفَّاة. لقد أثار أعصابي قراءتها ما تكتب بصوت عالٍ، وما كان هناك مَفرٌّ من الاستماع.

كانت تكتب دائمًا بإصبعها على المُلاءات من وقت الشاي إلى وقت العشاء. ولكن عندما أحضروا العصيدة توقفتْ عن الكتابة، فقد اشتمتْ أنها مُحترِقة قليلًا.

لا، أيتها المُمرِّضة، لن أخلد للنوم الآن، لستُ مُتعَبة على الإطلاق. دعيني أجلس معكِ لفترة من الوقت. إنه لأمر رائع أن ينام الجميع، وتهدأ القاعة بأكملها. الآن لا أسمع إلا نفسي عندما أتحدث. الآن الأمر أشبه بالجلوس في غرفة مع صديقة تستمع إليَّ، نجلس بشكل طبيعي تمامًا إلى طاولة يسقط عليها الضوء. لمَنْ تصنعين الوشاح، أيتها المُمرِّضة؟ لنفسكِ؟ حسنًا، هلَّا أجبتني!

لماذا لا تقولين شيئًا؟ لن أنام على أي حال – الجو دافئ الليلة، وأنا أرتدي قميصَ نوم من قماش الفانيلا؛ بالإضافة إلى ذلك، الجلوس على كرسي عادي أمر رائع.

يوجد مِقَص في سلة الخيَّاطة الخاصة بك. هذا أمر مُضحك، لم ألحَظ ذلك سوى الآن. إنه يلمع، أيتها المُمرِّضة. لم أُمسك مِقَصًّا منذ سبعة أشهر، قبل ذلك كنتُ أمسك مِقَصًّا كل يوم. كان لدي علبة حياكة بها أربعة مِقَصَّات فولاذية جيدة، ومختلِفة بعضها عن بعض: مِقَصٌّ تطريز، ومِقَصٌّ عراوٍ، ومِقَصٌّ عادي، ومِقَصٌّ كبير جدًّا لقصِّ القماش.

سيكون الوشاح جميلًا، أيتها المُمرِّضة، سيبقيكِ دافئةً جدًّا عندما تعملين في نوبة الليل.

ولكنكِ بالتأكيد لا تحيكين الوشاح لنفسكِ.

من المُضحك كيف تحِكْنَ وتعملْنَ الكروشيه لأشخاص آخرين طوال الوقت في أثناء نوبات الحراسة، ألا يُشعركنَّ ذلك بالملل أبدًا؟

لقد اعتدتُ أيضًا على الحياكة وعمل الكروشيه للآخرين – نعم هكذا يكون الأمر إذا كان المرء ينحدر من عائلة كبيرة ... وبعد ذلك كنتُ بالطبع أحيك لِينتشيه وهانيس – لكنهما لم يكونا من الآخرين.

لماذا تنظرين إليَّ الآن أيتها المُمرِّضة؟ يا إلهي! هل قلتُ شيئًا – عن هانيس؟

انتبهي، أيتها المُمرِّضة! الجدة تستيقظ، وسوف تستدير في أي لحظة. من الأفضل أن تُحضري نونية السرير سريعًا، وإلا فسيتعين عليك التنظيف بعد ذلك!

أوه، أيتها المُمرِّضة، لماذا تُبعدين المِقَصَّ عني؟ لم أُفكر فيه مرة أخرى.

حسنًا، لقد أُنجِز الأمر، اجلسي بجانب المصباح. الجدة تنام مرة أخرى. لم تدرك حتى أنكِ ساعدتها.

في الأسبوع الماضي كانت المرة الأخيرة التي تغوَّطتْ فيها في الفراش. وكان ذلك فظيعًا حقًّا. كانت المُمرِّضة دُورا في الخدمة، ألم تخبركِ عن ذلك؟ لقد كُنا جميعًا نِيامًا، ربما غفتِ المُمرِّضة دُورا أيضًا؛ لأن الجدة رقدتْ بالفعل وسط فضلاتها – وأي فضلات، أيتها المُمرِّضة.

ثم جلست الجدة – رأيتُ ذلك لأن الرائحة أيقظتني ـ وأمسكتْ بتلك القاذورات، وألقتْ كل شيء على سرير الآنسة سميث بجانبها.

الجدة تكرهها، ربما يعتقد المرء أن الأشخاص المسنين لم يعد بإمكانهم أن يكونوا أشرارًا، لكن لو لم تكن الجدة خائفة،

لقتلت الآنسة سميث على الفور. هذا لأن الآنسة سميث تحاول دائمًا السيطرة عليها. في ذلك اليوم، قال الطبيب إن الجدة لم يعُد مسموحًا لها بالنهوض من السرير، وقد أخذوا نعليها بعيدًا، ولهذا السبب أرادت أن تأخذ نعال الآنسة سميث، التي نادت عند ذلك المُمرِّضة. وتعرضت الجدة للتوبيخ - أليس جنونيًّا، أيتها المُمرِّضة، أن يبكي كبار السن مرة أخرى مثل الرُضَّع؟

انتشرت رائحة كريهة في القاعة، ضحك الجميع وصرخوا، وكان على المُمرِّضة أن تُحممهما في مُنتصَف الليل.

أيتها المُمرِّضة، ألا تظنين أحيانًا أنكِ أيضًا في الجحيم؟ عندما أحضروني إلى هنا، كنتُ مُتأكِّدة تمامًا من أنني قد انتهى بي المطاف إلى الجحيم. لقد عددتُ الناس هنا، النساء، كلهنَّ

ساحرات شريرات.

هل سبق لكِ أن قرأتِ عن ساحرات شريرات يرقصْنَ في دوائر، ويطرْنَ في الهواء وشعورهُنَ ترفرف؟ كانت لدى جدتي صورة كهذه، ورأيتُ لاحقًا أنها من الأوبرا، لكن عندما كنتُ طفلة صغيرة لم أكن أجرؤ على النظر إليها.

الآنسة سميث لديها فعلًا عينَا ساحرة شريرة. تنظر وكأن شخصًا ما قد قرصها بوحشية، وعليها أيضًا أن تقرص شخصًا.

عشية عيد الميلاد ... وربما كان ذلك في أمسية أخرى، تختلطُ

عليَّ الأيام.

كان هناك بسكويت مع الشاي، وكانت المُمرِّضَات تغنيْنَ، أتذكرين؟ متى كان ذلك، أيتها المُمرِّضة؟

في ذلك المساء، وقف الجميع فجأة على أَسِرَّتِهم ثم نزلوا. لم أرَ ذلك من قبل، لأنني كنتُ هنا منذ فترة قصيرة فقط – رأيتُ بالفعل كيف ينهض شخص ما من السرير، نعم، لكن ليس هذا العدد الكبير في وقت واحد. أوه، أيتها المُمرِّضة، إنهنَّ قبيحات للغاية. الجدة تعاني من الدوالي، والآنسة سميث لها لحية سوداء، لا بد أنها كانت تحلقها قبل ذلك، لكن أنتُنَّ، أيتها المُمرِّضَات، بالطبع لا تقُمْنَ بذلك. وكان قميص نوم السيدة إنجبرتس ملطخًا بالبُقع، وكانت السيدة تايسولتس تعرج، وكان فمها خاليًا من الأسنان، فقد خلعت أسنانها الصناعية، وفكت أيضًا قدمها الصناعية.

ثم رقصْنَ جميعًا معًا. نعم، لأنكُنَّ قُمْتنَّ بتشغيل الموسيقى في الطابق السفلي، ربما كانت تلك موسيقى عيد الميلاد، ربما كنتنَّ تغنيْنَ من أجل الشعور بالهدوء. كان بإمكاني سماعها جيدًا، فقد فتحت المُمرِّضة إيفا الباب الذي كنتُ أرقد بجانبه. نعم، ثم رقصْنَ جميعًا معًا، وقفزت الجدة حافية القدمين، وكانت قدماها زرقاوين تمامًا، وانخلع قميص السيدة ديكن، كانت بيضاء جدًّا وبدينة جدًّا – مثل فِطر مُنتفِخ.

وكلما طالت مدة رقصهنَّ، ازداد الأمر جنونًا، وانتابت الآنسة

سميث نوبة صراخ؛ لذلك اضطرت المُمرِّضة إيفا إلى إغلاق الباب، واختفت أغاني عيد الميلاد. ومع ذلك استمر الجميع في الرقص، وقُمْنَ بالدوران والطيران، والدوران بشكل أسرع وأسرع - ثم نهضتُ فجأة لأنني اعتقدت أنني كنتُ ساحرة شريرة أيضًا وكان عليَّ أن أرقص. لكني بكيتُ بشدة لأنني أصبحت ساحرة شريرة. في ذلك الوقت كنتُ مُتأكِّدة من أنني كنتُ في الجحيم بسبب لِينتشيه.

لا تنظري إليَّ هكذا، أيتها المُمرِّضة. أعرف جيدًا ما قلته. لِينتشيه - أعرف أيضًا أنني في الجحيم بسببها. لا، أنا لستُ مجنونة - أدركُ الآن أن هذا ليس جحيمًا - باستثناء المرات القليلة التي نسيتُ فيها مُجددًا أنني في مستشفى للأمراض العصبية في العالم الطبيعي.

أنا هنا وحدي في الجحيم الخاص بي.

لا، أيتها المُمرِّضة، لا تنظري إلى الجرس، لن أُصاب بنوبة، لم أُصَب سوى بنوبة واحدة - قبل إحضاري إلى هنا. فقط دعيني أتحدث. أعرف بالضبط ما أقوله. أعلم أيضًا أن الساعة الآن الحادية عشرة وأربعون دقيقة طبقًا لساعتكِ - تستمر فترة خدمتكِ حتى السادسة، أليس كذلك؟

لا، أيتها المُمرِّضة، لن أنام. فقط دعيني أجلس هنا. وانظري أنتِ من خلال النافذة العلوية! السماء خلف الشبكة السلكية زرقاء.

الآن القمر في مكان ما فوق قناة أو بِركة، أيتها المُمرِّضة، والليل دافئ. ربما لا يزال هناك أشخاص في الخارج، وهم يمشون معًا، جنبًا إلى جنب، ببطء بمحاذاة المنازل، وصولًا إلى أبواب بيوتهم. هناك يتركون بعضهم بعضًا، ويضع الرجل المفتاح في القفل.

غريب، في وقت سابق، قبل أن أجلس بجانب المصباح، حلمتُ، حلمتُ بمفتاح يوضع في قفل، فيُحدث صوتًا وهو ينفتح، ورنين المفاتيح الأخرى في دلَّاية المفاتيح – هذا صوت منزلي، أيتها المُمرِّضة – عندما يعود الرجل إلى المنزل، ويضع مفتاحه في القفل.

أوه، بالطبع أنتِ لا تعرفين ذلك. حسنًا، يا له من أمر مُؤسِف بالنسبة لكِ.

هذا يجعلني أضحك. أنتِ مُمرِّضة جيدة ولطيفة، وأنا شخص سيء لأنني قمتُ بـــ.. أختي ... لا ... أنا امرأة مجنونة تخضع للمُراقَبة؛ لأن محاميها يعتقد أن ذلك ضروري. ثم أشعر أنا بالأسف من أجلك أنتِ. هذا غريب.

كم عمركِ؟

لا، بالطبع أنتِ لا تخبرين المرضى بذلك؛ في الواقع أنتنَّ أصغر من أن تكنَّ هنا معنا. أعتقد أحيانًا أن الأشخاص العاديين الذين تقدَّموا جدًّا في السن هم فقط مَنْ يفهموننا.

لكنكِ بالكاد لديكِ بعض الشيب، بالتأكيد لم تبلغي الثلاثين. في ذلك العمر، قمتُ بنزع أول شعرات رمادية من رأسي بعناية فائقة – افعلي نفس الشيء، أيتها المُمرِّضة، لماذا يجب على المرء أن يبدو أكبر سنًّا مما هو عليه حقًّا؟

كان شعر لِينتشيه رائعًا، أشقرَ ذهبيًّا، وكان مُجعَّدًا بشكل رائع حتى أن الأجزاء الداخلية منه ظهرت بلون بني يميل للحُمرة، ولكنه كان يلمع مثل الذهب حول دائرة الرأس.

شعر أشقر ناعم جميل. كثيف جدًّا. يتطاير مع الريح، لم ترتدِ لِينتشيه قبعة قط.

لو كان هناك القليل من الشعر الرمادي في كل ذلك الشعر الأشقر، أيتها المُمرِّضة – لما أقدمتُ على فعل ذلك...

فقط استمعي إلى السيدة بويندرز وهي تُتمتم – حتى في نومها تقرأ النصوص. ما نوع المرض الرهيب الذي تعاني منه السيدة بويندرز؟ طوال اليوم، تقرأ نصوصًا، واحدًا تلو الآخر، لا شيء سوى نصوص لا تتسق معًا، ومع ذلك يمكنني أن أرى من مظهرها أنها راضية؛ لأن النصوص تتبع بعضها بعضًا بشكل رائع.

لم أكن أعلم أن هناك الكثير من النصوص – في المدرسة كان عليَّ أن أدرس واحدًا فقط في الأسبوع – لكن السيدة بويندرز

يمكنها قراءة النصوص لأكثر من ساعة دفعة واحدة، تقرأ نصوصًا مختلِفة، حتى تلهث. وفي النهاية تقف مُنتصبةً على سريرها، وتقول الشيء نفسه بصوتها الأجش في كل مرة: «لقد أحبَّ الله العالم الذي بذل ابنه الوحيد من أجله...» ثم تُكرر ذلك مرات عديدة حتى تُصاب بنوبة.

لماذا يوجد لكل نص إيقاع خاص به، هذا قبيح، أيتها المُمرِّضة، كنتُ أجد ذلك قبيحًا حتى عندما كنتُ في المدرسة. وحتى اليوم لا أحبُّ أن أسمع ذلك - مُؤخرًا شعرتُ بالسأم، السأم الشديد - صرختُ في السيدة بويندرز كي تتوقف، ولكن عند ذلك أصابتها نوبة، وانقضت عليَّ. كانت ذراعاها نحيفتين، ويداها بارزتَي العظام، أخذت تقرصني حتى أُصِبتُ بكدمات زرقاء. ثم صنعت لي المُمرِّضَات كمادات باردة.

لم يسبق لكِ أن رأيتِ السيدة بويندرز في مثل تلك الحالة، جميعهنَّ يكنَّ أكثر هدوءًا في أثناء المُناوَبة الليلية. لهذا السبب أريد حقًّا السهر الآن، إنه لأمر رائع ألا يَرِن أي صوت في أذنيكِ. عندما يكون الجوُّ هادئًا في الغرفة، يمكن أن تطِن ذبابة أو يُبقبق الماء في الغلاية، أو يُقلِّب شخص صفحات كتاب، ومع ذلك تظلُّ الأجواء هادئة. أعني أنه لا شيء في العالم يتغير.

انظري أيتها المُمرِّضة، الآن وضعتِ الوشاح جانبًا وتقومين بالحياكة - يداكِ تفعلان ذلك بمفردهما، ولا يسمع أحد أي شيء

يتغير. هكذا جلسنا معًا لعدة أمسيات، في صمت، من دون أن يتغير أي شيء – لِينتشيه وأنا وهانيس – وهانيس ...

نعم. عندما كانت لِينتشيه تجلس إلى الطاولة وتؤدي فروضها المنزلية.

أيتها المُمرِّضة، تستمرين في الخيَّاطة، ولا تنظرين إليَّ. أتعلمين، هذا هو أسوأ شيء هنا. أنكنَّ لا تستمعْنَ. عندما نتحدث، نتحدث للجُدران، لأنكنَّ تعودتنَّ على عدم الإصغاء.

نحن لسنا جميعًا مجانين لدرجة أنه لا يُمكن الاستماع إلينا، أليس كذلك؟ أعلم أن الاستماع يكون أحيانًا مُتعبًا جدًّا، لكن ما أخبرك به اليوم، يمكنكِ الاستماع إليه! أودُّ التحدُّث إلى شخص آخر، أسمع صوتي وكلماتي بنفسي، لكن اليوم لا يمكنني تحمُّل رؤيته يعود إليَّ مِن دون أن يُسمَع، أريدك أن تفهمي شيئًا ما، أيتها المُمرِّضة – هل يوجد شخص يفهم ...

عندما أكون عند الطبيب في غرفة الفحص، لا أستطيع التحدُّث؛ لأنني أرى قلم الحبر في يده يحاول تدوين كل شيء. لديه شعر أسود على ظهر يده، وأطراف أصابعه المربعة تضغط لأسفل على قلم الحبر كما لو أراد بالضرورة أن يكتب. لكن ذلك يجعلني غير قادرة على الكلام. لم أتمكن من قول أي شيء للطبيب طوال الأشهر الماضية، ومع ذلك يجعلني أحضر إلى غرفة الفحص مرتين في الأسبوع.

أوه، في المرة الأولى التي جاءت فيها المُمرِّضَات لأخذي، كنتُ سعيدة للغاية. لقد مكثتُ في الجحيم لمدة أسبوع كامل، ولم أعرف أنه بإمكاني المرور من ذلك الباب، الذي لديكم جميعًا مفتاح له في جيوبكم. وفجأة جاءت المُمرِّضة إيفا بصحبة المُمرِّضة ماري، وقالتا إنني أستطيع النهوض، ألبستاني فستانًا وأمسكتا بي من اليمين واليسار – أيتها المُمرِّضة، لا يمكنكِ تخيُّل شعور أن يعتقد المرء أنه في الجحيم، وفجأة يشعر بوجود أشخاص بجانبه مرة أخرى – ثم أخرجتاني من الباب، سِرنا عبر رواق، ومررنا بنافذة مِن دون قضبان. وفجأة وجدتُ نفسي في غرفة بها ثلاث نوافذ كبيرة – واحدة منها مفتوحة على مصراعيها، وكان هواء الشتاء مُشمِسًا يفوح منه عَبَق الربيع.

لذلك كان عليَّ أن أعتقد أن المُمرِّضَات ملائكة أخرجنني من الجحيم، وأخذنني إلى الجنة، هذا واضح، الجميع سيعتقد ذلك! لكنها كانت غرفة الفحص، كما أعرف الآن، وقد ضحك البروفيسور عندما سألته عما إذا كان هو الإله القدير الذي سيحكُم عليَّ. وقال للمُمرِّضَات: «أعِدنها إلى مكانها مرة أخرى وحسب».

هل يعرف مثل هذا البروفيسور كيف يبدو الأمر عندما ينظر المرء من خلال نافذة مفتوحة ثم يتعين عليه العودة إلى غرفة تحتوي النوافذ فيها على قضبان وشبكات سلكية؟ ربما لا – وإلا فلن يتمكن من الاستمرار في العيش وأن يكون بروفيسور.

في وقت لاحق، لم أتمكن أبدًا من إعطاء إجابة عندما سأل البروفيسور عن شيء ما، كان الأمر دائمًا كما لو أن هناك مِشْبكًا يضغط على سقف فمي، كما تعلمين، مِشْبك يضعه طبيب الأسنان في فمكِ قبل حشو الضروس. لأنني لم أقل كلمة واحدة للبروفيسور، فهو يتحدث عني الآن كما لو كنتُ شيئًا لا يسمع ولا يرى - عندما أحضرتني المُمرِّضة إيفا إليه بالأمس، قال: «من فضلكِ ضعيها في غرفة الفحص».

هذا جنون، أليس كذلك؟ يعرف أي بروفيسور أن الشخص يمكن أن يسمع جيدًا حتى عندما لا يتحدث.

أترين أيتها المُمرِّضة، لقد استمعتِ إليَّ الآن لبُرهة، ربما لأنني كنتُ أتحدث عن البروفيسور والطبيب. هل ستستمعين إليَّ الآن أيضًا عندما يتعلق الأمر بي؟ كنتُ أتمنى أن أرى وجهكِ في ضوء المصباح في وقت سابق.

الساعة الآن الثانية عشرة طِبقًا لساعتكِ.

تدُق الآن ساعة البرج أيضًا - اسمعي - واحد، اثنان، ثلاثة ... اثنتي عشرة دقة. لقد مرَّت أربع ساعات من خدمتكِ، أيتها المُمرِّضة.

أنا لا أهتم حقًّا إذا كنتِ تستمعينِ أم لا. سأحكي كل شيء على أي حال. أو ربما تتظاهرين فقط بعدم سماعي، لأنهم علموكم في

دورات تدريبية عدم الخوض في الهُرَاء الذي نتحدث عنه.

نعم، ربما لن يمكنكنَّ الاستمرار في العيش إذا استمعتنَّ إلينا.

لكنني لا أحكي هُرَاء، لم أستطِع أبدًا أن أحكي هُرَاء – قد أكون مجنونة، لكنني لا أحكي هُرَاء، وستنصتين إليَّ أيتها المُمرِّضة؛ حتى تأتي المُمرِّضة التي ستقوم بالمناوبة التالية بعدكِ، سأحكي كل شيء، ولن تنسي ذلك، تمامًا كما أقول لكِ.

لا. لن أذهب إلى الفراش، فهذه هي المرة الأولى منذ سبعة أشهر التي ينفتح فيها فمي، والآن لن أذهب لأنام. إذا وضعتني في الفراش، سأصرخ حتى أوقظ الأخريات – وبذلك ستنتهي خدمتكِ الليلية الهادئة، أيتها المُمرِّضة.

الآن ارسمي الملامح الودودة على وجهكِ مرة أخرى. تمامًا كما كانت من قبل تحت المصباح عندما مرَّت كبيرة المُمرِّضَات في جولة التفتيش. أوه، في الأساس، لا يهمُّ ما إذا كنتِ ودودة – فأنتِ شخص ذو أذنين، وعليكِ أن تستمعي إليَّ سواء كنتِ تفهمين ذلك أم لا.

أنصتي، الآن تدق ساعة البرج الأخرى – إنها دائمًا مُتأخِّرة قليلًا – صوت دقاتها أكثر عمقًا من الأولى – أسمعها دائمًا، حتى في أثناء نومي.

عندما كنتُ هنا في بادئ الأمر، كنتُ أستلقي هناك وأنتظر،

كل ربع ساعة إلى الربع ساعة التالية، كنتُ أنتظر دقات الأجراس من ربع ساعة إلى أخرى. إنه لأمر رائع أن الشبكة السلكية على النوافذ لا تمنع دخول الأصوات، لذلك لا يزال بإمكاني سماع الأجراس المُعلَّقة أعلى البرج، حيث لا يوجد سوى السماء.

هل تعلمين أنني وُلِدتُ تحت برج؟

نعم، سأبدأ الآن من البداية، وستستمرين في الخيَّاطة كما تشائين، لا يهمُّ – ليس لديك قلم حبر لتدوين كل شيء لمحامي يمكنه نشره في الصحيفة – لا شيء مهم الآن – فأنتِ حتى لا تُنصتين.

بدا المنزل مُنخفِضًا بجوار البرج، كان يتكون من طابق واحد فقط، لكن نوافذه كانت عالية، جميعها بالارتفاع نفسه. كان الباب في المُنتصَف، وهو باب أخضر عريض عليه شبكة رمادية، عندما يدخل المرء إلى الرُّدهة العريضة ذات بلاط الأرضيات الأحمر كان بإمكانه أن يرى على الفور أن هناك غرفة على كل جانب. كان الطابق العلوي عبارة عن ثلاث غرف، بالطبع، لكل منها نافذة عالية مُضِيئة.

عندما كنتُ أعود من مدرسة الأطفال، كنتُ أعدُّ النوافذ – كان بإمكاني العدُّ حتى خمس، ما زاد على ذلك كان صعبًا بالنسبة

لي.

كنتُ في الخامسة من عمري عندما وُلِدتْ أختي الرابعة، وفي الصيف التالي بدأت الدراسة، وما زلتُ أتذكر جيدًا كيف تمكَّنتُ من وضع ستة أعواد بعضها بجانب بعض لأول مرة، في نفس اليوم الذي وُلِد فيه أخي. كان الطفل السادس.

كان لوالدتي عشرة أطفال، لِينتشيه كانت العاشرة، لكنها وُلِدتْ مُتأخِّرة، عندما وُلِدتْ كنتُ في السابعة عشر من عمري. ما زلتُ أذكر أني اعتدتُ أن أقول للأشخاص الذين سألوا عن ذلك: هناك تسعة منا – وفقط بعد ذلك يخطر ببالي أمر وجود لِينتشيه أيضًا – ثم أقول: «أمي لديها عشرة أطفال».

كنتُ الأكبر ورأيتُ المنزل مُمتلئًا. كتبوا في إعلان بيع بيتنا في المزاد العلني «منزل برجوازي»، وقد كان بالفعل منزلًا برجوازيًّا. كنا نأكل لحم البقر مرتين في الأسبوع، ونشوي يوم الأحد – ما كان لدينا خلال الأسبوع كان أحيانًا لحم خنزير مُقدَّد – لكني كنتُ أحكي في المدرسة أننا نأكل «اللحوم في المنزل ثلاث مرات في الأسبوع».

من المُضحك أن أطفال المدارس يريدون معرفة كل شيء عن حياة بعضهم، عن الطعام والشراب والملابس وجميع أنواع الأمور اليومية حتى أسرار المرحاض، لا يمكن التحدُّث عن تلك الأمور بشكل كافٍ. لكن ما هو مهم حقًا، لا يقوله أي طفل – هذا شيء

مختلِف تمامًا، ولا يمكن حتى التحدُّث عنه؛ لأننا لا نملك الكلمات المُناسِبة له. ما هو مهم حقًا للناس، ربما لا يحتاج إلى أن يُقال أبدًا، وإلا فستكون هناك كلمات يمكنها أن تصفه.

لكن يمكنني التحدُّث عن البرج الآن، فأنا لم أعُد طفلةً. كان البرج عملاقًا، يلوح في الأفق فوق منزلنا. عندما كنتُ أستدير إلى الشارع، كان يراني أقترب. كان لديه سلطة على منزلنا المُنخفِض؛ إذا حاول الهروب من مكانه، لَوَضَع العملاق قدمه الثقيلة عليه، لذلك لم يهرب، لقد انحنى إلى مستوى مُنخفِض جدًّا؛ لأنه كان خائفًا من قدمه.

لكنني لم أكن خائفةً من ذلك العملاق، استدرت إلى شارعنا، واقتربت أكثر فأكثر، وأحيانًا كنتُ أقفز الحبل، أو أركل حصاة من مربع القفز أمامي، وفي أحيان أخرى أرقص هكذا وحسب، لكن كنتُ أُدرك دائمًا أن العملاق لا يمكن أن يؤذيني؛ لأنني كنتُ صغيرةً جدًا لأن يفعل ذلك بي، حتى إذا داسني بقدمه، كنتُ سأجد تجويفًا يلائمني فيها. لهذا السبب تجرأتُ على رفع نظري إليه، عددتُ الأجراس الكبيرة في رأسه المفتوح؛ عندما يَدوِي أكبر أجراسه مع تمام الساعة، كنتُ أُفكر، افعل ما شئتَ فإنكَ لا تملكَ شيئًا لي – أصوات أجراسكَ الصاخبة ستتلاشى في البحر.

نعم. كانت مدينتنا بجانب البحر. ليس على البحر الحقيقي الكبير، ولكن على ذراع واسعة تصلها الأمواج.

خفتُ قليلًا من البحر؛ لأن المرء لا يعرف أبدًا موقفه منه – يتحرك باستمرار، وأحيانًا ينحت في سور السد، حيث تتأرجح مجموعات من الطحالب بتكاسل جَيْئةً وذهابًا، وفي أحيان أخرى وصل حتى أعلى السد، وألقى طبقات رقيقة صفراء من الرغوة على الجدران الحجرية للميناء. فضلَّتُ أن أنظر إلى البحر من بعيد، فقد كان مشهدًا جميلًا أن أرى كيف تتنفس الأمواج جميعًا في الوقت نفسه.

غريب، الآن عندما أفكر في الماضي يبدو الأمر كما لو كان البرج والبحر فقط مُهمَّينِ. وقف البرج عاليًا فوق المنزل، وكان الطريق إلى المدرسة يسير بمُحاذاة رصيف الميناء. لكن في الواقع، كانت المدرسة والمنزل أيضًا مُهمَّين للغاية، أتذكَّر ذلك مُجددًا. أنا فقط يجب أن أفتح شيئًا مُغلقًا في رأسي لذلك. منطقة مُسوَّرة، لقد اقتحمتها الآن، كيف يصبح كل شيء صغيرًا وضيقًا. أشعر بنفس شعوري عندما كنتُ أقف فوق مِمْسحة الباب، وباب البيت مُغلق بيني وبين الشارع.

كان كل شيء داخل المنزل حقيقيًّا جدًّا، وبالطبع مُهمًّا جدًّا، الشيء الوحيد الحقيقي – كان يتعلق بالأكل والشرب والنوم، وكان عليكَ أن تكون حريصًا حتى لا يصفعكَ الأب صفعة خفيفة. لكن الأمر كان مُحبِطًا للغاية؛ لأنه لم يحدث شيء آخر غير الأمور اليومية المُعتَادة – كان لا بد من تجفيف الأكواب، وكان على أحد الإخوة الصغار دائمًا الحصول على زجاجة الرضاعة الخاصة به،

وبعدها تفوح رائحة كريهة من مهده.

كنتُ أطعم الصغار بالزجاجة وأبدِّل حفاضاتهم، فقد كنتُ الأكبر سنًّا. كنتُ أدفع أيضًا عربة الأطفال ذهابًا وإيابًا في الشارع، من الصيدلية إلى متجر المنسوجات، ذهابًا وإيابًا على الرصيف. عندما كنتُ بالخارج بعربة الأطفال الضخمة، كان لديَّ دائمًا انطباع بأن رائحة غرفة المعيشة نفسها ستنبعث هناك في الشارع – رائحة دُهنية جدًّا، مثل فتيل المَوْقِد الذي يغلي فوقه برَّاد القهوة لفترات طويلة جدًّا.

كرهتُ عربة الأطفال التي كانت على شكل سلة خرقاء، كرهتها، نعم، كرهتها. لأنها لم تفرغ أبدًا. أُعيدَ طلاؤها مِرارًا وتكرارًا، وكانت أُمي تجدد فرشها أيضًا – وكنتُ أعرف أنه سيكون هناك قريبًا طفل صغير عاجز يرقد فيه مرة أخرى، ويجب نقله إلى أن يصبح قويًّا ومُرهِقًا ويريد التسلق إلى خارجها.

عندما عُدتُ ذات مرة إلى المنزل من المدرسة، وجدتُ عربة الأطفال تقف مرة أخرى على البلاط الأحمر في الرُّدهة. كنتُ قد لعبتُ بالرخام، وكانت يداي مُتسِختين. لقد صنعتُ خدشين أسودين طويلين في الطلاء الأبيض الجديد بأظافري. لقد كان رائعًا، ضحكتُ وأنا أقوم بذلك. لا بد أن والدتي قد رأت ذلك، لقد خرجتْ من الغرفة للتوِّ، لكنها لم تصفعني، وبدلًا من ذلك ربتتْ على شعري، وعندها توقفتُ عن الضحك. في المساء بكيتُ بشدة

في السرير؛ لأن الحياة في المنزل لم تتغير أبدًا عما كانت عليه دائمًا، لأنه وجب عليَّ غسل الأطباق المُتسِخة بعد كل وقت غداء، كما وجب غسل الحفاضات، ولأن عربة الأطفال جُهِّزت مرة أخرى، ولم يمكن فعل أي شيء حِيال حقيقة أنها كانت ممتلئة دائمًا.

هل تفهمين، أيتها المُمرِّضة؟ أوه، لا، بالطبع أنتِ لا تفهمين ذلك. لديكِ وجه جميل وأنيق – لا تعرفين شيئًا من هذا القبيل. بالتأكيد أصبحتِ مُمرِّضة لتكوني شخصًا مفيدًا.

ألا تريدين حتى محاولة فهمي، كل شيء جرى كما قلتُ تماما – كل شيء حدث لي حقًّا.

كنتُ أرغب في الابتعاد عن المنزل في وقت مبكر، ولم أرغب في أن أكون مفيدة، لم يخطر لي شيء من هذا القبيل. كنتُ أستيقظ في الصباح بنفور من اليوم الجديد لدرجة أنني أشعر بالغثيان من رؤية خبز الفطور؛ لذلك كنتُ آخذه معي لفترة الراحة الطويلة. وزاد الأمر سوءًا – لذلك قررت أن أهرب من المنزل.

ذات مرة، بعد ظهر يوم سبت، مشيتُ نصف الطريق فوق السد إلى المنارة، وفي حقيبتي قطعة من الشوكولاتة وأربعة وثلاثون سنتًا من حصَّالة نقودي – اعتقدت أنني سأشتري بها الخبز لمدة أسبوع. لقد كانت نعمة لا تُصدَّق أن تركت المنزل ورائي وخرجت إلى العالم – كنتُ سعيدةً لمدة نصف ساعة.

غريب. الآن وأنا أفكر في السنوات العديدة الضائعة، لا تزال نصف الساعة تلك حاضرةً، وربما يكون هذا هو الشيء الأروع الذي جربته على الإطلاق. رأيتُ الأشجار ثابتة لأنها تضحك بهدوء في الداخل، لكنني علمتُ أنها تراقبني. تحركت الغيوم أمامي بهدوء لإظهار الطريق، وهبَّت رياح الصيف برفق على عنقي كما لو أنها تسير ورائي وتتنفس، وأتذكر جيدًا كيف كان الهواء فاترًا.

لكن عندما اقتربتُ من المنارة، وجدتُ فجأة أنه من الغريب تجوُّلي هناك مثل الغجرية التي ليس لها بيت. أعرف حارس المنارة؛ لأن أبي غالبًا يؤدي أعمال طلاء على البرج. سُمِح لي ذات مرة بالصعود إلى الأعلى حيث أراني الحارس مصابيحه. هناك مصابيح زيتية تُكلِّفه الكثير من العمل، لكنها بدت نظيفة جدًّا، وكان كل شيء هناك نظيفًا لامعًا. كان حارس المنارة نفسه أيضًا نظيفًا جدًّا، وهو جندي سابق له شارب رمادي كثيف، وأنف مستقيم واسع. لكنه فقط لم يستطِع الحفاظ على نظافة يديه؛ لأنه اضطر إلى التنظيف كثيرًا، والاستمرار في إعادة التعبئة بالكيروسين، لذلك لم أصافحه عندما شكرته قبل المغادرة. لكن بعد ذلك كان عليَّ أن أفكر فيه في كل مرة تسطع فيها حزم الضوء عبر منزلنا في المساء، بشكل منتظم مثل دقات الساعة، فكنتُ أفكر: حسنًا، الآن يقوم بعمله.

عندما هربتُ بعد ظهر ذلك اليوم، لم أفكر فيه أو في المنارة على الإطلاق، مشيتُ بمحاذاة السد؛ لأنه من الرائع النظر إلى

المُروج مع البرسيم الأحمر وزهرة الوقواق. وبعد ذلك، فجأة، وصلتُ عند البرج.

كان الحارس يقف ضخمًا ومُنتصبًا في حديقة الزهور الصغيرة؛ لقد رآني ولوَّح لي. اضطررتُ أن أذهب وأصافحه، وفجأة ظهرت رائحة نفَّاذة من الزيت ومعجون التنظيف الذي التصق بالأصابع السوداء من كثرة عمليات التنظيف.

ذكرتني الرائحة أن أمي كانت تقوم في تلك اللحظة بعملها الخاص بيوم السبت. لم أكن قد نظرتُ إليها عندما غادرتُ؛ لم تلاحظ ما كنتُ أنوي فعله، لكنني أدركتُ الآن جيدًا أنها كانت تنظف إناء الزهور النحاسي الذي كان يقف بجانب النافذة في المنزل بعد ظهر كل يوم سبت.

سرتُ حوالي مائة خطوة، ثم اضطررتُ للجلوس على جانب الطريق. أغلقتُ يدي حول حزمتين كثيفتين من العشب، هذا رائع، عندما تحتفظ برائحة العشب الحلوة، السيقان ناعمة ورطبة. ضغطتُ وجهي على العشب، هل فعلتِ هذا من قبل، أيتها المُمرِّضة؟ في العالم كله لا يوجد شيء أكثر روعة من ذلك – بالنسبة لطفل.

لكن التفكير في معجون التنظيف لم يتركني – بالكاد كنتُ أستطيع شمَّ رائحة العشب؛ أدركتُ أنه يجب عليَّ العودة إلى المنزل وتقشير البطاطس لإعداد طعام يوم الأحد. عندما جلستُ،

عادت المنارة إلى طبيعتها كنهاية للنزهة، وفيما وراء ذلك لم يعُد العالم موجودًا.

انتهيتُ من أكل الشوكولاتة على أي حال، عندما استدرتُ لأعود نحو المدينة، كان بإمكاني رؤية ورق الألومنيوم المَطويِّ مُلقًى على العشب.

يختلف تمامًا المشي على السد الذي يؤدي إلى البحر عن المشي على السد نفسه عندما يكون هو طريق العودة إلى المدينة. يمكنك بعد ذلك أن ترى كيف تكبر أمامك مربعات المنازل بسرعة أكبر مرة أخرى. كانت قدماي ثقيلتين مثل الرصاص عندما كنتُ أسير في ظلِّ جسر السكة الحديد - في وقت لاحق راودني عند ذلك المكان شعور دائمٌ بأن هذا هو المكان الذي تبدأ فيه المدينة مرة أخرى.

كانت تلك مُغامَرة طفولتي الوحيدة - اليوم أنا مُندهِشة من تذكُّري لها جيدًا. كما أنني لم أحاول الهروب من المنزل مرة أخرى مُطلقًا، واتضح لي أخيرًا أن الأطفال لا يمكنهم فعل ذلك.

عندما جلسنا على الطاولة في المساء لتناول العصيدة وعصيدة الحليب الرائب مع شراب، عدتُ إلى المنزل بشكل طبيعي مع الآخرين، وأعتقد أنني استمتعتُ بالجلوس على الطاولة مع قطعة قماش بيضاء نظيفة أمامي، وطبق أبيض، وملعقة صفيح. لكن عندما فتحت العصيدة، واضطررتُ إلى إبقاء عينيَّ مغمضتين

لأن أبي يصلي، كانت رائحة اللبن الرائب فظيعة جدًّا لدرجة أنني انهرتُ.

نظرتُ في عيني أبي عندما انتبهتُ، ولن أنسى تلك اللحظة أبدًا. تفحَّصني بنظره بعناية ودقة كما لو كان ينظر في ورشة العمل إلى خِزَانة أو طاولة تحتاج إلى إعادة طلاء. كان لأبي عينان صغيرتان، زرقاوان فاتحتان، منتبهتان. قال لوالدتي إن ذلك يحدث في سني، ثم أنهى صحنه وشكر وانصرف.

كان أبي يأكل دائمًا على مهل، ويأكل كل ما يحصل عليه، لكنه يرتشف بصوت عالٍ، وهو ما وجدته قبيحًا جدًّا حتى في ذلك الحين.

كانت أمي معي عند طبيب التأمين الصحي الذي قال إنه فقر الدم، وأنه يجب أن أتناول أقراص الحديد وأشرب الحليب – في ذلك الوقت، كان الأطفال الذين يفتقرون إلى أي شيء يشربون الحليب دائمًا. في مدرستنا كان هناك صف كامل من زجاجات الحليب للأطفال الضعفاء، في الصباح وعند الظهر كنا ننهض واحدًا تلو الآخر لشرب كوب، نمشي على أطراف أصابع أقدامنا حتى لا نزعج الآخرين، وأيدينا خلف ظهورنا، هكذا كان ينبغي أن يكون الأمر.

تجرُّع كوب كبير من الحليب البارد في مَعِدتي أشعرني بالقرف، ارتجفتُ في كل مرة كنتُ أنتهي من إفراغه بداخلي. من

المؤسف أن لون بشرتي لم يتغير بفضله، فقد كان الحليب باهظ الثمن يعني تضحية من والدتي، لكنني كنتُ وما زلتُ شاحبةً، لذلك أعطتني أيضًا زيت كبد الحوت في المساء. لقد استغرق الأمر دائمًا وقتًا طويلًا قبل أن أتخلص من طعم زيت كبد الحوت في فمي وأنام.

هل يمكنكِ أن تتخيلي أنني الآن أودُّ أن أضع رأسي على الطاولة، أيتها المُمرِّضة، وأن أبكي، أبكي كل الدموع التي حبستها في طفولتي؟ لأنكِ كما ترين، لم أعُد أنا الفتاة الصغيرة التي اعتدت أن أكونها، وأشعر بحزنها العميق الشديد. إنه مختلِف تمامًا عن حزن الكبار، لكنه يؤلمني كثيرًا لدرجة أنني يمكن أن أصرخ.

لا، من فضلكِ، لا تضعي أدوات الحياكة جانبًا. واسمحي لي أن أجلس معكِ لفترة أطول قليلًا، لا تضعيني في الفراش. أنا بالتأكيد أيضًا لن أصرخ، هذا كلام أقوله فقط، يمكنني كبت نوبات البكاء بشكل جيد.

لا أتذكر أي حزن حقيقي من أيام دراستي، لم يحدث شيء على الإطلاق. كان الأمر مُملًّا فقط، في المدرسة كنتُ دائمًا أعاني من الضغط بين عيني وأنفي، مما يدفعني إلى التثاؤب، لذلك غالبًا لم أنظر إلى الكتاب أو السبورة، وكنتُ أتعرض للتوبيخ. مجرد التوبيخ، لم يكن هناك أي شخص في المدرسة تقريبًا يُعاقب بالوقوف في الزاوية أو مغادرة الغرفة، في تلك المدرسة لم يكن

هناك أي شيء يحدث تقريبًا. كان لدينا المُعلِّم نفسه من الصف الأول إلى الفصل الأخير، وسار كل شيء تبعًا لنظام خاص به. انتقلت الكتب المدرسية من الجزء الأول إلى الجزء السادس، في دفاتر التمارين، كانت المسافة بين الخطوط الزرقاء تقترب كل عام، وكانت الخرائط الجغرافية والخرائط التعليمية لجميع الفصول مُرتَّبة في خِزَانة الخرائط، في أقصى اليمين تلك الخاصة بطلاب الصف السادس. أتذكر ذلك لأن المُعلِّم كثيرًا ما طلب مني رصَّ الكتب والدفاتر في الخِزَانة، وفي ذلك الحين كنت أستخدم أصابعي بمهارة كبيرة. كان المُعلِّم طويل القامة، وله بشرة صفراء وأسنان بُنيَّة – خلع ذات مرة سنتين أماميتين، كان عليَّ بعد ذلك أن أستمر في التحديق في الفجوة المُظلِمة حيث كانتا.

يا له من جنون! – لماذا أحكي لكِ هذا؟

أتذكر بشكل أفضل السياج الخشبي الأخضر عندما كنتُ في المدرسة، والذي رسم عليه الأولاد أشكالًا بخطوط بالطباشير. رسمتُ أيضًا على السياج بنفسي، خلال فترة الاستراحة الطويلة، ولكن ليس بالطباشير الأبيض، كان لديَّ أعواد طباشير جميلة باللونين الأحمر والأزرق، والتي كنتُ أرسم بها النساء في الفساتين الطويلة.

أعجب ذلك الفتيات، لكنهنَّ لم ينظرْنَ طويلًا أبدًا إلى رسوماتي، كنتُ أيضًا أشعر براحة أكثر في الرسم عندما لا ينظر الجميع.

أحيانًا كنتُ أسند ظهري إلى السياج لأنظر إلى المدى، وأشعر بأشعة الشمس. فوق السياج المقابل، في مواجهة السماء، صادفني عددٌ من الشخصيات الغريبة، شكَّلت ملامح مبنى الإدارة المحلية القديمة مقابل المدرسة. كان رائعًا – في المُنتصَف وقف إله بحر قوي ينفخ بوقًا، وكان ينفخ خديه كما لو كان هو نفسه ريح البحر – كانت ترقد أو تجلس حوله نساء، نساء عاريات مُمتلِئات الجسم، شعرهنَّ يتطاير مع الهواء، ويرفعْنَ أصدافًا مفتوحة في الهواء. ما زلتُ أتذكر جيدًا مدى سعادتي عندما كانت السحب الرمادية تختفي خلف المجموعة الرائعة، وتجعلها تظهر بيضاء أمام السماء الزرقاء. عندما كنتُ أنظر لفترة طويلة، لم يكن هناك شيء آخر في العالم، وكنتُ أركب الأمواج خلف الدلافين البيضاء، هناك كان مكاني.

في نهاية فترة الاستراحة الطويلة يدقُّ الجرس، جرس قديم مُتصدِّع، لا يمكن دقُّه بصوت عالٍ، لكنه أصابني في بعض الأحيان بالخوف لدرجة الشعور بالمرض. حتى اليوم يمكنني سماع دقاته ورؤية حذائي الأسود ذي الرباط، الذي وجدت نفسي أقف أرتديه على حجارة فناء المدرسة.

لا يمكن رؤية السماء من حجرة الدراسة، أتذكر فقط الضوء الرمادي خلف نافذة طويلة، والذباب الأسود يزحف عليها.

عندما كنتُ في الثانية عشر من عمري، بعد الصف السادس،

خرجتُ من المدرسة. لم أشعر أبدًا بالحاجة إلى مواصلة التعلُّم مثل زملائي الآخرين، ولم أدرك وقتها أنني لم أكن أعرف ما يكفي لمواجهة العالم. فقد احتاج العالم لعملي على الفور.

أوه، لكنني كنتُ أعرف الكثير عن العالم، أكثر كثيرًا مما يتعلمه المرء في المدرسة. لكن لم يكن من الجيد معرفة الكثير، فهذا يدفع إلى التفكير كثيرًا، وكان ذلك مُمكِنًا فقط في المساء، وإلا لم يكن هناك وقت لذلك. في السرير، فكرتُ في كل الأشياء بين الرجال والنساء، وغالبًا كانت الفتيات في المدرسة يفعلْنَ ذلك - كنَّ يتهامسْنَ في زوايا هادئة، لكنني لم أرغب في الانضمام إليهنَّ؛ لأنهنَّ كُنَّ يضحكْنَ كثيرًا، وهو ما وجدتُه قبيحًا جدًّا في ذلك الحين. لم أشعر أبدًا بالرغبة في الضحك، لأن الأمر برمته كان مُخيفًا وخطيرًا - في المنزل كثيرًا ما رأيتُ والدتي تنجب أطفالها، ثم كنتُ اضطر إلى الاتصال بالقابلة لأنني كنتُ الأكبر سنًّا. ولم أستطِع أن أضحك على كل الأشياء الأخرى أيضًا - لقد استبعدتُ كل فكرة عن ذلك. رأيتُ التفكير في مثل تلك الأشياء على أنه قذارة وغير منطقي، لم يتبادل أبي وأمي قُبْلَة في حضورنا.

لاحقًا، عندما كنتُ أعمل بالفعل في ورشة الخيَّاطة، عجبتُ من أن والديَّ اللذين لم يقبلا بعضهما بعضًا أبدًا، أنجبا رغم ذلك الكثير من الأطفال. عملتُ كمساعد لامرأة فرنسية، وكانت تربت على شعر زوجها عندما يعود إلى المنزل.

الآن، أعرف بالطبع كل شيء عن العالم، كثيرًا جدًّا، أيتها المُمرِّضة، أعرف الكثير لدرجة أنني يجب أن أكون ميتةً بالفعل؛ أي شخص آخر سيموت لو عرف ما أعرف. والآن أعلم أيضًا أن أبي لم يكن شخصًا يُقبِّل – لقد تزوج لنفسه فقط.

لا أعرف إذا كانت أمي تعلم أن الأمر سينتهي بها في الجحيم وهي على قيد الحياة. لا أعتقد ذلك، لكنها كانت تشتاق إلى الجنة كثيرًا. كان لديها لوحة خلفية قديمة من تقويم مسيحي، وعليها ملائكة بملابس بيضاء. من الممكن أن يكون لتلك الملائكة البيضاء في الواقع توكات شعر بيضاء، لكن كان لديها فقط أغصان خضراء في أيديها.

كانت أوراق التقويم قد انتُزِعت كلها منذ فترة طويلة عندما علَّقت الأم اللوحة في غرفة المعيشة أخيرًا، لكنها بعد ذلك قامت بتثبيتها على الحائط الخشبي فوق الخِزَانة الجانبية في المطبخ باستخدام دبوس رسم؛ عُلِّقت هناك لسنوات حتى أصبحت دُهنيةً تمامًا. رأيتُ أنها تنظر إليها وهي تقشر البطاطس، لقد فعلت ذلك بتلقائية شديدة، كما لو كان بدافع شعوري، ثم تثبَّت عيناها على الملائكة.

عندما كنتُ في الثانية عشر من عمري، كان لدى أمي تسعة أطفال، وكان عمرها اثنين وأربعين عامًا. تزوج أبي وأمي في وقت مُتأخِّر؛ لأنه كان من العار في أيامهما شراء الأثاث بالتقسيط.

أدركتُ أمي فقط ذات شعر رمادي.

مكثتُ في المنزل لمدة عام؛ لأتعلم منها الأعمال المنزلية، أراد أبي ذلك بهذه الطريقة. في البداية اعتقدتُ أن ذلك سيكون أفضل من المدرسة؛ لأنه يُمكِّنكِ من تقسيم العمل بنفسكِ. لكن الأمور ازدادت سوءًا؛ في المدرسة، كان من الواضح مُسبقًا أن العمل لن يتوقف أبدًا، لذلك كنتُ أسمح لنفسي بوقت للراحة لا أنظر فيه إلى الكتاب. أما في المنزل، كنتُ أتطلع دائمًا في البداية لأن يكون لدي وقت للقيام بشيء لطيف بمجرد الانتهاء من العمل. لذلك كنتُ أسرع، لكن ما كنتُ أنتهي من عملٍ حتى اكتشف شيئًا آخر لأفعله لم أفكر فيه، وكان هذا نفس الأمر بالنسبة لأمي.

أيتها المُمرِّضة، أنتِ لا تعرفين ذلك، الأغنياء والأشخاص الراقون لا يعرفون ذلك، والمُمرِّضَات وكل مَنْ يعلم أنه يُمكنه الراحة بعد العمل لا يعرفون ذلك - وكيف عساهم يعرفون؟ إنها خيبة أمل رهيبة عندما تقترب اللحظة التي لن يتعين عليك فيها فعل أي شيء لفترة من الوقت، أو التجوُّل قليلًا، أو التحدُّث إلى شخص لا يفعل أي شيء أيضًا - وفجأة يتمُّ تكليفكِ بمهمة أخرى، وعليكِ القيام بذلك لأنكِ تعلمين أنه لا توجد طريقة أخرى. خاصة عندما يكون عمرك ثلاثة عشر عامًا فقط.

كان الأمر فظيعًا جدًّا، ما زلتُ أتذكر ذلك بوضوح، لم أكن طفلة حقيقية. في ذلك الوقت حاولتُ أن أُسمم نفسي. أكلتُ رؤوس

أعواد الثقاب من علبة كاملة؛ لأنني اعتقدت أنني سأموتُ من الفوسفور – لقد تعلمتُ في المدرسة أن الفوسفور سام. لكن المحاولة لم تنجح، ربما بالغ المُعلِّم، لقد أُصِبتُ فقط بألم في المَعِدة.

إذا لم يقع الحادث لأبي، فربما كنتُ سأضطر للبقاء في المنزل إلى الأبد لمساعدة أمي. كان الأب يومها يطلي حواف سطح الكنيسة الإصلاحية عندما انقطع الحبل الذي يحمل مقعده. سقط سقوطًا عميقًا. قالوا في المستشفى إن بقاءه على قيد الحياة حتى الآن معجزةٌ حقيقية، لكنه لم يستطِع العمل مرة أخرى. حصلت الأم بشكل طبيعي على دعم من خدمة الرعاية الاجتماعية والكنيسة، ولكن عندما اكتشف السادة أنني كنتُ أساعدها في الأعمال المنزلية، قالوا إنه من الأفضل أن أكسب أموالًا، وهذا هو السبب في أن والدتي أرسلتني للعمل كمساعدة لتلك المرأة الفرنسية.

أيتها المُمرِّضة، ألم تشعري أبدًا بالسوء تجاه نفسكِ، يمكنني القول إن بشرتكِ تتمتع بلون صحي وشعركِ مُمشق بدقة. ربما لديكِ أبٌ روحي، قِسٌّ، يفخر بأنكِ تقومين بعمل الخير في العالم.

هل يمكنكِ أن تتخيلي، أنني كنتُ أصلي في الكنيسة حتى لا يشفي الله والدي، لأنه لولا ذلك كنتُ سأضطر إلى العودة إلى المنزل؟

آه، لقد نظرتِ إليَّ الآن. نعم أيتها المُمرِّضة، لقد كنتُ بهذا السوء. لكنني لم أندم على ذلك، حتى الآن أنا لستُ نادمةً على ذلك، على الأقل كنتُ صادقةً مع الله. لو كنتُ قد صليت من أجل عودة أبي إلى صحته، لكنتُ كذبت عليه. لم أشعر بالأسف تجاه أبي، كان عليه أن يرقد، هذا كل شيء. لم يكن لديَّ أي تعاطف، كان يحصل على شريحة لحم بقري أو قطعة لحم كل يوم، ونشاهده جميعًا وهو يأكل، لكنه لم يَدَعْ أحدًا يجربها أبدًا. كان المؤمنون يأتون لزيارته – لقد كان أكبرهم سنًّا في الكنيسة. تدريجيًّا تغيَّرت يداه العاملتان، وأصبحتا بيضاء وجميلة، وأصبح صوته أرقى أيضًا، حيث تحدَّث عن الكتاب المُقدَّس مثل القِسِّ – أطلقوا عليه أنه من «العائدين»، وجلبت له زوجة كاتب العدل الكرز المحفوظ.

مات قبل أربع سنوات فقط، بعد أن ظلَّ طريح الفراش لمدة ثلاثة وعشرين عامًا، وذكر الإعلان أنه تحمَّل معاناته بصبر.

لكني أقول لك أيتها المُمرِّضة، إنه لم يتألم، لقد استمتع بحياته، وأكل وشرب على مهل ما أتى به الناس، وقال لهم كلمات طيبة، انطلاقًا من علمه بأنه من «العائدين». وبعد أن رقد خمسة أعوام، أنجبت أمي طفلًا آخر. العاشر لها. كانت تلك لِينتشيه.

ليست هناك حاجة لعدِّ غُرز حياكتكِ بصوت عالٍ. لا يهمكِ ما إذا كنتُ أتحدثُ أو أصمتُ. أنا أيضًا أتحدثُ فقط لنفسي، لأنني أريد أن أتأكد من أنني لستُ مجنونةً.

ومع ذلك، دخل شيء ما إلى أذنيكِ – وإلا لما كنتِ لتعدي الغرز.

الآن أُكمل. لا، لستِ بحاجة إلى النظر إليَّ. أنا أيضًا لا أُشفق عليكِ. سينتهي عملكِ في السادسة، ثم يمكنكِ تناول شطائركِ في غرفة المُمرِّضَات. عندما ستمشين في الشارع مُرتديةً زي المُمرِّضة صباح الغد، فسيُظهر لك الناس الاحترام – لكنهم لن يعرفوا أنكِ تخشين الاستماع إلى إنسان تعيس. لماذا بسم الرَّب لا تجيبين؟

إذا أردتُ أن أحكي لكِ كل شيء عني وعن العالم – كما كنتُ سأحكي للرَّب إذا علمتُ أن لديه أذنين ...

آه، أنتِ تعبسين الآن – وتُنصتين الآن. ولكن الرَّب لا يسمع. أنا لا ألومه على ذلك – سيكون الأمر فظيعًا إذا كان عليه الاستماع إلى العالم بأسره. ما كنتُ أستطيع ذلك أيضا.

كما ترين، هذا شيء لم أتعلمه في المدرسة أيضًا، فكرتُ فيه في السرير في الليل عندما لم أستطِع النوم بسبب طعم زيت الكبد. منذ أيام دراستي، أدركتُ على وجه اليقين أن الرَّب لا يُنصت.

في صفنا، بدأ المُعلِّم الدرس في الساعة التاسعة صباحًا بالصلاة، تمامًا مثل كل مُعلِّم في المدرسة. كان هذا هو الحال في جميع المدارس المسيحية في المدينة. وصلى المُعلِّم بشكل قبيح للغاية، ولاحظتُ أنه كان يتأكد من أن الإسفنج والأقلام جاهزة،

وأننا جميعًا نصلي أيضًا. لم يكن بإمكاني المشاركة في الصلاة؛ لأن أسنانه البُنيَّة كانت تمضغ صلاة الصباح القاسية.

ماذا لو كان على الرَّب أن يستمع إلى كل صلوات الصباح؟ وفي نفس الوقت ينتبه للأولاد الذين يعدون البِلْي في جيوبهم، أو للفتيات اللواتي يقرصْنَ بعضهنَّ بعضًا؟ سيكون ذلك فظيعًا بالنسبة للرَّب.

وفي أيام الأحد في الكنيسة، عندما تقف السيدات الأغنياء بقبعاتهنَّ الصيفية الجديدة طويلًا وتغنيْنَ، أو عندما كنتُ أذهب إلى خدمة الخيام مع والدي وأمي، حيث يعلو الصراخ، كنتُ أدركُ بالتأكيد أن الرَّب يُشيح بنظره ويغطي أذنيه.

غباء، هذا ما يظلُّ مع أحدنا إلى الأبد. عندما كاد حزني يمزقني، كنتُ أجثو على ركبتي أمام سريري، أيتها المُمرِّضة، أضغط وجهي في غطاء السرير، كما يفعل المرء في حال البؤس – لكنني لم أكن أجد الكلمات المُناسِبة، لم أكن أعرف ما إذا كنتُ أتحدثُ إلى شخص يستمع.

لقد أفسدوا عليَّ الأمر. أيتها المُمرِّضة، إنه أمر مُروِّع، لقد أفسدوا الأمر لكل شخص. لم يعُد الرَّب ينظر إلى الناس بالأسفل، بل إلى السماء، حيث تسبح النجوم.

انظري إلى الأعلى، أيتها المُمرِّضة، هل ترين كيف أن النجوم

قد تجمَّعت خلف الشبكة الموضوعة على النافذة؟ يمكن أن تكون ليلة الصيف زرقاء، خضراء، وزرقاء مثل الماء والسماء في الوقت نفسه. الآن النجوم تسبح في السماء مثل زنابق الماء على بركة في الحديقة – إذا كنتُ على الجانب الآخر من الشبكة، كنتُ سأرفع يدَيَّ، وأنتظر سقوط نجم فيها.

ربما يكون ذلك مُمكنًا – إذا أراد الرَّب أن يصنع معجزة. تحت سماء ليلة كهذه، وضع هانيس يده على صدري لأول مرة ...

يا إلهي، أيتها المُمرِّضة، أعلم أنني سأخبركِ عن هانيس، يمكنني أن أشعر بتدفق الكلمات – لا أريد أن أخبركِ عنه، أيتها المُمرِّضة – يجب ألا تعرفي ذلك، إنه مِلْكي فقط. لكني أحكي عن كل شيء آخر، لقد أخبرتكِ بالفعل عن الأشياء الصغيرة من طفولتي، والآن هناك الكثير منها، ثم في مرحلة ما يأتي هانيس بعد كل شيء – لقد كان نهاية كل شيء.

الآن أُكمل، ولكن هناك الكثير ليأتي قبل هانيس، فمن الممكن أن أتحدث عن ذلك طوال الليل – حتى عندما تأتي المُمرِّضة النهارية في السادسة، لن تكوني قد عرفتِ أي شيء عن هانيس.

الآن أنا في بداية كل شيء آخر.

خرجتُ إلى العالم بمفردي، وتركتُ الوقت الذي أمضيته في

المنزل ورائي. كنتُ في الثالثة عشر من عمري وعرفتُ أن لدي عيون بُنيَّة كبيرة، وبياضهما مُزرَق مثل الخزف، وشعري كان أسود لامعًا وناعمًا للغاية . لم أعُد شاحبةً جدًّا، وظهرت على جسدي المُنحنَيات تدريجيًّا، فقط ساقاي وذراعاي كانتا نحيفتان بشكل طفولي. أعرف جيدًا كيف بدوتُ في ذلك الوقت، لأنني كنتُ أجلس مباشرة مقابل مرآة كبيرة في ورشة المرأة الفرنسية. كانت بها بعض النقاط العمياء، لكن كان بإمكانك رؤية نفسك بوضوح تام في الزجاج الأملس. في المنزل لم يكن هناك سوى مرآة صغيرة مُلطَّخة مُعلَّقة فوق الحوض.

أمام مرآة الزينة الكبيرة، لا بد أنني قمتُ بخياطة آلاف الكباسين والكُبش في جميع أنواع الفساتين، وقبل أن أضعها في حجري، كنتُ أرفع كل واحدة جديدة منها، مصنوعة من قماش مختلِف ولون مختلِف، لأرى كيف تبدو بالنسبة لي. كان رائعًا في البداية، ولفترة من الوقت كان من دواعي سروري أن أرى عينيَّ وشعري فوق تلك الملابس الأنيقة. قبل كل شيء، كانت مُغامَرة. عندما كانت فتاة المرآة تنظر إليَّ، كنتُ أعرف فجأة أن ثوبي الباهت كان مُجرد حلم، وأن جميع الأقمشة الناعمة التي مرَّت على حجري ستبقى لأرتديها لاحقًا عندما أستيقظ.

عندما كنتُ في الخارج مع صندوق جميل كبير لتوصيل الملابس، لم أكن حزينة على الإطلاق لأن ثوبي كان قديم الطراز وغير مزين، لأنني كنتُ أنشغلُ بتخيُّل ما سأرتديه إذا كان لدي

حرية الاختيار من بين جميع الملابس الجميلة.

في ذلك الوقت، كنتُ غالبًا أعود إلى المنزل مع الخادمة من متجر الأسماك بجوار الورشة. كنا نعيش في نفس الحي، لم يكن حيًّا متميزًا، فبعد حادث الأب، اضطرت أمي إلى الانتقال إلى شارع فقير؛ لأنها لم تعد قادرة على تحمل الفائدة وأقساط السداد للمنزل البرجوازي الراقي.

كنا نعرف بعضنا بعضًا فقط من الشارع، ولم نقُم بزيارة بعضنا بعضًا أبدًا، لكننا علمنا أنه ليس لدى أي منا الكثير من الرفاهية في المنزل. ومع ذلك، كنا نتحدث عن الرفاهية التي عشناها. ربما لم تُصدِّق قصصي – ولا أنا كنتُ أُصدِّق قصصها. على سبيل المثال، زعمتُ أن لدي ثلاثة فساتين سهرة حريرية في خِزَانة ملابسي، واحد وردي، وآخر أزرق فاتح، وواحد أبيض؛ في كل مرة كنتُ أصف فيها الفساتين، كانت تزداد جمالًا، ثم فكرت في حذاء مطلي بالذهب، وشال من الحرير يناسب الفساتين، وكان ذلك يُشعرني بالسعادة. أخبرتني بدورها عن الطعام الاحتفالي الذي طهته والدتها في غداء يوم الأحد، حيث أكلت سمك السلمون مع المايونيز والمحار كمُقبلات، بل وشربت بعد ذلك الشمبانيا.

لكن الاستماع لم يكن هو الأجمل وإنما الحكي. بينما تشير بأصابعها إلى مدى ثخانة ثعبان البحر المُحمص، كنتُ أُصمم لنفسي في خيالي ثوبًا مسائيًّا مصنوعًا من قماش البروكار

الدمشقي الأرجواني.

عندما كنتُ في الخامسة عشر من عمري، صنعت لي الخياطات الأكبر سنًّا في الورشة فستانًا مخمليًّا، لكنه كان مصنوعًا من القطن المخملي، وقد صُدمتُ عندما وجدتُ الهدية على مقعدي في صباح يوم عيد ميلادي – كان ملمس المخمل خشنًا. لم أستطِع أن أقول شكرًا، لكن لم يلاحظ أحد، كانوا سعداء للغاية بشأن المفاجأة. حضرت أمي في اليوم التالي وشكرتهنَّ؛ كانت تسأل دائمًا عندما نحصل على شيء ما: «هل قدمتِ الشكر أيضًا؟»

في المنزل، كان هناك الكثير مما يستحق الشكر، تقريبًا على كل شيء. لبس الأطفال الملابس التي استغنى عنها الأشخاص الأفضل، وجاءت الفاصوليا والبازلاء من إدارة رعاية الفقراء والإيجار من الإدارة المحلية. كسبت الأم عيشنا جميعًا لأنه لم يصعب عليها تقديم الشكر.

ولكنه كان صعبًا عليَّ، لم أستطِع ذلك – كنتُ طفلةً صعبة المِراس، هكذا قال الناس. كما أنني لم أرتدِ أبدًا الأشياء التي تخلص منها الآخرون، فبالنسبة لي لم يكن هناك أي شيء مناسب في الطرود، لذلك كان على والدتي أن تشتري لي القماش من السوق من وقت لآخر. كانت مسرورة جدًّا بالفستان المخملي القطني البُني.

لقد جعلني ذلك الفستان شخصًا بالغًا في عيد ميلادي الخامس

عشر.

لقد تحمَّس الآخرون لهديتهم لدرجة أنهم أرادوا مني أن أجرب الفستان على الفور. لقد خلعْنَ بلوزتي وتنورتي الباهتة، ثم رأيت نفسي مرتدية ملابسي الداخلية القطنية الصفراء في المرآة – لقد كنتُ أنا – وليس فتاة مرآة تنظر إلي.

ألبسنني ثوبي المخملي البُني، وفجأة أصبحتُ أرتدي ملابس فقيرة. كان بإمكاني أن أرى كيف حدث ذلك – فكثيرًا كنتُ أرى وجهي في تلك المرآة فوق حرير لامع وناعم، والآن تنظر عيناي إلى المخمل القطني القاسي غير الناعم – عندها عرفتُ: لقد كنتُ ذلك الشخص وليس أحدًا غيري، الطفلة الكُبرى لعائلة تعيش على الصدقات – وفي الوقت نفسه كان من الواضح لي أنه يجب أن أكون سعيدةً الآن. لكنني لم أستطِع فعل ذلك، لم أكن سعيدةً، لقد فهمتُ أخيرًا أن الفقر أمر قبيح.

في فترة ما بعد الظهر، أحضرْنَ لي قوس شعر، أحمر غامق لا يتناسب مع الفستان على الإطلاق من حيث اللون. بعد أن ثبتْنَ القوس في شعري، لم أعُد أجرؤ على النظر في المرآة. عندما يقدمون لنا الحلوى يوم الأحد، كنتُ أشعر بقشعريرة عند رؤية الصوص حول البودينج، كان قوس الشعر مثل الكِشْمش الأحمر – كان عليَّ أن أرتديه حتى أصبح رثًا ومهترئًا.

جلستُ في مقعدي مقابل المرآة حتى بلغتُ الثامنة عشر من

عمري، لكنني لم أقابل فتاة المرآة مرة أخرى، فقد أصبحتُ أرى نفسي فقط. وحتى عندما كنتُ أرتدي أجمل الملابس، كنتُ أعرف دائمًا أنها تخُص الآخرين.

لكنني لم أستطِع تقبُّل الأمر، فقد كنتُ أتوق بشدة إلى أن أرتدي ملابس أنيقة؛ كنتُ مستاءة جدًّا إلى حدِّ الألم. عندما نظرتُ إلى الحذاء الأسود الذي اشترته أمي حديثًا من الإسكافي، كان جلده الصلب يضغط على قدمي، وكنتُ أرتجف بردًا باستمرار وأنا أرتدي مِعطفي الشتوي، الذي صغُر عليَّ، لأننا كنا نقوم في الورشة بحشو معاطف فِرَاء ناعمة وخفيفة.

أيتها المُمرِّضة، أنتِ لا تعرفين شيئًا من هذا القبيل، كان لديكِ دائمًا ملابس جميلة وأنيقة – ليست مُلفتة جدًّا، بالطبع، يمكنني فهم ذلك – لكنني مُتأكِّدة من أنه سُمِح لك بالخروج وشراء قبعة أو مِعطف من المتجر مع والدتكِ أو أختكِ الكبرى في بعض الأحيان، وتجربة أشياء من مجموعة كبيرة حتى يعجبكِ شكلكِ في المرآة.

كانت أمي تبحث لي خلال النهار عن أقمشة في السوق، وعندما كنتُ أعود إلى المنزل في المساء، كنتُ أجد هناك ما اشترته بأزهد الأسعار. ثم سُمح لي بعد ذلك بخياطة شيء منه. كان لديَّ أصابع ماهرة، لكن أمي دائمًا تُفضِّل الأقمشة الرخيصة. إنهم لا يعرفون كم هو مُحبط أن تُمضي كل المساء في خياطة فستان جديد، وعندما تنتهي، ترى انعكاس صورتكَ في نافذة متجر، وتكتشف

أنكَ تبدو فقيرًا تمامًا كما في القديم البالي. فستان. أنتِ لا تعرفين ذلك، ولا يعرف الناس أيضًا كيف يُؤثِّر ذلك عليكَ عندما تكون صغيرًا. أعتقد أحيانًا أنهم لو عرفوا فسيفعلون شيئًا ما لجميع الفتيات النحيفات اللائي يمشين بمحاذاة نوافذ المتاجر بأحذية متآكلة، وينظرن إلى الأشياء التي لا يمكنهنَّ شراؤها. في آخر الأمر، يتبرع الناس لإطعام أطفال المدارس، أليس كذلك؟

أوه، أنا أقول ذلك فقط – يعرف الناس بالفعل ما عليهم القيام به. على أي حال، لم أستطِع تحمُّل ذلك، وعندما كنتُ في الثامنة عشر من عمري ذهبتُ مع وكيل تجاري أعطاني المال.

ومع ذلك لم أكن سيئةً. السيء هو القبيح، وأنا لم أفعل أي شيءٍ قبيح.

لو ذهبتُ إلى السد مع الشباب، لكنتُ شعرتُ بالسوء والقذارة. كانت الفتيات والفتيان من منطقتنا يذهبون إلى هناك في المساء، وأخبرتني إحدى الجارات أنهم يفعلون كل أنواع الفظائع بعضهم مع بعض. بالتأكيد، كانوا صغارًا ولم يشبعوا من شيء في حياتهم أبدًا، لذلك كانوا جائعين ونهمين جسديًّا. اليوم أفهم ذلك جيدًا، لكن وقتها ترفعتُ عن ذلك. قلت للفتاة، لم أرغب في أن يكون لي علاقة بشيء فظيع كهذا، وبعد ذلك قاموا جميعًا في البداية بإزعاجي ومضايقتي ثم تركوني لحالي.

ومع ذلك، تبعني أحد الأولاد لفترة، كان طويلًا، وله شعر أشقر

أبيض، ويعيش في شارعنا وكان غالبًا يعتني بي عندما أعود من الورشة في المساء. كانت كتفاه عريضتين، ويداه حمراوين، كان يتعلَّم عند عامل بناء. عندما لم يكن يرتدي ملابس العمل، يظهر كم هو بسيط حقًّا، لم يكن يعرف ماذا يفعل بنفسه. إذا سار بجواري، يميل كما لو كان بحاجة إليَّ، لكنني كنتُ أخاف منه، لذا سرعان ما أدخل من الباب عندما نصل إلى منزلنا.

استمر الأمر هكذا بضعة أشهر، يسير بجواري مِن دون أن ينبس ببنت شفة، لكنه لم يأتِ بعد ذلك لأن الخادمة من متجر الأسماك لم تتردد في الذهاب معه إلى السد. شعرتُ بالأسف لأنني اضطررتُ للسير وحدي مرة أخرى.

كان الوكيل التجاري يحضر إلى السيدة الفرنسية (السيدة لوي) كل موسم. في الواقع، لم يكن مُمثلًا عاديًّا لشركة، بل كان ابنًا لصاحب شركة. كان يرتدي في الصيف قبعة إكوادورية من القشِّ، وفي الشتاء قبعة مخملية مُضحكة، تتدلَّى أطرافها. لأنه كان لديه شارب أسود صغير، لا أستطيع أن أتذكر تمامًا شكل فمه. عندما شعرتُ به لاحقًا على فمي، لاحظتُ أنه كان في الأساس شابًّا عاديًّا – لكن في البداية وجدتُه مميزًا جدًّا.

عندما كان يحضر، كان أول شيء نفعله هو تفريغ حقائبه، حيث كان يُحضر أشياء جديدة، القماش الدمشقي، والمخمل، والتول مع اللآلئ اللامعة والترتر. كان مشهدًا احتفاليًّا عندما

يُخرج الأقمشة الجميلة من الحقائب، ويمررها بين يديه. في مثل ذلك اليوم، عندما كان يقوم بتفريغ حقيبته، لم أكن أستطيع متابعة عملي؛ لأنني كنتُ أختلس النظر طوال الوقت. وقفتْ الخيَّاطة الأولى بجانب المدام وساعدتها في الاختيار، لقد حسدتها بشدة. ضحك الثلاثة كثيرًا، لكنه كان دائمًا مُهذبًا ومُنقادًا للغاية. لاحظتُ لاحقًا أنه كان يتصرف دائمًا بانقياد قليل تجاه الجميع، وذلك لأنه كان تاجرًا. لكن مزاجه جيد، هذا كل ما كان عليه، هكذا عاش حياته.

في اليوم الذي جاء فيه بمجموعة الربيع، كنتُ أجلس في زاوية من الورشة، وقطعة قماش بيضاء منشورة على ركبتي، لأنني كنتُ أعمل في ذيل فستان عروسة. كانت عينيَّ تؤلمني من النسيج الأبيض والضوء الأبيض. وأيضًا لأنني لم أنَم في الليلة السابقة؛ بسبب لِينتشيه.

لماذا وُلِدت؟ لماذا اضطر والدي إلى مضايقة أمي بجسده المشلول حتى أنجبت طفلًا آخر؟ كنتُ أعلم أنه كان كذلك، على الرغم من وجهه الشاحب المتدين، كنتُ أعرفه جيدًا، حتى لو لم أتحدث معه تقريبًا تمامًا؛ استطعتُ أن أرى بأم عيني كيف كان، وكنتُ أسمع من خلال الجدار الخشبي الرقيق كيف ينادي أمي، التي كانت تُلبي دائمًا.

كنتُ أعرف ما كان يحدث بين والديَّ عندما يسمع المرء شيئًا

من هذا القبيل في المدرسة، فإنه يُشيح عنه، خاصة عندما يتعلق الأمر بوالديه. لكن عندما تسمعه في المنزل، فأنت تعلم: أن الأمر كذلك – وفي الوقت نفسه تعلم أن جميع الناس، مِن دون استثناء، لديهم حماقتهم وطمعهم السِّري، وأن المرء حتمًا سيصبح مثل الآخرين.

اعترى الشيبُ الأم تمامًا بالفعل عندما ولدت لِينتشيه – عندما كانت تحمل الطفلة في حجرها لتشرب، كان يمكن أن يظن المرء أنها الجدة. بقيت أيضًا ضعيفة وباهتة بعد الولادة، ولم تتحسن صحتها بعد ذلك – لاحقًا، قبل وفاتها، حكت لي الكثير.

لكن في ذلك الوقت عرفتُ فقط أن كارثة رهيبة أخرى حلت بي – لأن والدتي كانت مريضة، لم يكن بإمكانها أن تصطحب الطفلة معها في الليل، لذلك وُضِع المهد بجوار سريري.

لم يعُد لدي المزيد من الليالي، ولا الوقت لنفسي على الإطلاق. كان اليوم ضائعًا بالفعل من أجل الآخرين، كان عليَّ أن أعمل في الورشة للسيدات، وفي المساء في المنزل للأم والأطفال، أصلحتُ وحِكتُ الملابس لجميع أفراد الأسرة.

لكنني مع ذلك كنتُ أجد الليالي التي يمكنني فيها الانعزال عن أي شخص آخر. لكن أمي وضعت المهد المعدني بجوار سريري في المساء – لم أستطِع أن أجد وقتًا لنفسي تمامًا مرة أخرى. مِرارًا وتكرارًا كان هناك ضوضاء خافتة، كما لو كان أحدهم

يطرق بابي، ثم كنتُ أُدركُ في مُنتصَف الليل أن: الطفل هنا معي.

لم أستيقظ مُرتاحةً بعد ذلك. كنتُ أشعر في العمل وكأن الأمس واليوم كانا يومًا طويلًا لم يتوقف أبدًا. لم أستطِع الضحك مع الفتيات بعد ذلك، كان عليَّ أن أقوم بالجزِّ على أسناني حتى لا أتثاءب.

هل تتثاءبين أيضًا، أيتها المُمرِّضة؟

أُفضل الاستمرار في الحديث عن جرونمانز، فهذا بالتأكيد سيثير اهتمامكِ أكثر.

في ذلك الصباح، وكان ذيل الفستان الحريري المُطرَّز على ركبتي، شعرتُ كما لو أن العالم على وشك الانتهاء. كانت السيدة، الخيَّاطة الأولى، وجرونمانز الشاب يقفان في غرفة القياس المجاورة، وظلا يضحكان، وكل ضحكة كانت تُغلق حنجرتي، ولم أعُد قادرة على الابتلاع. سقط الضوء الأبيض من خلال نافذة على ذيل الفستان الأبيض والقماش الأبيض، ولم يتحرك وسط ذلك البياض سوى يداي بندبات الإبر على إصبعَي السبابة. وبعد ذلك، فجأة، انغلقت يداي حول الحرير الأبيض، كرمشته.

بالطبع شعرت بالصدمة، وقمتُ بفرد ذيل الفستان فوق ركبتي مرة أخرى – لا أعرف ما الذي أصابني. في اللحظة نفسها نظرت السيدة عبر الباب المفتوح وقالت: «تعالِ إلى هنا يا لِنتشيه!»

كاد قلبي يتوقف لأنني اعتقدتُ أنها تراقبني. لكنها نادت فقط لأنها احتاجت إلى شيء لترى شكل قطع الفِرَاء.

ثم وقفتُ في مُنتصَف غرفة القياس، وعلَّقت السيدة وجرونمانز قطع الفِرَاء عليَّ، ووضعت السيدة ما تمَّ شراؤه جانبًا على ظهر الأريكة السوداء الفخمة. كان فِرَاء ثعلب، وفِرَاء السمور، بالإضافة إلى الأصناف الأخرى، التي يتم ارتداؤها أيضًا في الصيف – فقط للمتعة ولأنها تجعلك مُدللًا.

انتهيا أخيرًا من قطع الفِرَاء، لكن بعد ذلك قال جرونمانز، «لدي الآن شيء مُميَّز للغاية.» فتح صندوقًا مُسطحًا، وعلَّق مِعطفًا حول كتفي لم أرَ مثله من قبل: رداء مصنوع من الديباج الذهبي. ووضع طوق فروٍ حول عنقي.

لم أستطِع أن أرى نفسي، لكنني استقمتُ في وقفتي، وثنيتُ ذراعي بأناقة حتى يظهر جمال القطعة الجميلة. تراجعت السيدة قليلًا، ونظرت إلى المِعطف، بينما نظر جرونمانز إليَّ.

شدَّتني عيناه، ووقفتُ ساكنةً، ومُنتصبةً، وبادلتُه النظرات. ثم لاحظتُ أنه ينظر إليَّ تمامًا كما تنظر إليَّ صورتي في المرآة – بإعجابٍ من المشهد.

اعتدتُ لاحقًا على تلك النظرات؛ عندما كنتُ أسير في شوارع التسوق، نظر إليَّ جميع الرجال بهذه الطريقة، وبعض النساء

أيضًا. لكن ذلك الصباح حدث ذلك للمرة الأولى، وكان الأمر بالنسبة لي أشبه باكتشاف عالم جديد.

بينما كان جرونمانز يقوم بتعبئة الحقائب مرة أخرى، أثنى على السيدة، وأعطاها أيضًا وشاحًا من الدانتيل، كان معظم مندوبي المبيعات يقدمون أشياء فاخرة صغيرة عندما يأتون لاستلام طلبًا. لم يعطني أي شيء، لكن عندما خرجت السيدة من الغرفة لفترة وجيزة، قال: «لا يوجد شيء لك هنا. لكنني أعيش في رويال.» نظر إليَّ بعناية، ليرى ما إذا كنتُ قد فهمتُ.

لقد فهمتُ، ولا شك في ذلك، بعد كل ما عرفتُه عن العالم. لم أكن مُحرَجةً أو غاضبةً منه على الإطلاق، كنتُ أشعر بالفخر قليلًا، على ما أعتقد، لأنه نظر إليَّ بوصفي امرأة ناضجة يريدها. عليكِ أن تتخيلي أنه كان مختلِفا تمامًا عن الشباب في بلدتنا، كان يتحلى بالأخلاق ولديه قبعة مخملية، وقد لفني في ثوبٍ مسائي، حتى بدوتُ وكأنني عارضة أزياء. كان لديه أصابع ماهرة حقًّا.

شعرتُ بمفاجأة غريبة عندما أخبرني بأمر رويال. فكرتُ: إذًا الآن حان الوقت.

لكن بالطبع لن أذهب إلى هناك، كان ذلك أمرًا مستحيلًا. كان فندق رويال هو الفندق الكبير الوحيد في المدينة – لِمَ لا يمكن أن أسأل هناك ببساطة عن السيد جرونمانز – كان الجميع سيعرفون ذلك في اليوم التالي. لذلك لم أُجِب، فقط نظرتُ إليه، وبدا أنه

يشعر بما كنتُ أفكر فيه. وبالتحديد، سأذهب بالتأكيد إلى هناك إذا لم يكتشف أحد ذلك. كان فضولي ضخمًا.

الفتيات الصغيرات اللائي يذهبن إلى الرجال لسْنَ سيئات، بالتأكيد لسْنَ كذلك. وهذا ليس قبيحًا أيضًا – لم أفعل شيئًا قبيحًا في كثير من الأحيان. لكنني كنتُ مُتحيِّرة نوعًا ما – لقد أصبحتُ امرأة بالغة الآن. يحدث ذلك فجأة. لا تعُد الملابس مُناسِبة لأنها تضيق حول الصدر، ويلاحظ المرء أنه أصبح مختلِفا تمامًا، وأنه صُنع من أجل شيء ما، ويبحث في كل الاتجاهات عن ماهيته بالضبط.

وبعد ذلك بالطبع يجد المرء شيئًا؛ لأنه يريد أن يجد شيئًا.

على أي حال، وجدتُ جرونمانز، الذي نظر إليَّ وكان راضيًا جدًّا عما رآه، شعرتُ بالفخر، كان شعوري أشبه بالوقوف على أطراف أصابعي في الداخل.

بالطبع لم أذهب في ذلك المساء. بدلًا من ذلك، قمتُ بخياطة فستان لأختي في المنزل من قميص داخلي لأمي – لا يزال بإمكاني رؤية قماش الفانيلا الوردي الباهت أمامي. وظللتُ أفكر: مُضحك، الآن قد يعتقد أنني قادمة – ربما يأسف لأنني لن أحضر – لكنني لن أذهب.

سأخبركِ بشيء لم أخبر به أي شخص من قبل. ربما لأنني

أردتُ أن أنساه. كدتُ أنسى ... إذا لم أفكر في الأمر الآن.

هل تعلمين لماذا ذهبتُ لرؤية ذلك الجرونمانز بعد كل شيء؟ لأنني كنتُ خائفةً من أن أخنق لِينتشيه.

الآن عليكِ أن تُنصتي. يا إلهي لماذا لا تُنصتين؟ من المؤسف أن تدعيني فقط أتحدث – أنا أيضًا أستمع إلى السيدة ديكن طوال اليوم، فلماذا لا يمكنكِ الاستماع إليَّ لليلة قصيرة؟

هل من السيء للغاية الاستماع عندما يقول شخص آخر شيئًا لا يمكنه سرده إلا مرة واحدة في العمر؟ فقط تخيلي أنكِ ملاك يتطلع إلى الجحيم، أيتها المُمرِّضة! يمكنكِ أن تكوني ملاكًا بشعركِ المُمشَّط وأنفكِ المستقيم. لكنكِ ستحتاجين إلى أن يكون لديكِ ضوء حول رأسكِ وفي عينيكِ – الملاك الحقيقي الذي يحوم فوق الجحيم ويُنصت، يحتاج إلى عيون شفافة ناعمة، ربما لتسقط منه دمعة.

كان لدى لِينتشيه عينان لامعتان وشفافتان. كانت تنظر إلى الجميع، وتستمع إلى الجميع، وتُنصت إلى كل شيء. إذا طاردت قطة طائرًا في مكان ما، كانت تسمعه على الفور، وعندما تتحدث إلى جامع قمامة المطبخ العجوز، كانت تداعب حماره.

أنت لا تفهمين أي شيء الآن، أليس كذلك؟ فقط دعيني أتحدث. في الأساس أنا مجنونة قليلًا.

نعم. لم أذهب من باب الفضول، لم يكن ذلك السبب – كان بإمكاني الانتظار. وليس بدافع الحب أيضًا - أو لأنني أردتُ ملابس جميلة، ومالًا يمكنني إنفاقه على نفسي. ذهبتُ لأنني كنتُ مرعوبة للغاية.

كان مُنتصَف الصيف تقريبًا، وكانت الليالي تقصُر، والأيام حارة ورطبة. ثم أصيبت لِينتشيه بالتهاب معوي، ليس سيئًا للغاية، لكنها كانت غالبًا تستيقظ وتبكي، وكان عليَّ إعطاؤها عصيدة الأرز من الزجاجة. اضطررتُ إلى النهوض، ووضع الزجاجة في الماء الدافئ حتى أشعر بمناسبتها على ظهر يدي، وهذا ما علَّمته لي مُمرِّضة الرعاية التي رتبت سرير أبي كل يوم.

لمدة أسبوع كامل قمتُ بتسخين زجاجات عصيدة الأرز ليلة بعد ليلة، وشرِبت لِينتشيه قليلًا أيضًا بين الحين والآخر. لكن كلما وضعتُها في المهد، وظننتُ أنني فعلتُ كل ما بوسعي، كانت تتأوه. وبعد ذلك بوقت قصير تبدأ في البكاء مرة أخرى - لم يبقَ لي سوى القليل من النوم.

بحلول نهاية الأسبوع، كان رأسي فارغًا تمامًا. كان ضوء النهار يؤلمني عندما كنتُ أعمل في الورشة. وصل الألم إلى عينَي فقط، ولم أعُد أشعر بشيء خلفهما، وما كنتُ أغلق عيني حتى أنهار. وكان ذلك بدوره يفزعني بما يكفي لأتمكن من مواصلة العمل، فقط لم أعُد أرى ما كنتُ أخيطه.

عندما بكت لِينتشيه مرة أخرى في الليلة التالية، جلستُ مُنتصبةً في السرير وبكيتُ معها، تمامًا كما كانت تشهق وتزفر في أثناء البكاء، لم يكن عاليًا أبدًا، ولم يستيقظ الآخرون.

النحيب المثير للشفقة - الآن أسمعه مرة أخرى - وصل إليَّ من خلال الظلام وكان عليَّ أن أشارك فيه، وكانت دموعي تنهمر من نفسها.

لكن بعد ذلك توقف - فكرتُ: لقد نامت، وأنصتُّ، جلستُ هناك كالفأر الساكن، وأنا آمل كثيرًا أن أنام أيضًا!

ثم، فجأة، عندما كنتُ أنزل بحذر على الوسادة، أطلقت صرخة، حادة جدًّا - لا أعرف ما حدث بعد ذلك - لا أريد أن أعرف - انتهى - لم يحدث شيء، باستثناء أن لِينتشيه بقيت على قيد الحياة.

لماذا لم ألحظ ذلك، لماذا لم أستطِع ملاحظة ذلك؟ كان الأمر فظيعًا حقًّا، صدمة رهيبة، عندما أغلقتُ أصابعي حول تلك الرقبة الرقيقة، فلماذا لم ألحظ تلك الصدمة؟ ولو فعلتُ لما حدث أي شيء.

هل كان يجب أن يحدث ذلك؟

لم أعُد أسمع صرخة الطفلة المريضة. تركتُ لِينتشيه، لم أشعر بأي أسف ولا ندم، فقط خوف رهيب. زحفتُ إلى أقصى طرف السرير، تمامًا تحت الأغطية، ونمتُ هناك، لم أسمع الطفلة طوال

الليل. لكن أمي قالت في صباح اليوم التالي إنها استيقظت لأن لِينتشيه كانت تصرخ بصوت عالٍ في حين كنتُ أغُط في نومي.

في ذلك الصباح، أحضر جرونمانز مجموعة الشتاء. رأيته في الشارع من النافذة، كان يسير دائمًا بخفة، ولديه أيضًا بشرة فاتحة وصحيَّة، بدا الشارب الأسود مُضحكا مع شفتيه الحمراوين.

ثم نظرتُ إلى نفسي في المرآة الكبيرة. كنتُ شاحبةً ولديَّ ظلال داكنة حول عينيَّ.

جاء مِن دون أن يلاحظني، وفك حقيبته على الفور مع السيدة، وكانا يستمتعان معًا. غريب وجود أشخاص يمكنهم الضحك، وكأنه لم يكن هناك ما يوقفهم. يضحكون على أشياء بسيطة. لم أكن مُضطرَّةً إلى تجربة أي شيء في ذلك اليوم، كنتُ أخيط شال حِداد، إنه أمر عاجل دائمًا. كنتُ أعمل طوال اليوم على ذلك الشال من الكريب الأسود لأرملة شابة، وكان يجب أن يصل إلى الأرض.

قبل أن يغادر جرونمانز، ابتسم لي، وتقدم وصافحني؛ وقال للسيدة: «إن عارضة أزيائك الصغيرة تبدو حزينة!»

ردَّت السيدة ضاحكة: «ليس بسبب زوجها».

ضحك أيضًا، لكنه التفت إليَّ، وأبدى تعبيرًا غامضًا وشريرًا بعض الشيء وقال: «هذا سيأتي قريبًا».

ثم غادر. لكن في الشارع لوَّح في اتجاه النافذة حيث كنتُ

جالسةً.

في العاشرة مساءً، وضعت الأم المهد مع لِينتشيه بجوار سريري. وفي العاشرة والنصف، بعد أن انتظرتُ صوت أول بكاء وعيناي مفتوحتان، نهضتُ لأنني شعرت أن يدَي كانتا ترغبان في سحق شيء ما، وهذا أخافني بشدة.

ارتديتُ ملابسي في الظلام، وركضتُ بسرعة إلى فندق رويال. بدت الحيرة على النادل الذي أخذني إلى باب الغرفة في الطابق العلوي. كان يعرف كل شخص في المدينة - لكنه لم يطرح أسئلة.

كان جرونمانز جالسًا إلى الطاولة، أمامه كأسًا كبيرًا من البيرة، وكان مشغولًا بتسجيل الطلبات في الدفتر الخاص به. لقد بدا أيضًا في حيرة، عقد ما بين حاجبيه؛ لأنه كان قصير النظر قليلًا - ثم قام - الآن أدركتُ أنه لم يكن يعرف تمامًا ماذا عليه أن يفعل. لكن نظرًا لأنه يتحلى بالأخلاق، فقد أخذ يدي وقبلها بلباقة شديدة، ثم أحضر لي كرسيًّا، ودفع سجل الطلبات جانبًا، لكنه بدا وكأنه يريد استكمال العمل الذي عليه بأسرع ما يمكن.

كان كل ما قاله: «حسنًا، أيتها الدُّمية؟».

لم أعرف أي شيء. فقط كنتُ خائفة بشكل رهيب وأشعر بالوحدة. أردتُ فقط أن أرتمي بين ذراعيه، هذا كل شيء.

لكنه لم يجذبني إليه. وقف أمامي ووضع يديه على كتفَي، ثم تركهما ينزلقان على ذراعي وضحك قليلًا مُحرجًا.

سمعتُ قِسًّا مرةً يتحدث في جمعية الفتيات الصغيرات – عن إغراءات العالم وشرور الرجال، وكان مُتحمسًا حِيال ذلك. لكن ما قاله كان هُرَاء. كلامٌ فارغ. الرجال ليسوا أسوأ منا، لا يريدون إلحاق الضرر بأحد، يأخذون فقط ما يمكنهم الحصول عليه. ستكون معجزة لو أنني صادفتُ قِديسًا أثناء هروبي إلى العالم.

لم يكن جرونمانز قِديسًا. عندما انزلقت يداه على ذراعي، احمرَّ وجهه.

لكنه ظلَّ يتصرف بشكل مُهذَّب. سألني إذا كنتُ أرغب في شرب شيء ما، ثم قرع الجرس للنادل، وطلب كأسًا من نبيذ مايو وقال له: «السيدة الشابة تودُّ أن ترى بعض العينات الإضافية».

كنتُ سعيدةً جدًّا بأدائه، فقد لاحظ أن النادل يعرفني.

بينما ننتظر النبيذ، سار جرونمانز عبر الغرفة ويداه في جيبيه. فجأة توقف أمامي وقال: «من المؤسف أنكِ أتيتِ مُتأخِّرة جدًّا، يجب أن أستيقظ مبكرًا غدًا، وأذهب إلى أول قطار».

لقد صُدمتُ لأنني لم أفكر حتى فيما إذا كان قدومي يناسبه أم لا. إذا كان عليه ركوب القطار في السادسة صباحًا، ومُضطر إلى إعداد الطلبات مُسبقًا، فمن المؤكد أن جلوسي معه كان مُزعجًا

بالنسبة له.

رغبتُ في النهوض والذهاب. لم أعرف إلى أين أذهب، لكن لم يكن مقبولًا أن أبقى مع شخص غريب على عُجالة.

عندما أدرك أنني على وشك الذهاب، جاء إليَّ؛ وضع يديه على كتفي مرة أخرى ودفعني للخلف على الكرسي، طلب أن أبقى جالسةً، واسترق النظر إلى الباب وقال: «عليكِ أن تشربي نبيذ مايو أولًا.»

كان وجهه قريبًا من وجهي، نظرتُ مباشرة إلى عينيه – ورأيتُ شيئًا ما، شيئًا لم أعرفه قبلًا – بدا كما لو أن شيئًا ما يخفق في عينيه.

في وقت لاحق، رأيتُ ذلك كثيرًا في الرجال الذين نظروا إليَّ – كنتُ دائمًا أجده قبيحًا للغاية. لكن جميع الرجال الذين اقتربوا مني تقريبًا كان لديهم تلك النظرة.

باستثناء هانيس – لم يكن الأمر معه كذلك، فقد نظر إليَّ مباشرة في عيني – كما لو كانت الشمس تشرق.

فقط في وقت لاحق، بعد ذلك بكثير، عندما رأيتُ تلك النظرة في عينَي هانيس أيضًا، أصبحت العلاقة واضحةً بالنسبة لي.

يا إلهي يا إلهي لماذا تسمح بما يحدث في العالم؟ لماذا لا تساعدنا؟ كيف يفترض بنا أن نفعل إرادتكَ إذا لم تقُل ما تريد؟

لا، لن تُصيبني نوبة. لقد طلبتُ من الله أن يُبدي إرادته مائة مرة في حياتي – فقط ليس بصوت عالٍ. لكن الليلة يجب أن أقول كل شيء بصوت عالٍ – فأنا أُنصتُ إلى نفسي.

أحضر النادل النبيذ على صينية نيكل. شربتُه بالطبع، لكنني لم أستمتع به. بعد كل شيء، كان النبيذ شيئًا مُميَّزًا للغاية، كما اعتقدتُ، ولكن ذلك كان مختلِفا تمامًا عما كنتُ أتوقعه.

أوه نعم، كانت تلك هي المُغامَرة بأكملها. لا شيء كان كما توقعتُ.

عندما شعرتُ بشفتيه على فمي، وجدتُ الأمر غريبًا، لأنه كان شخصًا غريبًا عني، شعرتُ بيديه تجوب جميع أنحاء جسدي، وضايقني منه ذلك قليلًا لأنه أراد أولًا أن يستكشف بالضبط ما يُمسك بين ذراعيه. لاحقًا، عندما جلستُ بجانبه على حافة السرير مُرتديةً ملابسي المُجعَّدة، اعتقدتُ أن الصبيَّ ذا الشعر الأشقر الأبيض كان على الأرجح سيقبِّلني بشكل مختلِف تمامًا.

جلس جرونمانز هناك بشكل طبيعي، حتى وإن كان خاضعًا قليلًا. قام بالربت على ركبتي، وكان مُحرجًا بالفعل وقال: «لو علمتُ أنه لم يقبلكِ أحد من قبل، لكنتُ أرسلتكِ إلى المنزل».

لم أقل شيئًا، لم يكن هناك ما أقوله، وأنا لا أقول أي شيء غير ضروري. علمتُ للتوِّ أنني لم أشعر بالرغبة في المُغادرة – لم

يخطر ببالي حتى أنني اضطررتُ للعودة إلى المنزل – لم أُرِد أن أكون في أي مكان آخر غير المكان الذي كنتُ فيه.

لكن جرونمانز نهض وذهب إلى الطاولة، وهناك قام بنزع ساعة يده، ووضعها بجانب القلم الحبر ودفتر الطلبات. ثم بدأ يستعد للنوم وخطر لي فجأة أنني لا أستطيع البقاء في غرفة فندق استأجرها شخص آخر لنفسه.

كانت تلك اللحظة الرهيبة. عندها انتبهتُ. نظرتُ حولي ورأيتُ كل شيء، كل قطعة أثاث، ما زلتُ أستطيع رؤيتها اليوم. كان أثاث فندق مصقول، لكنه لم يتماشَ بعضه مع بعض؛ لأن الخِزَانة كانت مصنوعة من خشب البلوط، والكراسي كانت مصنوعة من خشب الصنوبر. كان المصباح عبارة عن حلقة نحاسية مطلية ذات أكواب زجاجية وردية اللون، مع وجود فضلات ذباب ملتصقة به. وعند الطاولة كان جرونمانز، الآن في ثوبه الأزرق الفاتح.

هناك، في مُنتصَف الغرفة تحت المصباح، جلستُ وبكيتُ بصوت عالٍ، بكيتُ كطفل صغير، لم أستطِع التوقف. تمامًا كما حدث عندما طار البالون الأحمر الجميل بعيدًا، ذلك البالون الذي اشترته لي أمي يومًا.

أعتقد أن جرونمانز تحرك في الغرفة للتحقق من إغلاق الباب والنوافذ بشكل مُحكم. ثم جاء إليَّ، لقد كان شخصًا طيب القلب حقًّا، وضع ذراعه حولي وظل يقول: «اهدأ، أيُّها الفَرخ، خُذ الأمر

ببساطة».

عندما هدأتُ أخيرًا، سألني: «ألا يجب أن تذهبي إلى المنزل الآن؟»

شعرتُ بفزع، وهززتُ رأسي - نعم، وبعد ذلك دخلتُ بين ذراعيه، كان عليَّ أن أخبر شخصًا ما عن كل الأشياء الفظيعة في المنزل - باستثناء أنني كنتُ أرغب في خنق الطفلة، لم أفكر في ذلك أبدًا مرة أخرى.

جلستُ على ركبته وحكيتُ، وحكيتُ - لكنه تثاءب - كما فعلتِ من قبل، أيتها المُمرِّضة.

دفعني عن ركبتيه، ووقف ومدَّ ذراعيه. ثم أمسك بي من تحت ذقني، ونظر إلى وجهي، في الواقع كان ينظر إليَّ تمامًا - ثم ابتسم في حيرة قليلًا وسأل: «نعم، ماذا سأفعل بكِ الآن؟»

نظرتُ إليه، وتوقعتُ منه أن يفعل شيئًا - فبعد كل شيء، لقد أتيتُ إليه.

ذهب إلى الطاولة وفحص ساعته. ثم أخذ خمسة جيلدر من كومة النقود الصغيرة التي أخرجها من جيب سترته، ووضعها بجوار الساعة وقال، «أتعلمين أيتها الدُّمية، لا يمكننا التحدُّث أكثر الآن، لكننا سنلتقي في المدينة الكبيرة يوم الأحد، ثم سأُخرج معكِ في نُزهة. تأكدي من أن تكوني أمام محطة القطار الرئيسية في

الساعة الثانية عشرة. هذا من أجل نفقات الانتقال الخاصة بكِ.» وأعطاني الخمسة جيلدر.

حملتُ النقود في يدي، وكانت دافئة، ولم يكن لديَّ مِحْفظة لأضعها فيها. نظر جرونمانز إليَّ لبعض الوقت، ثم قام بهندمة ثوبي وقال بغمزة: «من الأفضل أن تُعدِّلي شعرك، وإلا سيلاحظون بالأسفل ما كنتُ تفعلين».

مشَّطتُ شعري بمشطه، أدركتُ مُجددًا أنه لا ينبغي لأحد أن يلاحظ أي شيء، كما أزلتُ الوبر من ثوبي بفرشاة ملابسه. ربما لاحظ أنني كنتُ أرتدي فستانًا صوفيًا باهتًا في مُنتصَف الصيف – فقد أعاد رسم ملامح البهجة على وجهه مرة أخرى، كما يفعل مع العملاء، عندما يحاول تهدئتهم وفي نفس الوقت يُظهر كل ما هو مُهم للتاجر.

أخذ صندوقًا أبيض مُسطحًا من حقيبة سفره – كنتُ أعرف ما بداخله – كانت السيدة تسميه فستان متوسط، وطلبت منه بعض تلك الصناديق. ثم قال: «تجَمَّلي ليوم الأحد».

كان في الصندوق حرير أخضر رقيق مع تطريز بخيوط الحرير الأبيض. فقط ما يكفي من القماش لفستان، وكانت الطيات في مكانها بالفعل، كل ما كان عليَّ فعله هو حياكته معًا.

وهكذا كنتُ هناك، خمسة جيلدر في يد وفستان صيفي حريري

في اليد الأخرى ... لكن بخلاف ذلك شعرتُ بالفراغ التام.

كما أنني لا أتذكر ما رأيتُه وسمعتُه قبل عودتي إلى السرير بجوار مهد لِينتشيه. لقد تجوَّلتُ في المنزل عدة مرات، على ما أعتقد، تذكرتُ بشكل غامض دوي صدى ساعة الحائط بالداخل، وكنتُ أقبض يدي بإحكام حول العملات المعدنية الصلبة مع كل دوي. على أي حال، في الصباح استيقظتُ في سريري. لم يلاحظ أحد أنني ذهبتُ – ربما نامت لِينتشيه طوال الليل لأول مرة. ولم يبُح النادل بأي شيء أيضًا.

مِن دون ذلك الفستان والمال، لم يكن هناك شيء سيتغير – ما كنتُ لأذهب إلى جرونمانز مرة أخرى من أجل المواساة. لكن الآن الصندوق الكرتوني والمال كانا تحت مرتبتي، وقد وعدته أن أكون أمام محطة القطار الرئيسية ظهر يوم الأحد.

لم يخطر ببالي أبدًا للحظة أنه بإمكاني إبقاء جرونمانز مُنتظرًا في محطة القطار إذا لم أرغب في الذهاب – لقد جئتُ من عائلة محترمة تلتزم بما تعِد به. في بعض الأحيان، عندما تأخذ الأم مبلغًا مُقدمًا على أجرها من مصنع التعليب الذي تعبئ فيه السرطانات، كانت تعمل حتى الساعة الثانية ليلًا لتعويض المبالغ المُتأخِّرة عليها. وقد قبلتُ الفستان والجيلدر، لذلك كان من الطبيعي أن أستخدمهما من أجل لقائنا.

لم يكن من الصعب الذهاب يوم الأحد – لم يكن هناك شيء

صعب، اعتقدت لاحقًا أحيانًا أن حياتي ربما تمَّ تحديدها مُسبقًا بوقت طويل - لم يكن هناك شيء يُعيق طريقي عندما أردتُ شيئًا... وكان ذلك شعورًا غريبًا...

بعد ذلك! لقد قمتُ بخياطة الفستان في الليل، وكان هناك مصباح شارع أمام منزلنا، وكان هناك ما يكفي من الضوء الآتي عبر المنور. وكان يوم الأحد هو أول يوم في أسبوع الذكرى السنوية، ولا أتذكر ذكرى ماذا أو مَنْ، لكن ما زلتُ أتذكر أن قاعة المدينة والبرج كانا مضاءين كل مساء لمدة أسبوع كامل، وفي مساء الأربعاء كان هناك جولة مع الأضواء بالجنادل. عندما سألت والدتي صباح يوم الأحد إذا كان بإمكاني أخذ السندويشات معي والعودة إلى المنزل في ساعة مُتأخِّرة من المساء، لم تعترض.

خرجتُ من المنزل مُرتدية مِعطفًا فوق ثوبي الخفيف، وأرغفة الخبز الملفوفة تحت ذراعي. وهكذا وصلت إلى المدينة، وعندما رآني جرونمانز ضحك على لفة ورق الصحف، وضحك أكثر عندما قلتُ إنها شطائري. في طريقه إلى المدينة ألقى باللفافة في قناة المياه، وكان الأمر غريبًا جدًّا بالنسبة لي، فقد كان لدي خبز بالزبدة.

وقعتُ في حبه قليلًا في ذلك اليوم. تجوَّل في الشوارع بثقة كبيرة لدرجة أنه يعرف بالضبط الترام الذي يجب أن نركبه، وفي المقهى قرأ القائمة قبل أن يطلب. لقد أكل طعامه بسكين

وشوكة، ووجدتُ ذلك أنيقًا للغاية، وأدركتُ تدريجيًّا كم كان من اللطيف أن يأخذ فتاة من بلدة ريفية في مثل تلك النزهة. في فترة ما بعد الظهر، كنا في نَزَلٍ، بدأت السماء تمطر، لذلك جلس الجميع بالداخل حيث كان هناك تدخين. وقف رجل على المنصة وغنى، وكان وجهه شاحبًا ونظارته مُفردة، وكانت أغانيه مبتذلة، ضحك الناس في القاعة الكبرى بصوت عالٍ - لقد وجدتُ ذلك حتى في حينها قبيحًا جدًّا. اعتقدتُ أن سكان البلدة سيصابون بالمرض إذا جلسوا باستمرار في الدخان والضوضاء، لكن عندما نظرتُ إلى وجه جرونمانز المُبتهج، أدركتُ أنه من الجيد العيش هناك أيضًا.

عند إحدى الأغاني، ردَّد الجميع نفس المَقطع المُتكرر، بما في ذلك جرونمانز، وزأرت القاعة بأكملها:

لا تقلق

لا تقلق

اليوم أو غدًا ستكون ميتًا

وينتهي كل شيء!

بعد الغناء، بدا الناس مُنتعشين، وضحكوا لفترة، وطلب جرونمانز البيرة لكلينا. لكنني لم أغني، وكان الكوب كبيرًا جدًّا بالنسبة لي.

ولكن مشاهدة جرونمانز وهو يشرب البيرة كانت مُمتعة. أمسك الكوب بالقرب من وجهه، وأخذت الجِعَة تقل عند الحافة، وعندما نظر إلى الأعلى أخيرًا كان لديه رغوة بيرة على شاربه – أخذ نفسًا عميقًا وقال، «مرحبًا، كنتُ عطشان!»

لم نتحدث كثيرًا في ذلك اليوم، رغم أنه وعدني قائلًا: باستطاعتي إخباره كل شيء آخر يوم الأحد. لكنه نسي ذلك على ما يبدو. ذهبنا أيضًا لنأكل في مطعم، ثم قادني إلى غرفة حيث يمكنه تقبيلي. هذه المرة كنتُ مُستعِدة لتبادل القُبل معه – لقد ضحك عليَّ قليلًا، وقال: «اسمعي، أنا لستُ جدك – يجب أن أعلمك كيفية التقبيل بشكل صحيح أولًا.»

غريب – عَلِق معي ذلك دائمًا. التقبيل كما تعلمتُ منه.

عندما أوصلني إلى القطار، أمسكني بشدة، أعتقد أنه قضى وقتًا مُمتعًا في ذلك اليوم. كنا نقف ذراعًا في ذراع أمام محطة القطار، وأراد أن يعرف متى سأعود مرةً أخرى.

نعم، عندها فقط أدركتُ أن حياتي ستتغير تمامًا، أدركتُ فجأة أنني لن أتمكن من البقاء مع أمي وسيدتي إذا استمرت علاقتي بجرونمانز.

إنه أمر غريب، فهناك لحظات يكون لديك فيها حق الاختيار. في ذلك الوقت، أمام محطة القطار، أدركتُ إدراكًا شديدًا أن لدي

خيارًا: مدينتنا الصغيرة وقليلًا من المشقة، ولكن أيضًا السلام والهدوء – أو جرونمانز والمجهول.

لا أحد يتحمل مسؤولية ما حدث لي في حياتي، أنا فقط. لم تكن الظروف أو الأشخاص الآخرين، فأنا لم أعُد أتوهم أي شيء. الآن بما إني أخبركِ بكل شيء، عُدتُ أعرف بالضبط مرة أخرى – هناك على الرصيف كان لدي خيار.

لقد نسيتُ ذلك طوال الوقت وحسب.

هل هذا شخير السيدة تايسولتس؟ بمجرد أن تنام وتشخر، لا يمكنكِ إيقاظها بعد ذلك، ولهذا السبب يضعون إسفنجة باردة على وجهها في الصباح.

خلال النهار تُرهق نفسها بشدة. لم تشاهدي أبدًا السيدة تايسولتس خلال النهار، أيتها المُمرِّضة، من السيء حقًا رؤيتها. تجلس مُنتصبةً في السرير، وتؤرجح الجزء العلوي من جسمها للخلف وللأمام، لليسار ولليمين ومن اليمين إلى اليسار مرة أخرى، دائمًا بنفس الإيقاع، وتغني لنفسها: «أوه، كم كنتُ غبيةً، كم كنتُ غبيةً.» ويبدو صوتها نعسانًا جدًّا، وهي لا تُدرك أي شيء تقريبًا، بؤبؤ عينيها عبارة عن نقاط سوداء صلبة. يستمر على هذا النحو لساعات، هذا التأرجح ذهابًا وإيابًا والغناء.

عندما كنتُ في البداية هنا لفترة قصيرة، أردتُ منها أن تتوقف

لأنني اعتقدت أنها تستطيع التوقف. ذهبتُ إليها وكنتُ أفكر أني إذا سألت عن سبب كونها غبية جدًّا، فربما تنظر إليَّ.

لكنها لم تُقدِّم أي إجابة، واستمرت في التأرجح ذهابًا وإيابًا، لذلك أمسكتُ بها بشدة من ذراعيها – كان من المفترض أن ترد عليَّ! – هذا ليس شيئًا يمكنكِ الاستماع إليه طوال اليوم إذا كنتِ لا تعرفين ما تعنيه! حملتُها حتى تجلس بلا حِراك، وسألتُ مرة أخرى: «ما الشيء الغبي الذي فعلتِه؟» ثم قالت بصوت طبيعي تمامًا: «إنني لم أصبح مُعلِّمة.»

هل تفهمين، أيتها المُمرِّضة؟ تبلغ السيدة تايسولتس من العمر خمسة وخمسين عامًا، ولديها ابنة مُتزوِّجة، امرأة أنيقة جميلة المظهر تأتي أحيانًا لزيارتها، تكون سيارتها بالخارج في الحديقة. يجب أن يكون قد مرَّ أربعون عامًا على الأقل منذ أن كان على السيدة تايسولتس أن تختار. هل يمكنكِ أن تفهمي أنها ما زالت تأسف لأنها لم تصبح مُعلِّمة؟

أوه – ربما نعم. ربما أدركت الآن فقط أنها اتخذت القرار الخاطئ!

لا تنظري إليَّ هكذا! لا! هذا غير صحيح! خياري لم يكن خطأ. لستُ نادمة على ذلك! لو بقيتُ في المنزل، مثل أخواتي، اللائي هن برجوازيات مُحترمات اليوم، لما قابلتُ هانيس أبدًا – لقد أمضيتُ عشر سنوات مع هانيس.

لماذا كذبتِ، أيتها المُمرِّضة؟ لماذا أخبرتِ كبيرة المُمرِّضَات في القاعة أننا جميعًا نِيام؟ هل أنتِ فضولية؟

ما زلتُ أتذكر أين توقفتُ.

ذهبنا إلى المنصة. لقد أمسك بي جرونمانز بقوة، وكان القطار جاهزًا، وأردتُ الصعود. ثم قال: «هيا قولي لي متى ستعودين؟».

كيف يمكنني أن أعرف؟ لم أستطِع ببساطة البقاء بعيدًا عن المنزل ليوم كامل مرة أخرى. فجأة خطرت لي فكرة لم يسبق لي أن فكرتُ بها من قبل، ثم عرفتُ: هذا بالضبط ما أريده. رأيتُ جرونمانز وباب العربة المفتوح وأجبته، «بمجرد أن يكون لديكَ عمل لي في المدينة.»

لا يزال بإمكاني رؤيته ينظر إليَّ ذلك اليوم. كما لو أنه يكتب فاتورة – هكذا بدا عندما قدمت له السيدة عرضًا لفستان نموذجي. ثم ابتسم بود وتهذيب كما فعل في غرفة القياس عندما وضع الفستان النموذجي مع المُشتريات الأخرى. أومأ إليَّ سعيدًا وقال: «سأفعل».

لقد حدد موعدًا معي لأنتظره مساء يوم ركوب الجندول، وفي ذلك المساء كان لديه بالفعل وظيفة لي، كما قال، يمكن أن أكون بائعة في متجر خاص بصديقه للملابس الرجالية.

نعم، هكذا بدأت الحياة بالنسبة لي، بشكل طبيعي تمامًا، كما

حدث لملايين وملايين الفتيات. لا يوجد شيء مُذهِل على الإطلاق في ذلك، لم أفكر قبلها مُطلقًا فيما هو ذو مغزى في الحياة. الآن فقط بما أنني أحكي هذا، أُدرك أن كل شيء مررتُ به حدث لأنني اتخذتُ قراري.

لم يكن من الصعب أن أخبر والدتي أنني أريد أن أقبل وظيفة. لم يعُد من الصعب على الإطلاق أن أقول شيئًا لأمي – لقد توقعت دائمًا حدوث شيء مؤلم على أي حال، لم يمكن معرفة ما إذا كانت شعرت بالألم بشدة.

لكن أبي رفض. رأى أن هناك ما هو أكثر من مجرد الوظيفة، وكانت عيناه الزرقاوان الفاتحتان منتبهتين.

عندما أخبرتُ أمي في المساء بعد ركوب الجندول أنه يمكنني البدء كبائعة في المدينة، ضغط أبي على شفتيه، وانتظر أولًا ليرى ما ستقوله أمي.

كانت جالسة أمامي إلى الطاولة تحت مصباح الكيروسين، كانت الشعلة تتضاءل لأنني عُدت إلى المنزل مُتأخِّرة. لكن الأم لم تقُل أي شيء عن ذلك. لقد وضعت مرفقيها على الطاولة ووضعت ذقنها بين يديها – في ذلك الوقت كانت تجلس دائمًا هكذا كما لو كانت بحاجة إلى الدعم.

بالطبع لم أخبرها بكل شيء. قلتُ فقط إن الشريك التجاري

للسيدة كان يعرف وظيفة جيدة لي - يمكنني كسب أربعين جيلدرًا في الشهر، بما في ذلك الطعام - وأنه يمكنني بالتأكيد إرسال عشرين منها إلى البيت، أي نفس القدر الذي كسبته مع السيدة.

شرحتُ كل شيء، وتحدثتُ أكثر بكثير من المُعتَاد عندما أتحدثُ مع أمي. ولاحظتُ أنها فهمتني، وأرادت السماح لي بالذهاب إلى المدينة حتى أصبح سيدة. عندما سألتني عما إذا كنتُ قد تحدثتُ بالفعل إلى السيدة، علمتُ أنها لن تمنعني.

لكن فجأة مدَّ أبي يده نحوي - كانت الغرفة مُظلِمة، وظل الفتيل يحترق - وقال: «تعالِ إلى هنا».

وقفت بجانب سريره وأنا أعلم أنني سأتشاجر معه. نظر إليَّ ونظرتُ إليه - لم نُشح بأعيننا بعضنا عن بعض. وأخيرًا قال: «لن تذهبي».

ثم شتمني - لقد كان أمرًا مُروِّعًا، لقد وصفني بالوقحة، والكلبة، والعاهرة، وكل ذلك بنبرته المُعتَادة. تمامًا كما تتلو الآنسة سميت ذخيرتها من الكلمات القذرة هنا - الكلمات التي يجرؤ أولاد الشوارع فقط على كتابتها على الجدران. لا تملك الآنسة سميت بالطبع شيئًا حِيال ذلك، فالكلمات تخرج منها عندما ترى مُمرضًا أو طبيبًا يسير في الحديقة. لكن الأب كان يعرف جيدًا ما يقوله، وكان يتذوق كل كلمة. قال إنه يفهمني - لمس بلوزتي، التي كان

ينقصها زر، وبإصبعه نفض دبوس شعر مفكوك من جديلتي، وأسقطه على الأرض.

جلست الأم إلى الطاولة وعيناها مغمضتان. لكنني وقفتُ أمام أبي، نظرتُ في عينيه مباشرة. وقلتُ، «أنتَ ترى ذلك صحيحًا. الآن سأذهب فعلًا. «

بالطبع هدَّد بالشرطة لأنني كنتُ قاصرةً. لكنني هززتُ كتفي، فقد كنتُ أعلم أنه لن يفعل شيئًا كهذا، لأن ذلك من شأنه أن يضر بسمعته وسمعة عائلتنا الكريمة. قلتُ إنني سأهرب، ولكن ذلك سيجعلهم يُعيدونني.

ثم بكى وأسِف على نفسه لأنه مُقعدٌ في الفراش، لكنني لم أشفق عليه، لم يكن يبكي بسببي، بل لأنه لم يستطِع إنفاذ إرادته. لكنه أصبح فجأة هادئًا للغاية، وقال إنه سيتحمل ابتلاءاته مثل أيوب. ثم شتمني بكلمات الكتاب المُقدَّس الرسمية. كما توقع أنه لن تكون هناك بركات في حياتي. رفع يده كَنبيٍّ - وقال: «أنتِ الآن ملعونة إلى الأبد. أَمَّا طَرِيقُ الأَشْرَارِ فَتَهْلِكُ!»

نعم. أرى فيما تُفكرين. أن لعنة أبي تحققت. كلام فارغ. أنتِ تؤمنين بالخرافات، أيتها المُمرِّضة.

في تلك الأثناء، أصبح الظلام شديدًا في الغرفة، والفتيل الذي احترق نتن وحسب. عندها بدأت الأم تتحدث.

لم تتكلم طويلًا. ولم تتمرد على الأب أيضًا. مع ذلك، لن أنسى كلماتها أبدًا.

كل ما قالته هو أنها قامت بواجبها مدى الحياة. وحافظت على الوصايا. ولم يكن هناك بركة في حياتها أيضًا. وصلَّت من أجل القوة كل مساء، لأنها يجب ألا تموت بعد، بسبب الأطفال.

ثم نهضت وتحسست مكاني في الظلام. مسحت بكلتا يديها على رأسي وعلى طول جديلتي المفكوكة، ثم على ذراعيَّ ووركي، وأخيرًا قالت، «انطلقي إلى المدينة، اذهبي في طريقك الخاص. طرق الرَّب غامضة».

في تلك اللحظة اعتقدتُ أنه يمكنني البقاء معها في المنزل، شعرتُ بالرغبة في البكاء على صدرها.

لكنها لم تكن تعرف ذلك، استدارت وذهبت إلى المطبخ الصغير للحصول على الحليب الدافئ لأبي؛ يحصل الأب على لبنه الدافئ كل مساء ومعه قطعة بسكويت.

عندما سمعته يشرب الحليب، كنتُ مُتأكِّدة من أنني سأندم في صباح اليوم التالي إذا وعدتُ الآن بالبقاء.

بعد أسبوعين غادرت المنزل بحقيبة صغيرة من الخيزران تحتوي على كل ما أملك. قبل أن أغلق الباب الأمامي، أنزلتُ الحقيبة للحظة؛ لأنني أردتُ أن أنظر إلى أمي مرة أخرى، التي

وقفت عند باب الغرفة مع لِينتشيه بين ذراعيها. عندها لاحظتُ لأول مرة أنها كانت طفلة جميلة. وفوجئتُ بالدموع في عيني في نهاية شارعنا – بسبب لِينتشيه.

من الغريب جدًّا العودة إلى المنزل بمفردك إلى غرفة فارغة عندما تكون مُعتَادا على الكثير من الناس وضجيج الأطفال من حولك. كانت الأمسيات الأولى في الغرفة الصغيرة المُستأجرة صعبة للغاية بالنسبة لي، كنتُ أجلس على كرسي من الخيزران إلى طاولة غريبة، وأرى طوال الوقت أنه لا يوجد مفرش زيتي أبيض عليها، بل غطاء أحمر. حتى في الأمسيات التي حضر فيها جرونمانز، ظلَّ كل شيء غريبًا بالنسبة لي، بل وأصبح أكثر غرابة تقريبًا.

الشيء الوحيد الذي بدا لي مألوفًا هو العمل في المتجر. لقد استمتعتُ برؤية القفازات والأربطة الملفوفة بدقة في أدراج الماهوجني الجميلة، وعندما كنتُ أسحب المِقْبَض النحاسي لدُرج فيه قمصان مُلوَّنة مُكدَّسة، كنتُ أستمتع بالترتيب والوفرة الرائعة.

أحببتُ طاولة المتجر اللامعة والكراسي ذات المساند الحمراء الفخمة، حلمتُ بالمرايا، وواجهات العرض، وشبكة الخزينة النحاسية. لطالما كانت سجادة سميكة تحت قدمي، ولأسابيع شعرتُ بكل خلايا جسدي أنني أرتدي فستانًا مصنوعًا من الحرير

الأسود يلائمني كثيرًا.

ربما بدا عليَّ أني راضية؛ لم يجدني أحد في العمل صعبة المِراس على الإطلاق. كنا أربعة موظفين، عملنا أنا وشابان وفتاة أخرى، السيد والسيدة كانا يعملان أيضًا معنا. كان المحل صغيرًا ورائعًا، وكان في أفضل شارع للتسوق، وكان أسلوب التعامل هادئًا ومُهذبًا، بما في ذلك أسلوب العملاء. لم تُسمع أبدًا ضوضاء عالية؛ لأن جميع المُفصَّلات كانت مُزيَّتة بانتظام، وكان هناك سجاد سميك في كل مكان. واهتممنا جميعًا بمظهرنا الجيد. عندما كنتُ هناك لبضعة أسابيع، أدركتُ أنني كنتُ محظوظة جدًّا للحصول على الوظيفة، وكانت – البائعة التي وظفَّها السيد في البداية قد ماتت فجأة بسبب تسمم الدم.

نعم. هل تعتقدين أن الفقراء يبدون حزينين عندما تُتاح لهم وظيفة بسبب وفاة شخص لا يعرفونه؟

أدركتُ في أولِ يومِ دفعٍ أن هناك سببًا آخر لتوظيفي.

دفع جرونمانز إيجار الغرفة لي حتى ذلك الوقت، كان ذلك بناء على طلبي لأنني أستطيع سداده بمجرد حصولي على أول أربعين جيلدر. الغرفة تُكلِّف اثنين ونصف جيلدر في الأسبوع، وأردتُ أن أرسل عشرين إلى أمي. عندما تم استدعائي إلى مكتب السيد يوم السبت، أعطاني ورقة نقدية من فئة عشرة جيلدر – ونظر إليَّ مُترقبًا.

توقفتُ والورقة في يدي، وانتظرتُ الثلاثة الأخرى. ثم لاحظتُ أن السيد لم يفهمني، سألني: «حسنًا، هل كل شيء على ما يرام؟»

هززتُ رأسي وضحكتُ، مُعتقدة أنه سوف يضايقني قليلًا. لكن تعبير وجهه كان صارمًا، لقد كان رئيسًا حقيقيًّا، ووقف كما لو كان يريد أن يشير إليَّ بالمُغادرة.

لكنني شعرتُ بصدمة شديدة لدرجة أنني لم أستطِع الذهاب – كنتُ أتطلع لمدة شهر إلى تلقي المال الجيد، وأردتُ إرسال جزء منه إلى المنزل، وسداد إيجار جرونمانز ونصفه مقابل الفستان الحريري الأسود؛ كنتُ واثقةً من المال كثقتي في نفسي، ولم أصدق أنني لن أحصل عليه.

لهذا السبب أوقفتُ السيد عندما أراد مغادرة المكتب – تخليتُ عن أي لياقة – وسألته لماذا كان غريبًا جدًّا معي.

نعم، ثم اتضح أنه سأل جرونمانز عما إذا كان يعرف بائعة من الدرجة الأولى، وأن جرونمانز أوصاه بي، وقال إنني شخصية بسيطة أرغب في التطوع لتعلُّم المهنة، وقد ضمن أن السيد سيكون سعيدًا بالتعامل معي. وكان السيد راضٍ أيضًا، فقد كان لديَّ موهبة البيع والسلوك الجيد، كما قال إنني في غضون بضع سنوات سيصبح بإمكاني كسب أربعين جيلدر، لقد وعد جرونمانز بذلك أيضًا. وفي غضون ذلك، سأحصل على عشرة جيلدر في الشهر، لأنه ليس الشخص الذي يسمح للناس بالعمل مجانًا.

لقد فهمتُ الآن سبب قيام جرونمانز بإملاء خطاب طلب الوظيفة عليَّ بدقة، فقد قال: «من الأفضل ألا تكتبي كثيرًا عن الأجر، فهذا لا يسير على ما يرام، من الأفضل أن تكتبي أنكِ توافقين على الشروط القائمة.»

لذلك وقفتُ هناك وعشرة جيلدر في يدي، واضطررتُ أيضًا إلى الاعتذار، والقول إنني بالتأكيد كنتُ قد أسأتُ فهم السيد جرونمانز، وأشكر مديري بحرارة؛ لأنه لم يعتبرني مُتطوعةً، كنت أعرف بالضبط ماذا أقول. كان عليَّ أيضًا أن أقول باستخفاف إنه لا يهم مقدار ما ربحته إذا كانت الآفاق جيدة فقط، فقد لاحظتُ أن السيد ليس لديه أدنى فكرة عن سبب توصية جرونمانز بي؛ اعتقد أن ابنة من عائلة جيدة ستتعلم التجارة معه – على الرغم من أنني أدركتُ أيضًا، بالطبع، أنه جربني لأنني لم أُكلِّفه شيئًا.

نعم. لقد أخذني كبائعة لأنني كنتُ رخيصةً. عشرة جيلدر في الشهر، وبشكل أساسي بدافع النيات الحسنة.

علمتُ الآن أنني رخيصة للغاية. ومن المؤكد أن جرونمانز اعتقد أيضًا أنني كنتُ رخيصةً. نعم. لديه الآن عشيقة مقابل ثلاثين جيلدر في الشهر.

فجأة لم أعُد فتاة. كما لم أصبح امرأة في سرير فندق جرونمانز، هذا هُرَاء، كنتُ طفلة غبية حتى بعد ذلك. لكن عندما وقفتُ هناك في المكتب أمام السيد، بوجه مُهذَّب والورقة المكرمشة في يدي

المُتعرِّقة، أصبحتُ حقًّا إنسانة - وفجأة عرفتُ ما أريده - لم أرغب في أن أكون رخيصةً.

عندما زارني جرونمانز مساء ذلك السبت، واستمع إلى قصتي بتسلية، وأراد أن يعطيني بوجهه المُبتهج عشرين جيلدر لأمي، قبلتُ المال، لكنني قلتُ على الفور إنني سأحتاج إلى المزيد لأنني لن أرتدي دائمًا ذلك اللباس الذي أعطاني إيَّاه. قبلتُ كل ما كنتُ على استعداد لتقديمه، أحضر لي قسائم من القماش من مجموعة عيناته، وقطعة من الفِرَاء وشال للمساء، وفي ذات مرة مِعْطَف نموذجي، لم أكن مُمتنَّة أبدًا، لكنني قبلتُ كل شيء. ليس لأنني أردتُ أن أجعل نفسي جميلة؛ فقد كنتُ أعرف وقتها بالفعل أنني كنتُ جميلة. لكن لأنني لم أُرِد أن أكون رخيصةً.

ربما لم يناسب ذلك جرونمانز، لكنه أعطاني ما أردتُ. لقد كان مُغرمًا بي حقًّا – كان مُغرمًا كما يمكن لرجل أعمال أن يكون. لقد كان يعرف الكثير من النساء، أخبرني عنهنَّ في البداية، لكن لاحقًا لم يرغب في التفكير في النساء الأخريات عندما كان معي - على الأقل هذا ما قاله، وأعتقد أنه كان يعنيه. لقد رأى جيدًا أنني كنتُ جميلة - عندما يأخذني إلى المقهى أيام الأحد، أو عندما نتنزه على طول كورنيش الشاطئ، كان يمشي بفخر بجانبي مثل الديك. في النهاية، أعتقد أنه كان خائفًا مني بعض الشيء - لأنني أصبحتُ جميلة جدًّا بالنسبة له وباهظة الثمن. لكنه كان في حالة حب طوال الوقت.

لم أكن في حالة حب – الآن أعلم أنني لم أكن أحبه أبدًا، لكني وقتها اعتقدتُ ذلك لأنني كنتُ أستمتع به عندما يُقبِّلني. كنتُ أُحب وجوده معي – فقد كان حَسِن الأخلاق وشابًّا ومُصحًّا. لم أطلب المزيد، ولم أعرف أفضل من ذلك. خلاف ذلك هناك القليل ليُقال عنه.

بقي الأمر على هذا النحو لمدة عامين، كان يزورني عندما لم يكن مسافرًا، ويصحبني يوم الأحد للخروج. في البداية كان قلقًا، قدَّم لي جميع أنواع النصائح الجيدة – ولكن عندما أصبح مُغرمًا أكثر، أصبح يطلب مني النصح، أخبرني بكل الأشياء المُتعلِّقة بعمله وعائلته. يا لهذا المرح!. في النهاية، عندما بدأت أملّه ولاحظ ذلك، أراد نصيحتي حول ما إذا كان يجب أن يُتم خطوبته مع ابنة صانع ملابس داخلية ألماني. ضحكتُ عليه، ولم يعُد لي مرة أخرى.

في ذلك الوقت استطعتُ أن أضحك عليه، استطعتُ أن أضحك على الرجال بالفعل، لقد تعلمتُ ذلك في المتجر.

أوه، لا تضحكي بصوت عالٍ، بالطبع لا، في متجر محترم لأزياء الرجال لا تضحك البائعات بصوت عالٍ، سيكون ذلك مُبتذلًا. عليكِ أن تتخيل الأمر على هذا النحو: يأتي السادة طوال اليوم، وينظرون إلى أسفل المنضدة؛ ليروا أي سيدة شابة يجب أن تخدمهم، ثم يتجهون نحو الفتاة ذات الوجه الأجمل، ويقولون

ما يحتاجون إليه. ويتحدثون بأدب بعضهم مع بعض، البائعات والسادة، ولكن بنبرة صوت خفية تكشف أنهم يعرفون بالضبط ما يدور حولهم، ولماذا يريد الرجل المَعْنِيُّ أن يبدو جيدًا. عندما يضع رجل مثل هذا ذراعه على القطيفة الحمراء الذي يتم تجريب القفازات عليها، وينظر إلى السيدة الشابة، التي تقوم بضبط الجلد الناعم حول أصابعه بلمسات بطيئة، فإنه يستمتع فجأة بذلك، وتلاحظ هي ذلك في نظرته – إنه يريد شيئًا. ويريد دائمًا الشيء نفسه.

نعم، الكل يريد الشيء نفسه دائمًا. أضع قفازات على أيدي الرجال كل يوم لمدة عامين، وكان تسعة من كل عشرة رجال ينظرون إليَّ بهذه الطريقة – لا شيء جديد بالنسبة لي منذ اليوم الذي رأيتُ فيه هذا الوميض في عينَي جرونمانز – عندما أدركتُ من نظرته أنني نضجتُ. كان هذا الشيء يُومض في أعين العديد من الرجال عندما ينظرون إليَّ – وكنتُ أضطر إلى الضحك – بالطريقة التي نضحك بها عندما يسقط شخص آخر بشكل مُحرِج. وبالطبع ضحكتُ كثيرًا لأنني كنتُ جميلة. لو كنتُ قبيحةً، لامتننتُ لرجلٍ ينظر إليَّ بهذه الطريقة.

لكني لم أكن مُضطرَّة إلى أن أكون مُمتنَّة، فقد كنتُ أعرف قيمتي. سقط شعري الأزرق المائل إلى الأسود في موجة كبيرة فوق أذني، وتجمَّع في كعكة ثقيلة في مُؤخِّرة العنق. غالبًا ما بدت عيناي ذواتا اللون البُنيِّ الفاتح بألوان مختلِفة في ظلِّ الرموش.

الآن لم يعُد من الممكن رؤيتها، لقد تأثرتُ وبكيتُ كثيرًا، لكن في ذلك الوقت كان بإمكاني تحقيق أي شيء أريده بعيني. وأردتُ أن أترك الرجال يتعثَّرون في أنفسهم.

إنها لعبة مُمتِعة – ولم أملّها بسرعة – استمتعنا كثيرًا بها، أنا والآنسة الأخرى. ولاحظ الموظفون الذكور ذلك، لكنهم لم يقولوا شيئًا، ولا حتى السيد، كنتُ أُعدُّ بائعة جيدة – لكنني لم أكن كذلك – كنتُ مجرد امرأة تعرف قيمتها.

علاوة على ذلك، لم يكن هناك ما أشكو منه بشأن السيد، فبعد عامين حصلت على أجر خمسين جيلدر، بالإضافة إلى استراحة قهوة وغداء.

أيتها المُمرِّضة – هل ترين كيف حلَّ الظلام؟ يوجد الآن ثقب أسود فقط خلف النوافذ، وقد سقطت النجوم فيه. ولا يوجد أحد لالتقاطها – كل الناس نائمون – يا لها من خسارة لتلك النجوم الجميلة – عليها الآن أن تتعفن في حفرة مُظلِمة. إذا لم تكن النوافذ مسدودة بالقضبان، كنتُ سأقف على الحافة وأنظر إلى الحفرة – فإذا كان بإمكاني القفز إليها، فسوف ينتهي كل شيء في وقت قصير.

الآن لماذا تنتظرين أن أُكمل؟

سيكون الأمر كثيرًا بالنسبة لكِ، والرَّب لا يُنصت. لو أنصت

مرة واحدة فقط، أيتها المُمرِّضة. في الوقت الحالي، لا أحد في العالم يفعل شيئًا قبيحًا، الجميع نِيام، وأنا أحكي شيئًا يجب عليه معرفته.

لكن عليَّ أيضًا أن أعرف كل هذا بنفسي – لا بد لي من اكتشاف شيء ما، إنها فرصتي الأخيرة – ولهذا السبب لم يعُد بإمكاني أن أبقى هادئةً – لم أعُد أجرؤ على الذهاب إلى الفراش. لأسابيع عديدة استلقيتُ على السرير أُفكر، دائمًا الفِكَر الثقيلة نفسها التي عاودتني دائمًا؛ لأنها لم يتم التفكير فيها جيدًا.

الآن تراودني تلك الفِكَر باستمرار – ولا يوجد شيء يمكنكم فعله حِيال ذلك، ولا يمكن لأي شخص آخر مُساعدتي بعد الآن. يجب أن أفكر وأقول كل الأشياء الصعبة بنفسي، كلها، الشيء تلو الآخر، حتى يقف كل منها في مكانه في رأسي.

لكنكِ لستِ بحاجة إلى الاستماع بعد الآن، أغمضي عينيكِ ببساطة، سأبقى مستيقظةً وحدي والرَّب أيضًا – ربما.

يجب أن أستمر في الحديث. إذا لم أتحدث الآن، سأصاب بالجنون تمامًا.

أين توقفتُ؟ خمسون جيلدر؟

نعم. خمسون جيلدر، يمكنكِ العيش عليها، مما جعلني باهظة الثمن بالنسبة لـ جرونمانز – لم أعُد للبيع. لقد أدرك منذ فترة

طويلة أنني عرفتُ قيمتي، وهذا ما جعله مُغرمًا أكثر. لكنني فقدتُ حبي الصغير له – لقد كان خاضعًا جدًّا لي، وأصبح عاديًّا لدرجة تدعو إلى الشفقة. أدركتُ أنه كان على هذا الحال طوال الوقت، لذلك تركتُه يسقط، تركتُه، بنفس البرود الذي ألقى به لفافة طعامي في القناة.

بعد ذلك رأيتُه مرة واحدة فقط، وكان ذلك عندما كِدتُ أدهس زوجته الألمانية البدينة بسيارتي، إذ لم تستطِع تجنب سيارتي بالسرعة الكافية. لقد كان بالفعل على الرصيف، ورأيتُ أنه يكرهني – ليس أكثر مما يمكن لتاجر أن يكره بالطبع – رأيتُ أنه كان على دراية بالفرق بيني وبين زوجته.

كنتُ مُتزوِّجة آنذاك من تشارلز جولد.

لا. يجب أن أقولها بطريقة مختلِفة، بالطريقة التي جاءت بها الواحدة تلو الأخرى، لذا أولًا من كاميلوت.

كان مدير متجر كاميلوت زبونًا جيدًا، وكان يهتم بمظهره وكان ثريًّا. كان يرتدي قمصانًا من الحرير مُعدَّة له خِصيصًا حسب المقاس، ويُكمل بعناية فائقة مجموعته من رابطات العُنق. كان يأتي كثيرًا إلى المتجر؛ كان متجر كاميلوت على بعد بضعة أبواب من الشارع نفسه.

وأراد أن أخدمه، ولكن بدون مغازلة، وظَّف متجر كاميلوت

عشرين امرأة، لذلك لم يُزعج المدير أي شيء بهذه السرعة. فيما بعد تحدثتُ أيضًا إلى زوجته مرة، كانت بسيطة، وموسيقية، وغنية، وليست قبيحة. لم يخطر ببالي أبدًا الإيقاع بالمدير – لقد كان رجلًا صالحًا.

وكان يحب أن يتركني أخدمه لأنني أعرف ذوقه، وعادة ما أُريه ما يدور في خُلده على الفور. علمتُ أن لديه ميلًا للأشياء الفاخرة بشكل خاص – عندما كانت تظهر مجموعة جديدة من رابطات العُنق، كنتُ أضعها له جانبًا، ما كان من المفترض أن يراها أمام جميع العملاء الآخرين.

ذات مرة أريتُه ربطة عنق حين وصل الطرد لتوه من ليون. كانت حريرية أرجوانية جديدة، ثقيلة ولامعة لمعانًا شديدًا، لكنها رغم ذلك ناعمة. لقد قمتُ بلفها حول أصابعي، وشعرتُ بالنسيج المرن اللطيف، وسعدتُ باللون الأزرق البنفسجي العميق الرائع، حتى أنني ابتسمتُ لربطة العنق، على ما أعتقد.

فجأة لاحظتُ أن المدير ينظر إليَّ. لكن ليس مثل الرجال الآخرين، بأي حال من الأحوال، ولكن بنظرة حادة، كما لو أنه ينظر من خلالي إلى شيء آخر. ثم انحنى إلى الأمام، وأخذ ربطة العنق من يدي وقال بهدوء: «إذا راودتك فكرة التغيير، فعليك المرور عليَّ.»

في ذلك الوقت كنتُ أعيش على ثلاثين جيلدر في الشهر؛ لأنني

ما زلتُ أرسل العشرين لوالدتي؛ لم يكن هناك 30 جيلدر كثيرًا في ذلك الوقت أيضًا، وقد جعلني جرونمانز مُعتَادة على إنفاق المال مِن دون التفكير في كل بنس.

لهذا السبب فكرتُ في كلمات كاميلوت - هكذا كان الجميع يُسمي المدير. كان اسمه الحقيقي كوهين، وقد أطلق على متجره اسم كاميلوت؛ لأن الملك آرثر وفرسانه والسيدات النبيلات في كاميلوت يرتدون أردية جميلة وفخمة. يمكنكِ رؤيتها على اللوحات الجدارية في صالونات الأزياء الراقية - أصبح الجميع يعرف كاميلوت، إذ تُوزَّع كُتيبات المبيعات الخاصة به في جميع أنحاء البلاد - كل ما هو جميل وغير عادي كان يمكن رؤيته على السجاجيد الفارسية. لكن في ذلك الوقت، وفي تلك الفترة، كان العمل في بدايته، وكانوا يبيعون فقط الأقمشة والفساتين ذات الذوق الرفيع، فضلًا عن المجوهرات التي تبدو جيدة، ولكنها لم تكن باهظة الثمن بشكل خاص.

اعتقدتُ أن كاميلوت سيدفع جيدًا، في حين سيتذكر رئيسي دائمًا أنني تعلمتُ العمل منه، ولن أحصل منه على أجر مُرتفع أبدًا. وكنتُ أظن أنني لن أتمكن على المدى الطويل من الحصول على ثلاثين جيلدر في الشهر.

لهذا السبب ذهبتُ إلى المدير بعد ذلك بوقت قصير، وسألته عن نوع المنصب الشاغر لديه.

ضحك. جلس أمامي عند مكتبه الخاص - كان مكتبًا عاديًّا تمامًا به أثاث من خشب البلوط ولا شيء جميل أو فاخر. ثم هزَّ رأسه وقال: «لا توجد وظيفة شاغرة لك هنا - سيتعين عليك إنشاء الوظيفة بنفسك».

ولأنني لم أفهم، فقد شرح لي ذلك. أراد فتح قسم للسلع الكمالية، وكان لديه زبائن لذلك. وكان يعرف زبائنه، ويعرف ما الذي يعجبهم، وفي البداية سيهتم بالشراء شخصيًّا.

لقد استمعتُ بعناية ولم أقل الكثير، فقد كنتُ لا أحب الكلمات غير الضرورية. لكنني سألتُ أخيرًا، «ماذا تقصد بالكماليات؟»

استعاد المدير نظرته الحادة مرة أخرى، كما لو أنه يرى شيئًا وراء كل شيء آخر، ثم قال: «هذه أشياء لا يحتاجها المرء حقًّا».

عندما قلتُ إنني أعتقد أنه من الصعب بيع أشياء لا يحتاجها الناس، ضحك مرة أخرى. غريب. كان هذا الرجل يضحك كما لو أنه يرى شيئًا يخفى عن الآخرين - ثم أصبحت شركته مهمة للغاية. فأجاب: «يمكن أن يشتاق المرء لأشياء حتى عندما لا يحتاجها».

كنتُ أعلم ذلك، كنتُ أعرف ذلك دائمًا - والآن بزغ نورٌ أمامي. وسألته كيف تصوَّر عملي.

نهض ونظر إليَّ كما لو أنه سيكلفني بمهمة. قال: «يمكنكِ

تصميم القسم كما يحلو لكِ. المهم هو أن تبقي هناك طوال الوقت، وأن يكون العملاء قادرين على رؤيتكِ والتحدُّث إليكِ. يجب أن تجعليهم يشعرون أنهم بحاجة إلى ما هو غير ضروري حقًّا».

لقد وعدني بمائة جيلدر في الشهر، ونصيب من أرباح المبيعات، وعندما استدرتُ للمغادرة أوقفني للحظة وقال: «لا يجب أن تخزني المال - وبالطبع لا يمكنكِ أكله أيضًا.» ستحصلين على أجر عالٍ من أجل تجهيزاتكِ الشخصية. لا أتسامح مع الملابس الرديئة أو المجوهرات الرخيصة في أي قسم - لكني أريد أن أرى أناقة في قسمك. لا يمكنني شرح ذلك بشكل أكثر دقة الآن - فقط أريني ما يمكنكِ فعله».

ثم أراني كل الأقسام. من بين الأقمشة رأيتُ قسيمة من القماش الأحمر المخملي، وقمتُ بشرائها على الفور؛ لأنني كنتُ أعرف أنه في كاميلوت سأضطر إلى ارتداء أشياء أخرى غير ملابس بائعة الحرير السوداء، وكنتُ أريد دائمًا ارتداء فستان به طيات طويلة ناعمة وحزام مُطرَّز. كنتُ قد فكرتُ بالفعل في مثل هذا الفستان عندما كنتُ أتجول مع الخادمة من متجر الأسماك. في كاميلوت كنتُ أرتدي شيئًا من هذا القبيل حقًّا - ليس بذيل طويل بالطبع كما تخيلتُ عندما كنتُ فتاة صغيرة - لم يكن أي شيء ارتديته بنفس جمال الملابس التي تخيلتها لنفسي عندما كنتُ في الرابعة عشر من عمري. في وقت لاحق، كان عليَّ دائمًا مواكبة الموضة قليلًا.

لكنني على الأقل صممتُ لنفسي فستانًا مخمليًّا لم أعُد أبدو فيه كبائعة – لم أكن أعرف بالضبط ما هو النمط، لكنني كنتُ أعرف أن قسم الكماليات يجب أن يكون لديه شيء مُبهج، مثل الحكايات الخيالية. لذلك قمتُ بتطريز الحزام باللآلئ الحمراء والبنفسجية بين سطور طويلة من خيط ذهبي. وكلما تحدثتُ إلى المدير، وقمتُ بترتيب البضائع، كان في ذهني أن قِسمي يجب أن يتناسب مع فستان الحكاية الخيالية المصنوع من المخمل الأحمر؛ لذلك قمنا بطلاء الجدران بألوان رمادية من عرق اللؤلؤ، وتمَّ وضع سجاد باللون البنفسجي والأسود على الأرض، وأعطيتُ المصابيح أكاليل زهور مصنوعة من خرز زجاجي أبيض حليبي.

بدا كل هذا غير مُعتَاد، لأن العملاء في ذلك الوقت كانوا يتوقعون الكثير من الذهب في المتاجر الأنيقة. عندما افتتحنا، نشرت إحدى المجلات الفنية الإنجليزية صورة للمُنشأة – أظهرتني أمام نافذة مُقوَّسة عريضة، وكُتب عنوان للصورة: «إمكانات لمتاجر حديثة».

ولم يكن من قبيل المصادفة بالطبع ظهور الصورة في المجلة الشهرية. كان لدى كاميلوت العديد من العلاقات مع إنجلترا – كانت البائعات تتصرفْنَ أيضًا بطريقة مُناسِبة ومُهذَّبة، كما هو الحال في المتاجر الكبيرة في لندن. حتى إنني تلقيتُ دروسًا في اللغة الإنجليزية في ذلك الوقت، حيث اعتقد بعض العملاء أن اللغة الإنجليزية راقية. لهذا السبب حصلت على اسم إنجليزي. في متجر الملابس الرجالية كان اسمي السيدة هيلين، لكن في

كاميلوت كان اسمي ليليان.

بالطبع لم أستطِع الاستمرار في حمل اسم لِنتشيه، فقط صاحبة المنزل كانت تُسميني كذلك، لأنني انتقلتُ للعيش معها منذ كنتُ فتاة صغيرة غبية، وعندما سألت عن اسمي قلتُ لِنتشيه. لكن عندما كنتُ أكسب مائة جيلدر شهريًّا في كاميلوت، بحثتُ عن غرفة أخرى – لم أستطِع رؤية الكراسي المصنوعة من الخيزران أو مفرش المائدة الفانيلا الأحمر أيضًا – ولذلك نسيتُ أن اسمي هو لِنتشيه.

حتى جاء هانيس. سأل هانيس على الفور عن اسمي الأول، وقلت تلقائيًّا: « لِنتشيه»، لكنه ناداني بـ»لين».

إنني ما زلتُ أسمع ذلك – يمكنني سماعه يقول «لين»، بصوت عميق جدًّا، كما لو كان صوته يغرق في الاسم، عميقًا ومبحوحًا قليلًا – يا إلهي – لا يزال الصوت في أذني.

بعد ذلك!

اشترى المدير تماثيلَ برونزية وخزفية، وتُحفًا صغيرة من الحديد المطاوع، بالإضافة إلى كتب وحقائب ومشابك شعر – تمَّ اختيار الأشياء جميعها بعناية، وكانت قَيِّمة أيضًا، ولكنها لم تكن غالية لدرجة أنها لم تكن ستحقق أرباحًا. كان الربح في الواقع مُرتفعًا جدًّا، لأن العناصر الفاخرة لم تكن ثمينة ومُختارة حقًّا،

بل كانت غير أصلية إلى حد ما. لهذا السبب سارت بشكل جيد. كان لدينا الخزف الصيني، الذي جاء من الصين، بالطبع، ولكن كان يجب أن يكون خاليًا تمامًا من العيوب، وتمَّ تنظيف الخوص الكونغولي وتلميعه بدقة قبل عرضه؛ كنتُ مُدركةً تمامًا أن قسم الكماليات في كاميلوت لا يمكن أن يكون متحفًا.

مرة واحدة فقط كان لدي تمثال لشخصية تاناجرا حقيقية معروضة – امرأة مُنحنية تُفرغ قدحًا، وقفتُ هناك كما لو كانت تحلم وسيستمر الحلم إلى الأبد – لكن زبائني كانوا يمرون بها مِن دون اكتراث ...

نعم، أنتِ لا تفهمين ذلك الآن، أليس كذلك؟ كيف يمكن لشخص التحق بالمدرسة الابتدائية لِستِّ سنوات فقط أن يعرف عن فن التاناجرا؟

أنا أعرف الكثير. سمعتُ المدير يُسمي العناصر، وكنتُ أتحلى بالشجاعة للسؤال عن أي شيء لم أكن أعرفه. تمكنتُ أيضًا من البحث في الكتب التي اشتراها للبيع – كانت جميعها مُجلَّدة بشكل جيد ومُزوَّدة برسوم توضيحية، ولم أستطِع قراءة النص الإنجليزي في ذلك الوقت، لكنني لم أكن بحاجة إلى ذلك، كان بإمكاني تخمين ما كان موجودًا تحت الصور. وعندما كانت تُقام معارض خاصة في المدينة، كان يرسلني إلى هناك في الصباح عندما يكون المتجر هادئًا.

لقد تعلَّمتُ منه الكثير، وكنتُ مُمتنَّة جدًّا له – لقد عرف بالضبط ما يريد. لقد أراد أن يجعل قسم الكماليات الخاص به كبيرًا من خلالي، لقد استخدمني لذلك، لكنني وجدتُ أنه من الرائع أن أكون مفيدةً. في البداية كنا مشغولين في القسم الذي أعمل فيه لساعات في الترتيب والنظر إلى الأشياء، وبعد ذلك سار كل شيء من تلقاء نفسه؛ عندها أنشأ قِسمًا للسجاد في الطابق الثاني، ثم قِسمًا للأواني الزجاجية الفاخرة؛ لذا لم أعُد أراه كثيرًا. ومع ذلك، كنتُ بالفعل أرافقه في رحلات التسوق في ذلك الوقت. لقد رأيتُ لندن وباريس قبل أن أتزوج تشارلز جولد.

عندما أفكر اليوم في ذلك، يبدو لي كيف كان كل شيء بسيطًا جدًّا وطبيعيًّا بالنسبة لي، كما كان العمل مُنظمًا تمامًا ومُثيرًا للاهتمام. كل يوم، البضائع الجديدة التي ترد، والبضائع التي كانت معروضة للبيع – لكن لم يُسمح للأشياء بالبقاء لفترة طويلة، وإلا فإنها ستصبح قديمة الطراز، مهما كان ذوقها. فقط تاناجرا الصغيرة المسكينة استطاعت الوقوف على قاعدتها المصنوعة من خشب الأبنوس لمدة عامين مِن دون أن تصبح قديمة الطراز، وكانت موجودة عندما تزوجتُ – اشتريتها وأخذتها معي، ولم أعُد أرغب في الاستغناء عنها.

نعم، كان العمل مُمتعًا للغاية بحيث يمكنك الانغماس فيه تمامًا، لكن الحياة نفسها كانت أقل إمتاعًا. عندما يُغلَق باب المحل البرونزي خلفي عند الساعة السادسة، كنتُ أحيانًا أقف وحيدةً

جدًّا على الرصيف، ولم أكن أعرف إلى أين أذهب - إلى غرفتي، حيث لم يكن أحد ينتظرني، أو إلى مطعم لا يعرفني أحد فيه.

كنتُ وحيدةً جدًّا - لستُ وحيدةً بالطريقة العادية التي تشعر بها دائمًا عندما ترى الناس وتعرف أنك شخص آخر – لكني كنتُ حقًّا وحيدةً بشكل مؤلم - للدرجة التي تجعل المرء يتحسس نفسه بيديه، لأنه يريد أن يشعر بوجود شخص ما. غالبًا ما شعرت بنفسي بتلك الطريقة – لقد كُنتُ بصُحبة جرونمانز لمدة عامين، وكان عمري ثلاثة وعشرين عامًا فقط.

لكنني لم أرغب في الشعور بالشوق والعاطفة، وكنتُ مُدركةً أنني يجب ألا أكون رخيصةً. مشيتُ مُنتصبةً في الشارع، لكنني حرصتُ على عدم أرجحة وركي - لطالما وجدتُ ذلك قبيحًا للغاية. لذلك ذهبتُ إلى الحفلات الموسيقية والمسرح والمعارض بمفردي. في الأساس لم أستطِع السمر مع الموظفات الأخريات في كاميلوت، أما الرجال فقد كان بإمكاني في أحسن الأحوال تحمُّل المدير بجانبي طوال أمسية. لكن بالطبع لم يخطر بباله أبدًا أن يؤانسني.

كنتُ في الواقع مختلِفة قليلًا عن الشابات الأخريات. أمتلك الشجاعة لفعل الأشياء، وفعلتُ ما أريد؛ عندما ارتدى الجميع أحذية عالية الكعب، ارتديت أحذية مسطحة مصنوعة من جلد الشمواه الناعم المريح. وعلى عكس سيدات الموضة الراقية

جعلتُ شعري في تسريحة شعر فضفاضة، وللحفاظ على العقدة في مكانها، دسستُ فيه مشطًا فضيًّا. تجرأتُ أيضًا على ارتداء فساتين ذات فتحة صدر واسعة، بحيث كان الحجر الطويل الذي هو على شكل القمر المُعلَّق بالسلسلة الفضية مستقرًّا بشكل جيد على صدري، ولم أشعر بالخجل منه، ولم يبدُ مبتذلًا. كنتُ أيضًا مختلِفة عن الموظفين الذكور الذين كانوا يبتسمون بخضوع عندما كان المدير يقول لهم شيئًا - تجرأتُ على طلب زيادة في راتبي عندما ارتفعت مبيعاتي بشكل مُطرد، لم أكن مُجرد عِمَالة رخيصة، كنتُ أعرف قيمتي.

نعم، لهذا السبب سرتُ بشكل مستقيم - لكن لا يمكنكِ الاستمرار في فردِ ظهركِ. غريب. عندما تهب الرياح، كنتُ أشعر بالأسف على الأشجار لأنني أشعر أنها تتألم – تُصدر صوتًا حفيفًا، وتتصادم أغصانها معًا – من المؤلم الوقوف طويلًا ثم الاضطرار إلى الانحناء.

في مساء عيد ميلادي الرابع والعشرين، كنتُ أقف في الردهة عند مدخل قاعة الحفلات الموسيقية الكبيرة في أثناء استراحة أوبرا فاجنر. لا أتذكر اسم الأوبرا، ولكن أذكر فقط أنني فهمتُ لماذا يرمي الحصان رأسه للخلف عندما يَصدُر صوتُ البوق. اتكأتُ على جانب الباب وحاولتُ تجاهل الآخرين.

لكن لا يمكن التغاضي عن الجميع. كان أمامي مباشرة رجل،

ليس شابًّا، لكن شعره لا يزال أشقرَ فاتحَ اللون، كما يكون أحيانًا عند الأطفال. كان أسمر الوجه، مما جعل عينيه الزرقاوين تبدوان ناصعتي البياض، كان مُلفتًا للنظر.

كانت عيناه صريحتين بشكل رائع – مِن دون أي شعور بالذنب – لم تنظرا بوقاحة ولا اهتمام، فقط بهدوء، ناعمتين كمرآة. لكن شفتي الرجل كانتا مغلقتين أكثر مما تَعِد عيناه.

وقف أمامي ونظر إليَّ مِن دون أن يُبعد بصره، ورآني كما كنتُ. هذا لم يحدث لي من قبل، فقد كنتُ كلما نظر إليَّ رجل، أصبح بصره غير مُنتظِم في مرحلة ما، إما بسرعة، أو بعد حين. لكن هذا الرجل نظر إليَّ طوال الوقت، تمامًا كما تنظر إليكِ صورتكِ في المرآة – بلا حِراك.

عندما دخلتُ القاعة مرة أخرى، لأن الجرس قرع، شعرتُ أنه يسير عبر الباب من ورائي. وشعرتُ أيضًا أنه يشغل المساحة الخلفية التي كانت فارغة في السابق.

لماذا توجد موسيقى تمزقنا، حتى لا نجد أنفسنا؟ لماذا يجب أن نجلس ونستمع بينما نُفضل الهرب من الموسيقى التي تُضعِف وتشل حركتنا؟

دوى صوت امرأة، وغنت الفتاة أغنية لم أسمعها من قبل. إنها تبحث عن حزامها الذي انفك وفقدته – والآن يعرف الجميع أنه لم

يعُد بإمكانها إغلاق فستانها.

كان من الممكن سماع الخوف في صوت الفتاة، وأيضًا أنها كانت مُدركةً لنظرة الحبيب، ولن تدافع عن نفسها.

لم يعُد بإمكاني الجلوس بشكل مستقيم. أصبح رأسي ثقيلًا جدًّا بحيث لا يمكنني تحمُّله لفترة أطول، وشعرتُ بأن رقبتي تنحني. الصوت هو من فعل ذلك، وليس أنا – لو كنتُ هناك بنفسي، لما رغبتُ في ذلك، ولكنتُ شعرت بأنني جبانة. النغمات فعلت ذلك، الخوف الشديد على الفتاة العارية – كنتُ أنا نفسي عارية، في وحدتي وخوفي، اللذين لم أرغب في الاعتراف بهما. دفعت النغمات رأسي إلى الأسفل – أعمق وأعمق – حتى انثنت رقبتي تمامًا، وسقطت ذقني على صدري.

واصلتُ الاستماع على ذلك الوضع، وطوال الوقت شعرتُ بالعيون الصريحة للرجل خلفي على رقبتي المنحنية – كان ذلك مُؤلمًا، ألمًا غريبًا كان عليَّ مع ذلك أن أتحمله.

عند ذلك هربتُ من نفسي ومن هذا الرجل الذي كان يمكن أن يصبح سيدي. بالتأكيد، لم أعُد صغيرةً، كما أصبحت عاقلةً جدًّا بما يكفي كي لا أشرع في مغامرة. بالطبع لم أكن عجوزةً جدًّا لذلك، لا. لكني لم أعُد أمتلك الشجاعة للقيام بذلك. في الشارع أدركتُ فجأة أنني هربتُ؛ لأن يوم البيع بالتخفيضات في كاميلوت سيبدأ في اليوم التالي وكان لدي مهامي. كنتُ أشعر بالخجل من

ذلك؛ فقد كنتُ مجرد بائعة عادية، وكنتُ تلك الفتاة الفقيرة في الأيام الخوالي. لم أكن حُرَّة بما يكفي لأخذ ما أشتهي. ولم تكُن لي المكانة التي تكفُل لي أن أكون حُرَّةً في الاختيار.

كنتُ مرتبطةً بالحياة اليومية التي تعود مِرارًا وتكرارًا، كل صباح مع ضوء النهار. نعم. بكل بساطة الحياة اليومية التي تتكرر مِن دون أن نريدها، والتي تستهلك قوانا.

عندما كنتُ في السادسة والعشرين من عمري، لم يكن هناك أي شيء أتوق إليه أو لا أعرفه. كنتُ قد جعلتُ قسمي كبيرًا بقدر ما يمكن أن يكون في كاميلوت، كان لديَّ ست فتيات وشابان يعملون في البيع تحت إشرافي، وكانوا مُطيعين ولا يطرحون الأسئلة، كنتُ الرئيس. كان راتبي مرتفعًا لدرجة أنه كان لديَّ نقود مُتبقِية مِن دون أن أقصد الادخار، كما أنني كنتُ أُرسل ما يكفي إلى المنزل لرعاية والدتي وإطعام الأسرة بأكملها. لم يكن هناك المزيد لأشتاق إليه – إذا أردتُ، كان يمكنني الذهاب في إجازة، لكنني لم أرغب دائمًا في ذلك، لأن كل الأماكن مُتشابهة، ولأنني تمكنتُ من رؤية ما يكفي من العالم في رحلات التسوق لدينا على أي حال. كان بإمكاني حياكة جميع الملابس الجميلة لنفسي، وقد تمَّ تجهيز غرفتي من قِبَل قسم فنون الأثاث في كاميلوت. زارني شخص أو اثنان من معارفي هناك، ولم يعُد عليَّ أن أكون وحدي طوال الوقت، كان هناك بالتأكيد عدد قليل من الأشخاص الذين أردتُ التعرف عليهم.

في إحدى الأمسيات، بينما كنتُ مستلقية على أريكتي التي تضُم خِزَانة كتب، أدركتُ أنني لا أستطيع حتى مدَّ يدي إلى الكتاب الذي قرأتُ نصفه. وقد أخافني ذلك بشكل رهيب – جعلني أشعر بالبرد – فجأة أدركتُ أنني أتقدم في السن.

وكانت تلك المرة الأولى. بالطبع هناك دائمًا مرة أولى، ولكن بعد ذلك تأتي الفكرة مِرارًا وتكرارًا، مثل المقطع المُتكرر الذي يجب أن تغنيه – قبل وقت طويل من تقدمك في السن، تتعرف على ذلك المقطع بالكامل. يتقدم المرء في السن تدريجيًّا مع الحياة العادية.

أنا مُتأكِّدة من أنكِ لا تجدين حياتي عادية، وأنا أفهم ذلك. من المُحتمل أنكِ تفكرين في نفسكِ أو والديكِ أيضًا، ولهذا السبب تبدو حياتي لكِ غير عادية ومثيرة للاهتمام. لكن عليكِ أن تتخيلي أنها كانت حياتي الخاصة المُعتَادة، وأنها كانت تتقدم في العمر – في البداية انتظرتها، ثم قمت بتشكيلها، وبعد ذلك لم يكن هناك شيء آخر لأشكله، تمَّت حياتي وتوقفت. ثم كان عليَّ أن أدرك أنني أتقدم في السن. كل شخص يشيخ في النهاية من خلال عيش حياته.

لا أستطيع أن أشرح هذا أكثر، ربما لم تبلغي من العمر ما يكفي. نعم. أنتِ بالتأكيد لستِ كبيرة السن بما يكفي. لا يوجد الكثير أيضًا ليُقال عن ذلك، يجب أن يختبر المرء لكِ بنفسه. كان

هناك أيضًا وقت لم أعُد أفكر فيه في الكِبَر، حيث كنتُ أعيش فقط لأستيقظ كل صباح في يوم جديد رائع – كان ذلك هانيس – في ذلك الوقت لم أرَ أي شيء لا قبله ولا بعده.

لكنني الآن أتذكر تشارلز جيدًا، فهو أيضًا جزء من حياتي.

لماذا أنشغل بذلك مرة أخرى، لماذا لا أترك تشارلز بالخارج؟ ليس الأمر بهذه الأهمية – لقد استغرق الأمر وقتًا قصيرًا فقط – لكنني عانيتُ كثيرًا نتيجة لذلك.

لذا استلقيتُ على أريكتي ونظرتُ إلى يدي، التي لم تعُد تريد أن تعمل – كانت لديَّ يدان طويلتان ونحيفتان بأصابع مدببة، وأظافري مصقولة باللون الوردي. لطالما أحببتُ الأصداف الوردية الصغيرة الناعمة المُنتشرة على الشاطئ، والتي لا يجرؤ المرء حتى على المشي عليها، وجدت أظافري الوردية المصقولة جميلة مثلها تقريبًا. ثم ظننتُ أنهم سيدفنونها معي.

ما زلتُ أتذكر أنني نظرتُ إلى يدي لفترة طويلة، كما قمتُ بالمسح على مفاصلي باليد الأخرى، ولمستُ المنحنيات الصغيرة أسفل أصابعي.

أيتها المُمرِّضة، أصبح وجهكِ رماديًّا فجأة! لا يزال المصباح يعطي الضوء، الضوء نفسه كما كان من قبل – هل جاء الصباح بالخارج؟

الصباح هو الأسوأ هنا. طالما كان كل شيء مُظلمًا، فلا يزال بإمكانك تخيل شيء ما. عندما أستلقي مستيقظةً في الليل أتخيل أحيانًا أنني في عنبر مستشفى عادي أو دار أيتام، فقد أكون أيضًا شخصًا مريضًا عاديًّا أو طفلةً. ثم أنظر إلى النور فوق طاولة المُمرِّضَات وكل شيء آخر يكتنفه الظلام.

لكن عندما يحلُّ الغسق، تنتهي التخيلات، ثم يخرج كل شيء من الظلام، يتحوَّل أولًا إلى اللون الرمادي ثم الأبيض لاحقًا.

لا أستيقظ إلا عندما تصبح البقع الصفراء على الحائط بجواري مرئية حيث تُسرب أنابيب التدفئة، ثم يبدأ اليوم.

يمكنني أن أخبركِ عن تشارلز قبل أن يبدأ اليوم حقًّا. قد لا يكون الأمر مهمًّا بشكل خاص – لكنه جزء منه.

يتعلق الأمر أيضًا بيدي. لأنني عندما نظرتُ من مسافة في ذلك المساء إلى يدَيَّ اللامعتين والمشرقتين اللتين ستدفنان معي، خطر لي أنني أردتُ أن أنظر إلى الإيطاليين القدامى لتشارلز جولد. قال تشارلز جولد إن يدَيَّ تبدوان مثل تلك الموجودة على لوحة فلبينو التي اشتراها مُؤخرًا.

كنا نعرف بعضنا بعضًا وقتها منذ فترة طويلة. لقد بدأ الأمر مع أحاديث البيع المُعتَادة عندما اشترى شيئًا من القسم لديَّ – هدايا للآخرين، لا شيء لنفسه، كان يُتقن شراء الهدايا. لقد

كان ناقدًا فنيًّا ماهرًا حقًّا، واشترى مجموعة رائعة من اللوحات؛ كان والده سيجموند جولد، المصرفي، وكان شقيقه حريصًا على استمرار نمو ثروة العائلة الكبيرة في البنك. لم يكن هو نفسه مشغولًا كثيرًا، لذلك غالبًا كان يتجوَّل في قسمي، وأعتقد أنه أحب مشاهدة ما يشتريه الأشخاص الذين لم يكن من الصعب إرضاؤهم. بين الحين والآخر كان يأخذ إحدى القطع بين الإبهام والسبابة بابتسامة ساخرة قليلًا ثم يضعها مرة أخرى.

في الشارع كنا دائمًا نحيي بعضنا بعضًا بأدب كلما التقينا، فقد كان له أسلوب عصري وديمقراطي. لكنه لم يلتفت إليَّ حقًّا إلا بعد أن حضر إلى قسمي مع والدته؛ ليشتري لها شالًا مسائيًّا.

كانت السيدة العجوز ذات شعر ناصع البياض، لكنَّ عينيها السوداوين ما زالتا مفعمتين بالحيوية، وكانت تقفز مثل طائر صغير. بدت وكأنها الأصغر سنًّا بجانب ابنها وكانت تحب مداعبته. في ذلك اليوم أيضًا – كنتُ أضع شالات من الحرير الأبيض حولها – وكانت تمازحه لأنه طوال الوقت الذي كانت تختار فيه هديته كان يتصفح كتابًا عن ويسلر، وأخيرًا عرض عليها صورة فيه: صورة أم الفنان.

قالت: «يمكنكَ إلقاء نظرة على والدتكَ من وقتٍ لآخر» ... «هل يناسبني هذا الشال؟»

لقد بدت لي وكأنها قطة أنجورا رشيقة، وشعرها ينتفخ مثل

الساتان الأبيض فوق الطيات البيضاء للشال – بدت وكأنها مركيز فرنسية، وليست والدة ويسلر على الإطلاق. نظر إليها تشارلز وأومأ برأسه، ثم قال، «دراسة عن الأبيض».

قالت السيدة العجوز: «نعم، هكذا هو، إنه يحمل العالم كله في إطار ذهبي. يمكن أن يثير ذلك أعصابكِ – لكنه يكتب بمهارة شديدة. هل تقرئين مقالاته النقدية أحيانًا؟ «

نادرًا ما كنتُ أقرأ المراجعات الفنية؛ لأنني كنتُ أعرف ما هو جميل بنفسي، ولأنني لم أحب بعد ذلك أن أسمع من شخص آخر ما كان يجب أن أجده جميلًا وقبيحًا. لكني قرأتُ مراجعات تشارلز جولد بين الحين والآخر؛ لأنه يمكنك التعلُّم منه، كان يقتبس من مؤلفين آخرين، ويمكنك القول إنه درس تاريخ الفن. ولم أكن أعرف سوى القليل عما ينبغي معرفته، ولهذا السبب كنتُ أحترمه.

قلتُ ذلك لأمه أيضًا – بدت السيدة البيضاء الصغيرة قوية بالنسبة لي، كان بإمكانك إخبارها بما تفكر فيه. ثم ضحكت، أعتقد أن تلك المرأة المرحة وجدت شيئًا مُمتعًا في كل شيء. قالت: «تشارلز، عندما تُصبح في غضون سنوات قليلة أستاذًا، عليك أن تقترح السيدة ليليان كخليفة لك في الصحيفة، عندها سيكون لدى الناس مرة أخرى شيء أصلي للقراءة».

كان تشارلز مُنزعجًا – لكن عندما عاد إلى قِسمي لاحقًا كان

أكثر ثرثرة، حتى أنه سألني أحيانًا عن رأيي في بعض المعارض.

وأخيرًا لم يعُد يتجنبني عندما كنا نلتقي في أي مكان يشاهد فيه اللوحات.

كان هناك المزيد من الأشخاص الذين يعرفون وجهي من كاميلوت مثل هؤلاء، وعندما يقابلونني في مكان آخر، يبدو أنهم يستمتعون بالتحدُّث معي عن الأشياء الجميلة. تشارلز جولد، على خلاف ذلك، لم يكن بحاجة لي لأتحدث إليه، لقد تحدث وكتب بنفسه – أعتقد أنه تحدث معي فقط لأنه أراد أن يسمع مني رأي الجمهور.

بعد شرائه بوتيتشيلي، وهي صورة شهيرة لامرأة كتب عنها الآخرون في الصحف، كان مُتحمسًا جدًّا لها لدرجة أنه دعاني لرؤية مجموعته. لقد كان بالفعل مُتحمسًا بعض الشيء – لم يستطِع حتى التفكير في الكلمات الصحيحة لوصفها – لذلك مال ليوضح لي وضعية الرأس، فقد كانت مائلة إلى الجانب بطريقة أنيقة ومُتأملة. لم يكن ذلك غريبًا على الإطلاق، لأن هناك شيئًا نسائيًّا كان يتعلق به، كما لو كان فتاة عجوز. نعم. كان فاحش الثراء وشخصًا معروفًا في المدينة، ومع ذلك بدا فجأة وكأنه فتاة ذابلة بدت خجولة بعض الشيء – اعتقدتُ أحيانًا أن هذا يرجع إلى أصله اليهودي، الذي لم يرغب في الاعتراف به.

كان يبلغ من العمر أربعة وأربعين عامًا لكنه بدا أكبر سنًّا،

وكانت بشرته صفراء ومُتجعِّدة بالفعل. كما استمرَّ في الرَّف بعينيه خلف نظارته. استغرق الأمر مني بعض الوقت لأقرر زيارته، ولم يكن ذهابي بعد ظهر يوم الأحد بالتأكيد بسببه، ولكن لأنني أردتُ أخيرًا أن أرى يدَيَّ على لوحة فلبينو. وأيضًا لأن إيطاليا أصبحت آخر صيحة؛ في كاميلوت، انتهينا من بيع الكتب عن موريس وويسلر، وبدلًا منها عرضنا مجلدات عن دافنشي والبندقية. لقد اشترينا أيضًا فسيفساء صغيرة والخزف الإيطالي المُلَّون وأواني زجاجية من البندقية - لذلك كان بإمكاني تعلُّم شيء من تشارلز جولد، كما اعتقدت. بالطبع كنتُ قد زرتُ متحف اللوفر، والمعرض الوطني، والبيناكوتيك لكنني لم أكن أعرف الكثير - لاحقًا لم أتذكر سوى اللوحات التي تركت أكبر انطباع لديَّ.

عاش تشارلز في مبنى قديم جميل على قناة. نظرتُ إلى المنزل من الدرجات الأمامية قبل أن أقرع جرس الباب، ثم جاء. على عتبة الباب مباشرة أصبح مُضيفًا، أراني النقوش الرخامية في الرُّدهة؛ كان المنزل في السابق ملكًا لعائلة تجار عريقة، وكانت النقوش مزينة ببذخ بالورود والفاكهة - لم يتناسب بذخها على الإطلاق مع تشارلز الهزيل.

ثم قادني إلى لوحاته - وكانت تلك خيبة أمل. في متحف اللوفر كنتُ أتجول كطفل في بستان، ففي كل مكان كنتُ أنظر فيه كان هناك شيء لأمسك به. أما مع تشارلز، فقد كان هناك الكثير من

الأشياء الجميلة والمُميَّزة، ولكن ليس بطريقة تجعلك سعيدًا. ولذلك عَلِقت الأشياء الجميلة فقط في ذهني.

أراني بوتيتشيلي وانتظر ما سأقوله – لكنني خفتُ من قول ما فكرتُ فيه، بدت المرأة تشبهني. نظرتُ إلى الصورة لفترة طويلة، وبعد ذلك كانت مُعلَّقة في غرفة الموسيقى الخاصة بنا – ما زلتُ أتذكرها بدقة، على الرغم من أنها غير مُبهِجة. امرأة شاحبة بشعر أسود مستقيم – هذا ما بدت عليه. وعندما كنتُ أنظر إليها كنتُ أشعر بالخوف، كانت الصورة تفتقد شيئًا ما، كانت تلك المرأة تفتقد شيئًا ضروريًّا للحياة – لم أعرف ما هو، لكني علمتُ أنها لن تكون سعيدة تمامًا أبدًا. رأيتُ لوحة فلبينو أيضًا، وفهمتُ لماذا قال تشارلز إنهما كانتا يدَيَّ. لقد كانتا ناعمتين وموضوعتين بعضهما فوق بعض بهدوء ورشاقة، لكنهما افتقرتا أيضًا إلى شيء ما – لا يمكنك تخيل تلك اليدين تداعبان حيوانًا أو رأس طفل.

كان تشارلز ينتظر – كان عليَّ أن أقول شيئًا. لذلك قلتُ بوتيتشيلي لم تُعجبني، ووجدتُ لوحة فلبينو قبيحة، لذلك هزَّ كتفيه. بعدها أصبح أكثر ودًّا مرة أخرى. شربنا الشاي في غرفة معيشته، أراد تشارلز أن يصُب الشاي بنفسه. قال إنه بوهيمي بعض الشيء، وبدا ذلك سخيفًا لحد ما، وكان عليَّ أن أضحك على الكراسي العتيقة المصنوعة من خشب البلوط، والتي كانت ثمينة جدًّا وضخمة. لذا أعطاني الإبريق، وقد سكب الشاي بالفعل على

مفرش المائدة الصيني خاصته، وبالتأكيد لم يكن مُعتَادًا على صب الشاي بنفسه.

تحدثنا – كنتُ جالسةً على كرسي بذراعين مصنوع من الجلد الذهبي مع ظهر مُرتفع، عندما قال لي فجأة، «تبدين جيدةً فيه!»، ونظر إليَّ من خلال رموشه.

كنتُ مُدركةً لما يقول. شعرتُ براحة شديدة في الكرسي الرائع، كما لو كنتُ عُدت أخيرًا إلى المنزل. كانت مساند الذراعين بالمسامير البرونزية المزخرفة تتناسب تمامًا مع يدي، وكانت الغرفة بأكملها بنوافذها العالية، وألواح الجدران المصنوعة من خشب البلوط، والجداريات المرسومة، والثُّريا النحاسية مألوفة جدًّا بالنسبة لي – شعرتُ وكأنني أستريح هنا بعد رحلة.

فقط تشارلز لم يكن مُلائمًا، لقد أزعج الصورة؛ يمكنك أن ترى أن الأثاث المنحوت لم يُصنع من أجله، لذلك لم أستطِع الرد على الإطراء. بدلًا من ذلك، سألتُه عما إذا كان يتابع العمل على كتابه – كان يكتب رسالة عن مدرسة سيينا الفنية.

ثم أخذني إلى مكتبه، وكان سعيدًا لأنه يُريني عمله، حتى إنه تفاخر قليلًا بكومة أوراق التصويبات التي لا تزال موجودة من كتابه السابق. لكنه بدا مُحترمًا جدًّا في مكتبه – شعرتُ بهيبة – تمَّ لصق العديد من الملاحظات الخاصة بكتابه بدقة، وجمْعها في ملفات، وتقسيمها إلى فصول وأقسام على أوراق طويلة. كانت

هناك أيضًا مُجلَّدات بها مُراسَلات حول طبعات الصور التي أراد استخدامها في النص. كان من السهل عليه التحدُّث عن عمله، لقد فكَّر بالفعل في كل شيء ورتَّبه، الشيء الوحيد المفقود هو الكلمات، ولم يكن العثور عليها صعبًا، حسب قوله - بمجرد أن تكون قد جمَّعت الحقائق معًا، وتعرف كيف تريد إنشاء كتابك، فالكلمات لا تُمثِّل صعوبةً.

ثم حكى لي عن مدرسة سيينا الفنية وأعمالها وما اكتشفه عنها، أعتقد التواريخ خاطئة. جلستُ على الجانب الآخر من المكتب، وكان عليَّ أن أستمع لشرحه فقط. بين الحين والآخر كان يذهب إلى الرَّف ويأخذ كتابًا أراد أن يُريه لي، لم يكن عليه أن يبحث أبدًا، كان يعرف بالضبط مكان كل شيء.

لقد أنصتُ إليه، ولكن سرعان ما تعبتُ من ملاحظة أي شيء - ومع ذلك، فقد أثار تشارلز إعجابي؛ فقط أولئك الذين درسوا هم مَنْ يمكنهم القيام بهذا النوع من العمل. وفي وقت لاحق كنتُ أتقبله أكثر وهو في غرفة دراسته، حيث يتجوَّل في الغرفة ويتحدث إلى نفسه، أو يغرق في كرسي بذراعين، وفي يده كتاب ضخم، وينسى أنَّ عليه أنْ يحمل شرف تمثيل عائلة تشارلز جولد.

حتى يومنا هذا لا أعرف لماذا تزوجته. لا بد أنني كنتُ صمَّاء وعمياء - أو متعبة جدًا لدرجة أنني لم أكن أهتم بأي شيء سوى راحتي. ربما بعد ستة وعشرين عامًا كنتُ مُتعبة حقًّا، ربما

تزوجتُ لأنني لم أعُد أريد التواجد في المكان نفسه كل صباح في تمام الثامنة.

ربما كان أحد الأسباب هو أن السيدة جولد العجوز كانت جذَّابة جدًّا، وكانت تغمرني بالإطراء بشكل ساحر كي أتزوج ابنها المسكين، وإلا فسيفوته وقت الزواج تمامًا، عجِبتُ من عدم تفكيرها في الفارق الاجتماعي. لكنني بالتأكيد تزوجتُ تشارلز جولد لأنني أردتُ أن أثبت أنه كان مُحقًّا في رؤيتي مُضيفة مثالية لمنزله وممتلكاته الريفية. لقد سُررتُ برؤية الضيوف المُختارين، واعتقدتُ أنه سيكون من الرائع أن أكون سيدة حقيقية ترأس أسرة لها أطفال حسنة التربية، ولديها خدم وسائق وبُستاني. بالطبع مِن دون أن أُدرك مدى صعوبة الأمر – لم أكن لأنجح، حتى لو كنتُ مُعجبةً بتشارلز أكثر.

قدم لي أول عرض زواج في حفلة تنكُّرية. كان هو وآخرون قد شربوا كثيرًا، ولم يكن مخمورًا حقًّا، لكنه كان أكثر ميلًا إلى المُغامَرة من المُعتَاد – حتى إنه أراد أن يرقص معي. لكنني لم أشعر بالرغبة في الرقص، لقد ذهبتُ إلى الحفلة فقط لأُلقي نظرة، ولم تعجبني. كانت صاخبة بشكل رهيب – كان هناك أُرْغُن يدوي في مُنتصَف القاعة، وكان يعزف كما لو كان في سوق المدينة، وكان جميع الأشخاص المُتعرِّقين المُتنكِّرين يرقصون حوله، وكان أزواج من الرجال والنساء مُلتصقين بعضهم ببعض، ويتصرفون بشكل مثير للاشمئزاز. لقد قلتُ ذلك لتشارلز أيضًا،

عندما لاحظ على ما يبدو أنه نسي نفسه قليلًا؛ وقف مرة أخرى بجدية شديدة خلف مقعدي - ومال فجأة نحوي وقال إنني أنا المرأة التي تناسبه.

لم أُجِب حتى، فقد وجدتُ فكرة الزواج منه سخيفةً تمامًا. لكنه لم يستطِع أن ينسى ما كان يدور في خُلده؛ تحدَّث لاحقًا ثلاث مرات أخرى عن خطته – وتجاهلته في كل المرات الثلاث.

وفي يوم من الأيام وبعد كل شيء تزوجتُ تشارلز جولد، فجأة تمامًا كما تجد نفسكَ على الأرض بعد السقوط من السرير، وأنتَ نائم.

وقفتُ أمام طاولة خضراء طويلة، وخلفها كان ينتظر رجل نبيل حسن الملبس، وقلتُ «نعم» لسؤال طرحه – هكذا سار الأمر، كل شيء حدث يومًا بعد يوم منذ تلك الظهيرة التي نظرتُ فيها إلى اليدَين على لوحة فلبينو.

عندما قلتُ «نعم» سمعتُ حفيفًا خلفي، الشهود والضيوف ينزلقون على الكراسي، كما هو مُعتَاد عندما ينتهي فصل، وينتظر المرء الآخر. فجأة شعرتُ بخوف رهيب في قلبي - كان مُتشنجًا حقًّا - أدركتُ أنني قد تعهدتُ بالبقاء مع تشارلز جولد طوال حياتي.

عندها أدركتُ أنني تزوجتُ مِن دون أن أفكر فيه.

نعم. وعندها فقط أدركتُ أنني تزوجتُ رجلًا غريبًا - رجلًا قِزمًا، على الأرجح.

اغلقي الستائر، أيتها المُمرِّضة. يدخل الكثير من الضوء - وإلا سيستيقظ الآخرون، الجدة تستيقظ مبكرًا جدًّا.

هل تفهمين لماذا تكون دائمًا الأولى عندما يبدأ اليوم؟ في آخر الأمر هي لا تسمع أي شيء ولا تعرف ما الذي تراه. هل تفهمين لماذا تُلوِّح للشمس بمجرد أن تكون فوق الأسطح؟

تقول إنها كانت زوجة مزارع. لماذا تمَّ إحضارها إلى هنا، تحديدًا الآن، وهي على وشك الموت؟

من فضلكِ اغلقي الستائر. لن تحتاجي إلى إطفاء المصباح.

من الجيد النظر إلى ضوء المصباح لفترة أطول. لم أعُد أُحب الشمس، فهي تُسخِّن القاعة كثيرًا.

فيما مضى كنتُ أستلقي في الشمس لساعات - بجوار هانيس بعد السباحة.

لا. إنها الخامسة، لستُ بحاجة لأن أبدأ الآن في الحديث عن هانيس، لحسن الحظ لم يعُد هناك وقت لذلك. عندما تأتي الأخت إيفا بعد ذلك، سيبدأ اليوم، ثم لن يعرف أحد أي شيء عن هانيس - أنا فقط.

الآن عليَّ أن أستمر في الحكي بسرعة، وبصوت مُنخفِض. أنتِ الوحيدة التي تسمعني، لقد فقدتُ الأمل في الرَّب منذ وقت طويل. بطبيعة الحال. يمكنكِ أن تعرفي وترَيْ كل ما هو موجود في العالم – أرى أيضًا البُقع الصفراء الدائرية حول أنابيب التدفئة – إذا كان هناك ربٌّ كُنا سنراه أيضًا.

سأخبركِ الآن عن تشارلز. القصة قبيحة وقذرة بعض الشيء – في الحقيقية لا يجب أن يُخبر المرء بها أي شخص لم يتزوج من قبل. لقد شعرتُ بالاشمئزاز من نفسي أيضًا قليلًا عندما عشتُ ذلك – لكنني تمكنتُ لاحقًا من نسيان ذلك بفضل هانيس.

من الصعب حقًّا التفكير في ذلك مُجددًا.

كنتُ في غرفة فندق، أوه، مختلِفة تمامًا عن غرفة جرونمانز مع دفتر الطلبات الخاص به. كان هناك بساط منفوش أزرق فاتح على الأرض وكانت هناك منضدة للزينة مع مرآة وخزف سيفر وردي. وقد استحممتُ للتوِّ في حوض أبيض متلألئ في الحمام المُجاور.

كانت الليلة الثانية من شهر عسلنا، واعتقدتُ أن تشارلز سيطرق الباب. في الليلة السابقة لم أكن أتوقعه لأنه قال مرتين في القطار إنه مُتعب جدًّا من الزحام والضجيج. كان ذلك جيدًا بالنسبة لي، فقد تعيَّن عليَّ التعود على الزواج منه، وكان ذلك شعورًا غريبًا – كما لو أنني اشتريت شيئًا ما، وندمتُ عليه بمجرد

خروجي من المتجر، وحاولت أن أقنع نفسي في مُنتصَف الطريق بأنه لم يكن هناك شيء أفضل.

لذلك وقفتُ في مُنتصَف السجادة ذات اللون الأزرق السماوي مُرتديةً بيجاما حريرية بلون الكريم، واعتقدتُ أنه يمكنني الآن قفل باب غرفتي ثم الذهاب إلى النوم. في المساء، لم ألاحظ ما إذا كان تشارلز يُخطط للمجيء، فقد أمضى الوقت كله يدرس خطة السفر لليوم التالي.

ولكن بينما كنتُ على وشك إغلاق الغرفة، سمعتُ طرقة ناعمة.

يا له من جنون!، شعرتُ بالخوف في حلقي. كنتُ مرعوبةً من تشارلز – لم أكن أعرف عنه شيئًا تقريبًا، فقط أنه كتب كتبًا ذكية، وكان ناقدًا فنيًّا، وأنه قبَّلني بين الحين والآخر خلال خطوبتنا التي استمرت شهرين – برقّة. مرة واحدة فقط جذبني من وركي، بشكل خشن قليلًا في الواقع، حتى أوجعتني أصابعه العظمية، لكنه تركني بعد ذلك مرة أخرى مباشرة، كما لو أنه تحرش بي عن طريق الخطأ. والآن أصبح الأمر يتعلق بالانتظار لأرى ما يريد.

أردتُ أن أصرخ، لكنني بالطبع لم أفعل لأنني في فندق، وربما كان أحدهم نائمًا في الغرفة المُجاورة. لذلك ناديتُ: «نعم». وفي الوقت نفسه شعرتُ بالغثيان، مثلما كان يحدث لي وأنا طفلة، عندما كان عليَّ أن أتحمل شيئًا ضد إرادتي.

في العامين اللذين كنتُ فيهما مُتزوِّجة من تشارلز، كنتُ أعاني باستمرار من مَعِدتي - كان لدى تشارلز مُتخصِّص يأتي عدة مرات؛ لأنه لم يرغب في تصديق أنها كانت مُجرد مشاكل عصبية في المَعِدة، كما قال طبيب الأسرة. أزعجه لأنه لا يعرف السبب.

عندما دخل تشارلز الغرفة، بحثتُ حولي عن وعاء أو أي شيء لأتقيأ فيه. لكن لم يكن هناك شيء، فابتلعتُ حتى استعدتُ السيطرة على مَعِدتي.

أعتقد أنه لم يكن من السهل على تشارلز أن يكون زوجًا للمرة الأولى أيضًا، لكنه اعتاد على الاعتناء بنفسه، كرجل معروف لم يكن الأمر سهلًا دائمًا. على أي حال، بدا أكثر ثقة بنفسه مما كنتُ عليه، كما أنه جاء مُرتديًا مِعطفًا فرنسيًّا دافئًا وأنيقًا، وكنتُ أقف هناك بالفعل مُرتديةً بيجاما رقيقة.

جلس على كرسي بذراعين وجذبني على ركبته، ولأنني كنتُ أرتدي القليل جدًّا، استطاع أن يفعل بي ما أراد. لكن بعد ذلك لاحظتُ أنه لا يريد شيئًا في الأساس، على الأكثر اللعب على جسدي قليلًا.

لم أستطِع فهم ذلك، لم أعرفه من قبل. كان جرونمانز شابًّا مثلي، وكنا غالبًا نمرح بعضنا مع بعض، ولكن في مرحلة ما كانت هناك دائمًا لحظة نرقد فيها الصدر إلى الصدر.

على خلاف ذلك لعبت يدا تشارلز النحيفتان معي – كان الأمر مُقرفًا. أدركتُ لاحقًا السبب – كان في الرابعة والأربعين من العمر وكان ضعيف البِنيَّة.

لا، لن أقول أي شيء عما حدث. سيكون ذلك سيئًا للغاية بالنسبة لكِ. وأنا أعرف، حتى مِن دون أن أحكي، كم كان الأمر سيئًا.

كان عليَّ أن أتحمل يديه النحيفتين – لا أزال أرتجف عندما أفكر فيهما، لقد زحفا على بشرتي مثل أرجل العنكبوت. كرهتُ يديَّ، وأحيانًا كنتُ أرغب في وضعهما في النار – حلمتُ ذات مرة أنه سيتم قطعهما، وجعلني ذلك سعيدةً.

لقد تحملتُ لمدة عامين. ليس لدي أي فكرة عن سبب عدم انتباهي ومغادرتي قبل ذلك، أعتقد اليوم أنني لم أستطِع وقتها أن أنسى ما تعلمتُه من والدتي في المنزل: إنه عليكَ أن تفعل ما وعدتَ به.

وحافظ تشارلز على وعده جيدًا. عند عودتي من شهر العسل، أضيفت لي غرفة ذات قُبة في نهاية الممر الرخامي، جعل تشارلز مُصممًا داخليًّا معروفًا يصممها لي. لقد كانت حقًّا غرفة غير عادية. كان هناك عدد قليل من الأقنعة المُعلَّقة على الجدران المغطاة بورق الذهب – فيما بعد جربتُ لوحة يابانية، لكن الذهب طغى على كل شيء. كانت الغرفة كلها من الذهب والآبنوس والعاج –

عندما كان تشارلز يُري الضيوف المنزل، كان دائمًا يولي اهتمامًا كبيرًا للانطباع الذي تُحدِثه غرفتي. كما رتَّب الزهور، وأحضر لي الزنابق أو الأوركيد، وكان يشاهدني وأنا أرتبها. كان يحب أيضًا أن ينظر إلى انعكاس صورتي على خلفية الجدران الذهبية.

لا يمكنني أبدًا أن أكرهه حقًّا، كان هناك دائمًا القليل من الشفقة، حتى النهاية – كنتُ أعرف أن الحياة كانت صعبة عليه. كان ذلك لأنه جعل الأمر صعبًا على نفسه، لكنه لم يفهمها بأي طريقة أخرى. لم يواجه نفسه أبدًا بأنه يستطيع التحكم فيما لديه لنفسه، وأنه يمكنه بهدوء التخلص من شيء لا لزوم له أو يقف في طريقه. كل ما كان لديه ذات يوم كان مُهمًّا بالنسبة له – مجموعاته، وفِكَره، وأرباحه من ثروة العائلة، وأنا.

أعتقد أنني كنتُ مهمةً جدًّا بالنسبة له بعد أن أصبحتُ زوجته – لقد أراد أن يكون زوجًا صالحًا، وهذا ما شرع في القيام به. في الأساس، كان يجب أن يعرف أنني كنتُ صغيرةً جدًّا بالنسبة له. أراد أن يعلمني كل شيء، أخذني إلى المتاحف والمجموعات الخاصة، وأعطاني كتبًا بها قُصاصات ورقية تحدد المواضع المهمة. في البداية وجدتُ ذلك مُؤثرًا بطريقة ما، حاولت التعلم والقراءة، حتى لو لم يُهمني ذلك بشكل خاص – لكن فيما بعد دفعتُ جانبًا كل شيء أحضره، كان تعاملنا كزوجين يستنفد قواي بدرجة كافية.

كان نشطًا جدًّا ومُرهِقا. وطالما كان كبيرًا جدًّا في السن بالنسبة لي، حتى لو لم يرغب في الاعتراف بذلك، فقد كان دائمًا راضيًا عن نفسه للغاية. في تلك الليلة الأولى عاد إلى غرفته مرتين – لكنه قرر أن يكون زوجًا، لذا عاد للمرة الثالثة أيضًا. ما زال يدعي أنه يريد أن يعلمني شيئًا – وعندها أخبرته عن جرونمانز، وهو ما لم أكن قد فعلته من قبل.

نعم. فجأة اضطررتُ لقول ذلك، لا أعرف لماذا، لكن بالتأكيد ليس لأزعجه. أعتقد أنه كان من باب الشفقة. لأنني اعتقدتُ أنه سيريحه أن يعرف أنه لم يعُد مُضطرًا لتعليمي شيئًا. لكن ذلك لم يساعد، فقد أصبح أكثر اندفاعًا.

لم يلومني بالطبع، فقد كان ذا عقلية حديثة، ولم يسألني أبدًا عن حياتي السابقة – كان قد سألني فقط عن عائلتي وما شابه ذلك. ربما كان يأمل سرًّا أنه لم يكن لديَّ علاقة مع رجل قبله، على الأقل لم يُظهر خيبة أمله. لقد قال فقط إنه يريد الآن معرفة كل شيء.

نعم. عندما رقد أخيرًا بجواري في السرير ذي الإطار النحاسي والأغطية الحريرية الزرقاء، كان عليَّ أن أخبره بكل ما يمكنني قوله – لكنني دائمًا كنتُ أفتقر إلى الكلمات اللازمة لتقديم وصف تفصيلي. وهذا بالضبط ما كان مُروِّعًا، لأنه أراد أن يسمع كل شيء تمامًا كما جرى. طرح سؤالًا بعد سؤال – لم تنقصه الكلمات

– لذلك كان عليَّ استخدام كلماته لوصف ما حدث بيني وبين جرونمانز.

عندما سأل إذا كان ذلك هو كل شيء، قلتُ «نعم».

وبعد ذلك شعرتُ دائمًا أنه يريد إثبات أنه متفوق على جرونمانز.

لا شك في أنه كان في الرابعة والأربعين من عمره وكان ثريًّا، وقد سافر إلى الخارج والتقى عددًا من النساء أكثر من أي مُمثل تجاري عادي. لقد علمته هؤلاء النساء الكثير، أكثر مما يجب، ولم يستطِع نسيان ذلك – لكن كل هذا أثار اشمئزازي. ومع ذلك، لم أرفض على الفور البقاء زوجته بهذه الطريقة. في البداية اعتقدتُ أنه كان من واجبي أن أكمل تلك الزيجة معه – لقد كان خطأي أنه كان مُتزوجًا بي.

لكنني فشلتُ في القيام بواجبي. بدأت النهاية بشكل مُبتذَل عن طريق إصابتي بالمرض.

ليس مرضًا شديدًا، لا. قال طبيب الأسرة إنها مَعِدة عصبية. أحببتُ الطبيب كثيرًا، لقد كان رجلًا هادئًا ومُريحًا. يهزُّ كتفيه عندما لا يعرف شيئًا، وهو ما فعله عندما أجريتُ فحصًا لأنني أردتُ معرفة سبب عدم إنجابي لطفل. في ذلك الوقت قال بعناية إنه لا يوجد مُشكلة معينة معي، لذلك لم يكن هناك ما يمكنه فعله

حِيال ذلك، كانت هناك زيجات عقيمة، ثم قرع الجرس للمريض التالي.

لم يكن مُهتمًّا حقًّا بالمَعِدة، لكنه لاحظ أنني أبدو مُرهَقة وفي حالة سيئة، لذلك نصحني بالراحة لفترة. أردتُ أن أعرف ممَّ - لكنه هزَّ كتفيه، ونظر حوله في غرفتي الجميلة ثم قال مرة أخرى: «أنتِ بحاجة إلى الراحة، تنزَّهي وحدكِ بانتظام.»

لم يكن تشارلز راضيًا عن ذلك، فقد اتصل بأخصائي أمراض المَعِدة الذي لم يجد أي شيء مزعجًا أيضًا، ولكنه لم يُوصِ بالراحة وإنما بالتغيير. وأخذني أخصائي المَعِدة الباهظ الثمن الذي جاء بعد ذلك إلى عيادته للمُراقبة لمدة أسبوعين، لكنه في النهاية اعتقد فقط أنني بحاجة إلى التغيير. كان على تشارلز أن يتحمل حقيقة أنه لا يعرف السبب، ولكن على الأقل يمكنه الآن التأكد من أنني بحاجة إلى إلهاء.

أمر مُضحك. لم يعُد أحد متأكدًا مما يتعلق بالرَّب، هذا أمر واضح، لكن الجميع يؤمن قليلًا بالطبيب. كان تشارلز، بالطبع، يشعر بالمسؤولية كزوج، لذلك كان مجتهدًا جدًّا في محاولة إلهائي.

سافر معي إلى كابري، وإلى القرى الجبلية الإيطالية الصغيرة، وإلى النرويج، وإلى تونس العاصمة، وفي كل مكان كنتُ أشعر بآلام المَعِدة، وعدم الرغبة في تناول الطعام. كان تشارلز قَلِقًا حقًّا

حِيال ذلك – لقد حاول بجِدٍّ أيضًا أن يكون رفيقًا مَرِحًا ومُمتعًا في السفر، وأخبرني عن كل شيء رأيناه، وجد دائمًا الكلمات الصحيحة. وبطريقته الخاصة كان في حالة حب، مُتظاهرًا بأنه عشيقي رغم أننا كنا مُتزوِّجين. لقد اعتاد على الحديث عندما يحتضنني بين ذراعيه؛ ليحفز نفسه بكلمات الحب.

لكنني كنتُ أجزُّ على أسناني عندما كان يهمس في أذني، لأنه لم ينسَ أبدًا أنه كان يقول الكلمات.

لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن أستطيع أن أقول شيئًا جميلًا لهانيس بصوت عالٍ ... ربما لم أستطِع فعل ذلك بطريقة ملائمة مُطلقًا.

وبعد ذلك! عندما عُدنا من رحلتنا الأخيرة إلى النرويج، كان الجو دافئًا جدًّا في شهر يوليو، لذلك لم ننتقل إلى منزلنا الريفي، ولكن إلى مزرعة ريفية أكثر ظلًّا اختارها تشارلز من ميراث والده. وقف البيت الأبيض الطويل في حديقة ذات ممرات واسعة تصطف على جانبيها الأشجار والبرك، وكان كل شيء فيه طويلًا وأبيض، حتى السقوف، الجصية، والمدفأة الرخامية المحيطة، والمظلة المصنوعة من نبات القراص – عندما جلستُ هناك في اليوم الثاني إلى طاولة الطعام البيضاء الفضية في مواجهة تشارلز، خطر لي أنه يمكنني زيارة والدي وأمي مرة أخرى. فقلتُ له إنني أشتاق لوالدي.

لم يخطر ببالي أبدًا أنه يمكن أن يأتي معي، لكنه فكر في ذلك بالفعل، واعتذر. بدا لي ذلك غير ضروري تمامًا، وأخبرته بذلك أيضًا – كان يُرسل مبلغًا ضخمًا كل شهر، وكنتُ أعرف أنه لن يكون مُرتاحًا في بيئة برجوازية صغيرة.

أثناء تعبئة حقيبة من جلد الخنزير لنفسي، أدركتُ أنني كنتُ أُغني. عندما أُغلِق باب غرفة القطار بيني وبين تشارلز، وبدأ القطار يتحرك، أخذتُ نفسًا عميقًا – فقد كنتُ حقًّا في رحلة.

مرَّ القطار عبر المُروج، وبيوت المزارع المشرقة، والبلدات الصغيرة المتربة، والحدائق. نظرتُ ونظرتُ وكنتُ سعيدةً بكل ما رأيته – كم كان جنونًا أن كان باستطاعتي في ذلك الوقت الاستمتاع بالأشياء اليومية، رغم أني كنتُ قد رأيتُ للتوِّ جمالًا أكثر. ولم ألاحظ حتى أن الرواية التي اشتراها تشارلز لي بسرعة كانت مُلقاة على ركبتي، لقد حاولت أن أشبع من النظر إلى المُروج وجداول المياه وأكوام التبن، وضحكتُ، وضحكتُ بصوت عالٍ على بقرة كبيرة حمراء بُنيَّة تسير خلف ولدٍ كسول عبر المرعى. ولكن عندما ظهر البرج المنحني القديم، والذي بدا لي في الماضي كبيرًا جدًّا، بكيتُ بهدوء في منديلي.

كنتُ أذهب إلى المنزل في كثير من الأحيان، وعادة كنتُ أذهب إلى هناك ليوم واحد مرة واحدة في السنة – لكنني لم أتُقْ إلى العودة إلى المنزل، كنتُ أذهب دائمًا لأنني كنتُ أرى أن من واجبي

زيارة والديَّ المسنين. بالطبع، لقد نسي أبي منذ فترة طويلة أنه شتمني – لقد كان سعيدًا بأخذ الهدايا الخاصة بي، حتى إنه في السنوات الأخيرة أصبح مُحترمًا وخاضعًا بعض الشيء؛ لأنني أصبحتُ أستطيع أن أعطي الكثير. لقد أراد أيضًا معرفة ما كنتُ أفعله وأعيشه في المدينة، وكان يحكي ذلك لاحقًا للأشخاص الذين يأتون لزيارته.

من ناحية أخرى، ظلت أمي دائمًا على حالها، لا تطرح أي أسئلة، وكان الاختلاف الوحيد عن ذي قبل هو الطريقة التي خدمتني بها – لقد حصلتُ على الشاي في فنجان الخزف المُزهر الجميل الذي أهديتهُ لها ذات مرة، والذي كان له خلاف ذلك مكان الشرف في الخِزَانة. لم تقُل أمي أي شيء طوال اليوم، نظرت إليَّ فقط – وعندما كنتُ أشرع في الرحيل كنتُ أتفاجأ بنظراتها التي لم تشبع مني.

في المرة الأخيرة التي زرتُ فيها المنزل، قبل أن أتزوج، لم تكن قادرة على النظر إليَّ بهذه الطريقة؛ لأن عينيها أصبحت سيئة للغاية – كانت شبه عمياء، لذلك اتفقت مع امرأة لتعتني بها، وبأبي، وبعائلتي، وبأعمال البيت. منذ ذلك الحين، أبقتني تلك المرأة على اطلاع دائم على كيفية سير الأمور في المنزل – لقد كتبت مؤخرًا أن والدتي لم تعُد قادرة على رؤية أي شيء.

عندما جلسنا بجوار النافذة المفتوحة في فترة ما بعد الظهر

– أمي على كرسيها المقابل لي – فاجأتها بإعلان أنني هذه المرة أرغب في البقاء بضعة أيام، وأرغب في المبيت في المنزل.

ظلت أمي تستمع حتى انتهيت؛ فالمكفوفون يُنصتون بشكل مختلِف عن طريقة استماعنا. سألت: «هل تشتاقين إلى سريرك القديم؟»

عندها وضعتُ رأسي على المنضدة، كانت القماشة الزيتية باردة، ورأسي دافئ جدًّا، ولم أرغب في البكاء، لم أُرِد أن تلاحظ أمي أي شيء. لكنني لم أستطِع أن أكون شجاعةً أيضًا، لذلك لم أُجِب. أخيرًا قالت، «لو كنتِ أتيتِ قبل بضعة أشهر، كنتُ أستطيع رؤيتكِ.»

ثم مدَّت يدها للبحث عني، وحضنتها، لم أعُد أستطيع – كنتُ حزينةً جدًّا لدرجة أن قلبي يؤلمني. وكانت تواسيني، داعبت شعري مِرارًا وتكرارًا ثم لمست خدي بعناية، بينما لاحظت بالطبع الدموع التي لم أتمكن من حبسها. ثم أخرجت منديلها الأبيض الكبير من تنورتها ومسحت دموعي، كما فعلتِ معنا جميعًا عندما كنا صغارًا. لقد ساعدني ذلك بالفعل – وعندما وجدتُ موضعًا على كتفها حيث يمكنني البكاء، رجعتُ طفلة صغيرة مرة أخرى تحتاج للمواساة.

مكثتُ معها طوال الأيام الثلاثة مثل الطفلة الصغيرة، أكلتُ الخبز المسقي بسرور، كما لم أتناوله منذ تسع سنوات، ولعبتُ

مع لِينتشيه، التي سُمح لها بالطهي على مَوْقِدها الصغير الذي اشتريناه سويًّا. وطوال الوقت، كانت أمي تستمع كما كانت تنظر فيما مضى – كانت تستمع إلى حياتي.

كانت تلك المرة الأولى التي شعرتُ فيها بهذه الطريقة. ربما كانت تستمع وتنظر دائمًا هكذا، لي، ولنا جميعًا، لكن الأطفال والمراهقين لا يلاحظون الكثير من الأمور. ربما كان الأمر دائمًا على هذا النحو، طوال حياتي، مِن دون أن ألاحظ.

نعم. لا بد أن الأمر يتعلق بي، لأن لِينتشيه كانت تدرك بالفعل كيف كانت الأم تستمع إليها، رغم أنها كانت في العاشرة من عمرها فقط. الآن أتذكر كيف كانت تعود إلى المنزل من المدرسة، وتمدُّ رأسها عبر النافذة المفتوحة وتنادي، «ها أنا ذا!»، ثم تأتي تركض من الباب الخلفي وتترك أمها تقبلها.

يا إلهي – كم كان هذا الأمر فظيعًا! كنتُ على وشك أن أقول كيف كانت لِينتشيه، أردتُ أن أقول شيئًا عن وجه تلك الطفلة الصغير المستدير – وفجأة أصبح لها وجه أبيض بالغ مُفعم بالحيوية.

لا – يجب أن أخبركِ حتى النهاية. هذا لي أنا أيضًا، لأن هناك شيئًا يتضح بالنسبة لي.

ابقِ جالسة! اجلسي بهدوء ...! يتحرك الآخرون بالفعل، وهم

على وشك الاستيقاظ ... وأنا اتضح لي شيء ما.

لمدة ثلاثة أيام كنتُ تمامًا طفلة أمي مرة أخرى. في الليلة الأولى، عندما كنتُ مُستلقية على السرير ذي الإطار المعدني الذي هربتُ منه، جاءت وغطتني. كنتُ أرقد في سكونٍ تام كي أشعر بذلك، شعرتُ أيضًا أنها تريد أن تقول شيئًا. لكنها لم تقُل شيئًا. عشتُ في الغرفة لمدة ثلاثة أيام، وفي بعض الأحيان اعتقدتُ أنه كان بإمكاني البقاء فيما مضى، كانت الكراسي السوداء المغطاة بالفرش الأسود قبيحة، لكنها كانت مألوفة للغاية. وفي كل مساء عندما كنتُ أتحسس التجاويف في مرتبة القش، كنُت أستمتع بكوني وحدي في سريري مرة أخرى. لكن عندما خلعتُ المُلاءة وطويتُ البطانيات صباح اليوم الأخير، علمتُ أن ما حدث في الماضي لا يمكن تغييره.

في صباح اليوم الأخير، جلسنا معًا لفترة من الوقت وتحدثنا، أنا وأمي – جعلني ذلك أكثر هدوءًا، بينما تحدثت الأم عن الأحداث العائلية العادية بطريقة طبيعية تمامًا. كانت اثنتان من شقيقاتي متزوجات بالفعل، واثنتان في العمل، وذهب أحد الأخوين للعمل في البحر، والآخر كان في الجيش، ثم كان هناك مُدرِّس المستقبل، وحارس المَعبَر المستقبلي – كان هناك الكثير لنتحدث عنه. لكن طوال الوقت كان لدي شعور بأنها تُخفي عني شيئًا ما. بعد فترة قالت: «لِينتشيه فقط ما زالت بحاجة لي».

انتظرتُ لأرى ما إذا كان هناك شيء آخر. كانت أمي بحاجة إلى وقت طويل لتقول شيئًا. وعندما لم يأتِ شيء، قلتُ: «يمكنك أن تكوني معها لفترة طويلة».

لم أكن أعرف بالضبط كيف كانت حالها لأن طبيبها كان بعيدًا، عرفت فقط أنها مُصَابة بمرض حاد في الكُلى، وهو سبب إصابتها بالعمى. لكن المرء يحاول التسرية عن الشخص المريض.

كانت أمي مريضة لفترة طويلة لدرجة أن ما قُلته لم يلفت انتباهها؛ كما لو أنني لم أقل شيئًا، قالت: «كنتُ سأموتُ منذ فترة طويلة، إذا لم أكن خائفة جدًّا من ترك لِينتشيه مع هذه المرأة.» هل الطفلة نظيفة بشكل جيد؟»

لم تبدُ لي لِينتشيه مهملةً، وإن لم تكن أنيقة بالدرجة التي يمكن لأم أن تُرسل بها مثل هذه الشقراء الصغيرة اللطيفة إلى المدرسة، قلتُ ذلك بصراحة - وأمي تنتظر كلماتي، تمامًا كما كانت تنتظرنا لنقول الحقيقة.

ثم أومأت برأسها؛ وقالت «شعرتُ بذلك بيدي. وإذا لم أعُد موجودة، سيتم إهمال الطفلة تمامًا - وبعد ذلك لن يكون هناك مَنْ يحبها ...»

صمتت فجأة – فقد كان أبي موجودًا أيضًا. لكنني فهمتُ بالفعل - عندئذ لن يكون هناك أحد للاستماع إلى خطوات لِينتشيه في

الخارج في الشارع، عندما تعود إلى المنزل.

وقبل أن ألاحظ ما أقول، قلتُ: «إذًا ستأتي إليَّ». يا له من جنون!، لقد صُدمتُ، بمجرد أن قلتُ ذلك، لا أعرف لماذا. ربما بسبب فكرة الاضطرار إلى رعاية طفل.

بالتأكيد، سألتُ طبيبي عن سبب عدم إنجابي لأطفال، لكنني ذهبتُ بشكل أساسي فقط لأن تشارلز أراد أن يعرف، لم أرغب أبدًا في إنجاب طفل – يمكن لرعاية طفل أن تكون مُرهِقة أيضًا.

سمعت أمي أنني كنتُ مصدومة، تنهدت. ولكن بعد ذلك أومأت برأسها مرة أخرى وقالت: «أنتِ أول من أريد أن أطلب منه ذلك، على الآخرين أن يفكروا في المال، ومثل هذا الأمر سيكون مُجرد عبء إضافي عليهم».

أخذتُ يدي والدتي، وقلتُ إن لِينتشيه لن تكون عبئًا، إنها طفلة جميلة، ومحبوبة، وذات أخلاق جيدة، لذلك سيسُعدنا أن تكون معنا، وإنني سأحرص على أن تكون عندنا مثل الكونتيسة.

ولأن أمي صمتت، تساءلتُ عما تريد أن تسمعه أيضًا، وقلتُ إن الجميع يجب أن يحب لِينتشيه، إنها حقًّا كَنز.

قالت الأم: «يجب أن تحبكِ».

وبعد ذلك، ويدا أمي في يدي، وعدتُها بكل ما أستطيع – إنني سأبذل قصارى جهدي حتى تحبني لِينتشيه.

لم تُصلِّ الأم بصوت عالٍ أبدًا، ولكني شعرت من يديها أنها تصلي – كانت دائمًا تغلق عينيها وهي تصلي على أي حال.

في طريق العودة، جلستُ ساكنةً في زاويتي، وفي الأيام القليلة الأولى نظرتُ إلى تشارلز بعيون مختلِفة قليلًا – لكنه لم يفهم. كان مُقتنعًا تمامًا بأنني افتقدتُه لمدة ثلاثة أيام ولياٍل، وكان يشعر بالرضا والحب كما هو الحال دائمًا، لذلك سرعانَ ما عاد رفضي المُعتَاد واليأس الصامت المُعتَاد.

بعد بضعة أسابيع، سألتني المرأة في رسالة عما إذا كان بإمكاني اصطحاب لِينتشيه، لأن الطبيب قال إن فترة احتضار مريض الكُلى يمكن أن تكون مُرهِقة جدًّا للعائلة، وإلى جانب ذلك، لم يعُد لديها الوقت لرعاية الطفلة. لذلك توجهتُ إلى المنزل لإحضار لِينتشيه إلينا، ولرؤية أمي مرة أخرى، لكن أمي لم تعُد هي نفسها، بل صارت كائنًا لم يعُد يتعرف عليَّ – لذلك جمعتُ أغراض الفتاة وهربتُ.

في البداية لم ترغب الصغيرة في الذهاب معي. علمت أنها ستعيش معي في منزل جميل به حديقة كبيرة، لكنها تشبثت بيد أمها حتى النهاية، رغم أنها لم تعُد تلاحظ أي شيء. فقط عندما وعدتُها أنها تستطيع العودة إلى المنزل بمجرد أن تتحسن أمي، تركت يدها، وبعد ذلك كانت تسأل باستمرار عما إذا كان وقت

زيارة أمها قد حان. حتى أخبرتها يومًا أن أمها لم تعُد على قيد الحياة، وأنها ستبقى معي إلى الأبد.

لم تبكِ كثيرًا، لكن عندما عدتُ من الجنازة في ذلك المساء، وجدتُها راكعة أمام سريرها. قالت: «الآن سأقوم بأداء صلاتي الليلية هنا أيضًا، من أجل أمي».

على الفور وافق تشارلز على أنها يجب أن تأتي وتبقى معنا، كانت الطفلة مصدر إلهاء ممتاز بالنسبة لي، كما قال. لكن أسلوب حياتنا كان يجب ألا يتغير بسبب لِينتشيه.

عندما لاحظ أنني أستيقظ في الصباح الباكر؛ لأمشط جدائل الطفلة، وأتناول الإفطار معها، كره ذلك كثيرًا، ورأى أنها تصرفات برجوازية، ويمكن للخادمة أن تفعل ذلك أيضًا؛ كان يعتقد أن تربية الأطفال لا تتأثر بمَنْ يقوم بتقليم أظافرهم.

لقد تحدث دائمًا إلى لِينتشيه كما لو كانت في زيارة فقط، كان ودودًا بالتأكيد، لكنه كان مُتعاليًا بعض الشيء. في حين تمنيتُ أن أجد شيئًا من أمي فيها؛ عندما تجلس بجواري، أحببتُ أن أريح رأسي على كتفها الصغير.

لكنها لم تشبه أمي على الإطلاق، كانت شقراء ولها عينان زرقاوان كبيرتان، كنتُ أكثر شبهًا بأمي في صورة من شبابها. ومع ذلك، شعرتُ بألفة تجاه بعض الأشياء المُتعلِقة بلِينتشيه

– كان بإمكانها الجلوس هناك والنظر فجأة، بينما كانت يداها مشغولتين. وعندما كان الكبار يمازحونها بطريقة سخيفة، كان لها نفس ابتسامة الأم المرحة والحكيمة.

أعتقد أني وجدتُ أنه من الجيد أن تكون معي في المنزل الريفي الكبير في ذلك الوقت. قُدتها في سيارتي إلى جميع الملاعب في المنطقة، بما في ذلك موكب الزهور، أعتقد، وموكب تاريخي. كنتُ سعيدة جدًّا لعدم وجود تشارلز حولي طوال الوقت، وكانت الصغيرة جميلة حقًّا. لكنني لا أتذكر الكثير من تلك الفترة، كل شيء مُشوش للغاية – عندما أفكر في ذلك الصيف، أتذكر بشكل أساسي الليالي العديدة التي لم تكن حرارة الجو تريد أن تهدأ فيها، وأنني غالبًا كنتُ أستلقي مستيقظة، ويداي مقبوضتان بشدة.

نعم. وإلا لَمَا استمر الأمر. لم أستطِع تحمُّل تشارلز بعد ذلك، كنتُ أترك كل شيء يحدث معي، حتى إذا نام بعد ذلك، كنتُ أستلقي في الظلام وعيناي مفتوحتان، وأحيانًا أضغط على أسناني – لكن عقلي لم يعُد يعمل – لم أعُد أستطيع التفكير.

ولكني كنتُ أشتم في كثير من الأحيان، بهدوء من خلال أسناني، كل الشتائم التي عرفتها. فعلتُ ذلك هنا أيضًا في البداية، حتى إن المُمرِّضة ماري تغطي أذنيها عندما تمرُّ بجانب سريري.

وهكذا مرَّ الصيف حتى آخر ليلة من شهر أغسطس، ليلة العيد

الثاني لزواجنا.

غادر ضيوفنا، وكنا نحن الاثنان فقط جالسَين في الشرفة الأرضية الكبيرة في كراسينا الكبيرة. كان الجو دافئًا بشكل كئيب، وكانت عاصفة رعدية على وشك أن تهُب، لكن لم يكن هناك ما يكفي من الرياح لتجميع السحب معًا.

مدَّ تشارلز ساقيه وركل حذاءه الجلدي اللامع عن قدميه، وغالبًا كانت قدماه منتفختين في المساء، حتى لو لم يُرِد الاعتراف بذلك. لا يزال بإمكاني رؤيته وهو يحرك أصابع قدميه بشكل مرح في جواربه الأرجوانية.

وكان يتحدث وهو يفعل ذلك، واصل الحديث رغم أنه تحدث كثيرًا بالفعل طوال المساء. كان كتابه قد صدر، وكانت المجلات والصحيفة اليومية قد أعطت بالفعل تقييمات جيدة - شرب أصدقاؤه الشمبانيا معه في ذلك المساء احتفالًا بكتابه. طوال الوقت كان يتباهى ويدلي بملاحظات ذكية ونابهة، بدا دائمًا وكأنه يسير على رؤوس أصابع قدَمَيه. وكان يتفاخر بي أيضًا - في ذلك الصباح عند الإفطار، وضع حول رقبتي عِقْدًا قديمًا اشتراه لي من ملكية عائلية إسبانية؛ قال إن العِقْد سيجعلني امرأة من النبلاء.

لقد كان مصنوعًا من اللؤلؤ وحجر الجمشت وكان ثقيلًا جدًّا، وكان المِشْبك يحتك بقوة ببشرتي، كان من المفترض تغييره، وقد قدمتُ له معروفًا من خلال ارتدائه رغم ذلك. بدا العِقْد فخمًا

وفاتنًا على ثوبي الساتان الأخضر، وقد قال جميع الضيوف مُجاملات لطيفة. لعبتُ قليلًا بالصليب الثقيل الذي يتدلى في حضني، وتشارلز ينظر إلى يدَيَّ كما لو كان يتحدث إليهما.

ظلَّ يتحدث والعاملون بالمنزل يزيلون بقايا الحفلة خلفنا؛ كان يستمع إلى الكلمات التي ينطقها، الكلمات التي أصبحت أكثر جمالًا كلما طالت مدة نطقه لها. في تلك الأثناء كان الأمر يتعلق بحياته وطريقته في الحياة – بدا لي وكأنه يقف على رؤوس أصابع قدميه حتى وهو يتحدث لي وحدي – قال إن الحياة لها معنى فقط إذا عاشها في جمال ووفرة ووفقًا لإرادته؛ مَنْ يعِشْ على هذا النحو فإنه ينتمي إلى عصر النهضة. واصل الحديث عن إنسان النهضة هذا وكأنه يتحدث عن أحد معارفه. أخيرًا نهضتُ وغادرتُ؛ لأنني لم أعُد أسمع صوته، واعتقدتُ أنه سيلاحظ ذلك؛ أردتُ أن أرى كيف تنام لِينتشيه في هذا الجو الدافئ.

لكن عندما جئتُ إلى غرفتي لاحقًا، وجدتُه ينتظرني هناك، صعد فوقي وفتح ثوبي. رغبتُ في فك السلسلة الثقيلة الجديدة أولًا، لكنه لم يسمح بذلك.

قال: «عليكِ أن تستمري في ارتدائها، أريد أن أرى سيدتي في كامل فخامتها».

لقد وقف هناك مُرتديًا جوربًا، لم يكن أطول مني، شعرتُ بوجوده، وشممتُ رائحته ورائحة الشمبانيا، كانت رائحة كريهة

مثل التفاح الفاسد – اعتقدتُ أنه: فسد. عندما مدَّ ذراعيه نحوي، ركضتُ إلى الحمام، حيث ركلتُ أولًا ثوبي الساتان الأنيق في الزاوية، ثم حملته مرة أخرى.

عندما عدتُ إلى غرفة النوم، كنتُ عاريةً إلا مِن رداء النوم، لكنني كنتُ مُرتدية العِقْد فوقه – لم يكن لدي إرادة خاصة بي لفترة طويلة، عليكِ أن تتخيلي ذلك.

كانت تلك الليلة الأخيرة معه فظيعة، مثل الجحيم، لم أعلم أنه كان هناك شيء من هذا القبيل – لم يكن أبدًا في حالة من العشق والضعف كما كان ليلتها – كان يتصبب عرقًا، وظلت تلك الرائحة الكريهة في أنفي. حاول المرة بعد المرة، ولم يرغب في الذهاب، وظلَّ يقترب مني، وأصبحت يداه أكثر جشعًا – لم يُرِد أن يعترف بمدى عجزه المثير للشفقة. تمسك بي عمليًّا، وأخذ يلهث بكلمات الحب في أذني مثل التعويذات، لكن في مرحلة ما لم أسمع حتى ما يقوله – أمسك بخصري – صرخ، «عاهرة!» وأمسكني بقوة.

عندما وجَّهت له ضربات لأخلص نفسي، أصبح عنيفًا، وأراد أن يمسك بي مرة أخرى، لكنه أمسك بالسلسلة، وانغرست حلقاتها في بشرتي. أخذتُ أصرخ حتى أدرك ما كان يفعله، عند ذلك هرب إلى غرفته.

استلقيتُ هناك، ممدودةً مثل شخص ميت – لكن عندما شممتُ رائحته من مُلاءة السرير مرة أخرى، لم أتحمل البقاء في السرير،

ركضتُ حافية القدمين إلى الخارج، إلى الحديقة – لم أكن أعرف إلى أين أذهب. كنتُ أرغب في الذهاب إلى البركة، على ما أعتقد، لأنني فجأة كنتُ أقف على حافتها، لكن بعد ذلك استدرتُ لأن لِينتشيه كانت نائمة في المنزل.

لكن قبل وصولي إلى المنزل، سقطتُ على العشب تحت شجرة الزيزفون.

ظللتُ هناك ووجهي على العشب، وبقيتُ حتى شممتُ رائحة العشب مرة أخرى. وفي الوقت نفسه سمعتُ عواصف رعدية تضرب على مسافة. بقيتُ مُمددةً لفترة طويلة؛ لأنني لم أستطِع النهوض والمشي – وأيضًا لأنني أردتُ أن أشعر بالهواء باردًا.

ثم سقطت القطرات الأولى؛ كانت فاترة.

وفي اللحظة التالية، لاحظتُ كم كنتُ متسخةً، وكم كنتُ قذرة وفاسدة، وكم كان جسدي فاسدًا! – كنت مُستلقية على العشب، وكانت القطرات تتساقط سريعًا، وأخيرًا قفزتُ، وخلعتُ ثوب النوم، ووقفتُ عارية تحت المطر.

لا أنسى ما شعرتُ به. لقد شعرتُ بجسدي الملوث وهو يبتل، وضحكتُ، ضحكتُ وبكيتُ، ثم رفعتُ ذراعَيَّ حتى تنساب قطرات المطر على بشرتي لأطول فترة ممكنة.

كان البرق يضرب بشكل مُستمِر، لكن لم يخطر ببالي أبدًا

أن أي شخص يمكنه رؤيتي، شعرتُ بالمطر يغسلني، وشاهدتُ القطرات التي تنساب فوق جسدي – فجأة رأيتُ أن هناك قطرات حمراء بينهما؛ جاءت من صدري حيث جرحت السلسلة لحمي.

كانت القطرات الحمراء تكبُر الواحدة تلو الأخرى، ثم تنساب وتندمج مع قطرات الماء، ثم تتحول إلى اللون الوردي وتسقط عني.

رميتُ السلسلة بعيدًا عني، وهززتُ شعري حتى سقط على كتفي، ووقفتُ لفترة طويلة وأنا أفتح يدي وفمي تحت المطر. حتى رن فجأة صوت تشارلز: «سينكيسينتو! رائع رائع!»

وقف هناك مُرتديًا مِعْطفًا واقيًا من المطر، بدا مرة أخرى كرجل نبيل جدًّا. ونظر إليَّ، نظر كما ينظر شخص يعاني قصر النظر قليلًا من خلف نظارته ذات الإطار السميك، لكنه كان مُتحمسًا.

شعرت بالذهول، واندفعتُ نحوه وضربته ضربًا أعمى، جرحتُ قبضتي على أسنانه. وبعد ذلك، فجأة، أمسكتُ بثوبي، وركضتُ إلى المنزل الصيفي، حيث أغلقتُ على نفسي.

وانتحب في الخارج مثل الكلب لأسمح له بالدخول. لكن يدَيَّ لم تُردا فتح الباب.

فقط عندما بدأ الضوء يسطع تدريجيًّا، تحققتُ مما إذا كان قد رحل أم لا. ثم انعطفتُ إلى المنزل. كان جالسًا في الشرفة نائمًا،

مررتُ به بحذر، ونظرتُ في غرفتي بحثًا عن كل ما أريد أن آخذه معي.

عندما جاء إليَّ في الصباح، بعد أن حلق لحيته واغتسل، لكنه كان خائفًا بشكل مُرعب خلف وجهه الذكوري، كانت حقيبتي معبأة بالفعل. جلستُ عليها - كنتُ سعيدة ومُتحمسة، ونظرتُ في جميع أنحاء الغرفة التي كنتُ على وشك مغادرتها، وأردتُ أن أبصق في كل زاوية. لكن لم يكن على تشارلز أن يلاحظ مدى سعادتي، فقد شعرتُ بالأسف لحاله قليلًا مرة أخرى.

رفَّت رموشه خلف نظارته – وقال إنه لن يحمل في صدره شيئًا ضدي بسبب ما حدث في تلك الليلة، وإنه كان يعلم أنني كنتُ متوترة وسوف ينسى ما حدث.

عندها ضحكتُ، ضحكتُ وحسب، كان بإمكاني أن أضحك كشخص عادي مرة أخرى، لقد تحررتُ مرة أخرى وقلتُ إنني لن أنسى ما حدث أبدًا، طيلة حياتي - وإنني ما زلتُ أتمنى له حياة هادئة وميتةً هادئة.

افتحي الستائر، أيتها المُمرِّضة، لقد بدأ اليوم بالفعل في كل مكان.

لكن الآن عليكِ أن تساعديني على النوم، ساقاي لم تَعُدَا قادرتين، أنا متعبة للغاية.

غريب – يمكن أن يشعر المرء بالتعب الشديد بمجرد أن يحكي حياته.

ولم يكن هذا كل شيء – لم أخبركِ بالأسوأ والأكثر صعوبة.

لكن ربما أنا متعبة بما يكفي للنوم الآن. يمكنني أيضًا النوم عندما يكون الضوء ساطعًا، وتوجد ضوضاء من حولي، أبقى فقط مُستيقظةً عندما ترفض فِكَري النوم.

# الجزء الثاني

علمتُ أنكِ ستأتين. اشتقتُ إليكِ. كان ذلك غريبًا – باستطاعتي أن أتوق لشيء مرة أخرى. عندما قالت لي المُمرِّضة ماري هذا الصباح إنكِ كنتُ في مناوبة ليلية في قسم العزل، شعرتُ بالاشتياق إليكِ طوال الوقت.

كانت تلك المرة الأولى التي تحكي فيها المُمرِّضة ماري شيئًا لي؛ تحدثت معي كشخص عادي مما بدا أمرًا غريبًا بالنسبة لي، وفكرتُ للحظة: ربما تريد أن تجعلني أتحدث. إلا أنني لم أقُل شيئًا.

ثم جاء الطبيب إلى الغرفة الصغيرة التي أسكن فيها مُنفردة للاطمئنان عليَّ. استطعتُ أن أقول له شيئًا واحدًا. عندما سألني عما إذا كنتُ راضية عن التغيير، قلتُ: «شكرًا لك، هذا أفضل كثيرًا.»

في الواقع هنا أفضل بالفعل، أنا وحدي. بالطبع، يجب أن يظلَّ الباب المؤدي إلى الممر الخارجي مفتوحًا؛ لأن المُمرِّضة ماري تقوم بمهام الإشراف من هناك. يمكنني أيضًا سماع الأصوات التي تتسلل من الغرف الأخرى على طول الممر، وهناك مرضى يرقدون فيها، ويمكنكِ أن تسمعي أصواتهم التي تشير إلى فظاعة حالتهم. لكن على الأقل ليس عليَّ رؤيتهم.

أتمتع الآن بهدوء أكثر كثيرًا. عندما أستلقي الآن وعيناي مفتوحتان، لا أستطيع رؤية أي شيء يجعلني أشعر بالتعب. يمكنني التحديق أمامي ولا أرى شيئًا.

هل ستجلسين معي مرة أخرى الليلة؟ يجب أن يبقى باب الغرفة مفتوحًا، ومن المؤكد أن الآخرين سيكونون نائمين.

من الغريب أن المجانين يقدرون على التمييز بين النهار والليل. أنا أيضًا أدرك ذلك. لا أظن أنني أستطيع إخبارِكِ بأي شيء خلال فترة النهار.

إلا أنني أُفلح في هذا، في ظلام الليل فقط، لا يُسمح لكِ بإشعال الضوء، عندها سيمكنني رؤية نصف وجهكِ فقط، وستكونين جالسة بثبات تام.

غريب – بهذا الشكل يمكنني حقًّا أن أزداد ميلًا نحوك.

نعم. ألاحظ الآن أنني انتظرتكِ طوال اليوم، لأتمكن من سرد

المزيد لك. إلا أنني مع المُمرِّضة ماري ينعقد لساني – لعلمي أنها ستشي بكل شيء للطبيب.

يا لَه من جنون! – لا أهتم إذا كنتِ تفعلين ذلك أيضًا – وإذا كان الأمر كذلك، فحينئذٍ سيكون بشكل مختلِف.

لا أستطيع التحدُّث بصوت عالٍ مع نفسي. فالمجانين فقط هم مَنْ يفعلون ذلك.

ولا أعتقد أنني مجنونة جنونًا كاملًا.

لا أعتقد أنني أرى الأشياء بشكل مختلِف تمامًا عما هي عليه. لذا سأخبركِ فقط بما حدث بعد ذلك. لكن الأمر لن ينجح بنجاح الليلة الماضية نفسه. ليس لديَّ قصة الآن، وإنما لديَّ شيء مختلِف تمامًا، لكنني لا أعرف ما هو على وجه التحديد، بالكاد أستطيع أن أفهمه بنفسي. أعاني من صداع شديد عند التفكير في الأمر ويضيق صدري.

بكل هدوء – سأحاول أن أجد بداية.

كانت البداية أن أشرقت الشمس.

يرتبط الإشراق بهانيس – أراه يركض على مسار مُشمِس – أو يلعب البيسبول مع الأطفال في حديقة مُشمِسة، أو يقفز من منصة غطس نحو المياه، التي تشرق فوق صفحتها الشمس.

رأيته لأول مرة عندما أحرزت لِينتشيه شارة السباحة الخاصة بها. كان يقف على حافة المسبح بملابس السباحة وينادى عليها: «هذا جيد! استرخي، يمكنكِ فعل ذلك!» تردد صدى صوته فوق الماء، في الوقت الذي استدارت فيه لِينتشيه على ظهرها مثل سمك السلمون المُرقَّط الصغير. كانت الأعلام الصفراء ترفرف فوق المسبح، وكان الجميع يصيحون بأصوات متداخلة، مُستمتعين بالطقس الجيد.

لم أعتَد على الذهاب إلى المسبح مُطلقًا؛ لأنني لا أستطيع السباحة، ولأن لِينتشيه تذهب على كل الأحوال إلى هناك مع فصلها بالمدرسة تحت إشراف مُدرِّس التربية الرياضية. كنتُ سعيدة، لأنها يمكنها أن تكون في الهواء الطلق بعد المدرسة لفترة من الوقت، وأن هناك شخصًا يعتني بها. لم يكن لدي وقت كافٍ لأقوم بتلك المهمة، لأنني كنتُ أعمل.

كلا. لا بد أن أحكي الأحداث بالترتيب.

بعد مغادرتي لمنزل تشارلز، سرعان ما انتابني بعض القلق، فالفرح الخالص لم يَدُم طويلًا.

أصبحتُ الآن حُرَّة، لكننا، أنا ولِينتشيه، كنا بحاجة أيضًا إلى بعض النفقات، لنأكل على الأقل. في البداية لم تطرأ لي فكرة أن الإنسان بحاجة إلى المال؛ ليمكنه أن يعيش.

أرسل تشارلز شخصًا ليعرض عليَّ المال نيابة عنه بالطبع. كان هذا يشير إلى اهتمامه الشديد؛ عندما يجلس ليفكر في هدوء، يُصبح رجلًا نبيلًا بالفعل. إلا أنني رفضتُ بعد أن وجهتُ له الشكر – لم أستطِع قبول المال من دون مقابل. علاوة على ذلك، لم أعُد أرغب في أن تكون لي أي علاقة بتشارلز بعد تلك اللحظة.

لهذا السبب بحثتُ عن عمل مدفوع الأجر. كاميلوت، لم يكونوا بحاجة إلى رئيسة قِسم، وبالطبع لم أكن مُناسِبة لكوني لستُ موظفة صغيرة – إلى جانب ذلك، لم أرغب في البدء هناك من جديد.

يجب أن يكون عملًا يمكنني القيام به من المنزل. عندها لن أكسب بالطبع الكثير من المال، إلا أنني أعرف كيف أتدبر أمري بمبلغ بسيط، وسأكون قادرة على تدبر أموري الاقتصادية مع لِينتشيه في شقة صغيرة.

قمتُ بحياكة الملابس لمتجر فخم يسمى «فساتين ومعاطف لويز ري»، لا يزال من الممكن رؤية حروف اسم المتجر المُذهَّبة حتى اليوم على واجهة القصر الجميل المقابل للحديقة العامة. كان عملًا مُريحًا. كانوا يعطونني فستانًا على طراز باريسي، وقطع مختلِفة من الأقمشة، وكان عليَّ أن ألتزم بالقصة الأساسية، بينما أقوم بمزج الأقمشة وتصميمها، بحيث يصبح كل فستان أُسلِّمه قطعةً منفردة لا مثيل لها – لأنهم في لويز ري يضمنون

للعملاء أن القطع المعروضة والمُباعة، هي قطع فريدة غير مكررة.

كان العمل مريحًا، ولم أكن أتقاضى أجرًا سيئًا. عندما أعمل طوال اليوم مع إحدى المُتدربات، إلى جانب عملي لأمسيات قليلة بمفردي، أجمع ما يكفيني أنا ولِينتشيه للعيش، وتناول الطعام. وعندما أعمل طوال الليل بين الحين والآخر، كان ذلك يكفي لتغطية الرسوم المدرسية والضرائب والتأمين الصحي كذلك.

لم أحصل أبدًا على هذا القدر الضئيل من النوم كما كان حالي في ذلك الوقت – إلا أن ذلك لم يضرني، فقد استمتعتُ بالحياة على الرغم من كل شيء – وعندما كنتُ أفكر في تشارلز في بعض الأحيان، كنت أتنهد بسعادة لحصولي على حريتي، وكنتُ مُمتنَّة لأنني أستطيع أن أجلس في غرفة الحياكة الفوضوية الخاصة بي.

كنت دائمًا راضية في ذلك الوقت. كان لدي شقة بأحد المنازل في الطابق الثالث، وكانت لها شرفة حيث أمكنني زراعة زهور الكبوسين بها، وفي غرفة المعيشة كانت هناك منضدة، وخِزَانة ذات أدراج، وأربعة كراسٍ اشتريتها من أحد تجار السلع المُستعملة، لأن الأثاث الموجود في متجر الأثاث المعروض للإيجار بدا لي قبيحًا جدًّا. كانت لدي قطة بيضاء تجلس عادة إلى جوار حامل إصيص الزهور، كما كان هناك برطمان خيار مخلل فارغ، وضعتُ به سمكة لِينتشيه الذهبية. كانت السمكة

الذهبية رائعة، حتى إنني وبينما كنتُ أعمل، كانت تقع عيناي على جسمها اللامع الرشيق – إلا أن الزجاج كان قبيحًا. ومع ذلك، فقد كنتُ راضية، كنتُ أعرف أنه لا يمكنني الحصول على وضع أفضل مما أنا عليه، إذا أردتُ أن أكون حُرَّة.

وكانت الشقة مريحة على الرغم من بساطة أثاثها.

نعم. إلا أن راحتي لم تكن شُغلي الشاغل؛ فقد كان همي الأول هو راحة لِينتشيه. كم أذهلني أن الطفلة يمكنها أن تجعل الشقة بأكملها مُريحة. وكانت طفلة بكل معنى الكلمة، لم تكن تعرف أي شيء عن العالم، ولم تفكر في أي شيء كذلك، على ما أعتقد. بدت أيضًا صغيرة جدًّا بالنسبة لطفلة في عمرها، فتاة حساسة ذهبية الشعر – إلا أنها عندما تتجوَّل في الغرفة، وتضع الأشياء في أماكنها، وتملأ الأكواب، أو تغني لنفسها بصوتها المُشرق، أو تحكي ما دار بالمدرسة، لم تبدُ أبدًا كطفلة في تلك الآونة.

وكانت تحكي الكثير عن المدرسة، كانت المدرسة هي عالمها الخاص. كنتُ أعرف أسماء جميع الأطفال، شعرتُ أني رأيتُ مُدرِّسة الفصل، ومُدرِّس التربية الرياضية أمامي مباشرة، حتى قبل أن ألتقي بهما فعلًا.

مُدرِّس التربية الرياضية. كم كان ذلك مُضحكا! قبل أن أرى هانيس، كان بالنسبة لي مجرد مُدرِّس التربية الرياضية.

كانت لِينتشيه فخورة جدًّا به. وبقي الأمر دائمًا على هذا النحو. نعم.

كم كان هذا الأمر صعبًا! من الصعب حكي كل شيء، وكأن شيئًا لم يحدث بعد ذلك. كما لو كان من الطبيعي، أن تكون لِينتشيه فخورة بهانيس، منذ أن كانت في الحادية عشر من عمرها. وأن هانيس أحبها، وهي لا تزال طفلة.

لا يمكنني أن أحكي ذلك، لا أستطيع، إنه أمر صعب للغاية. لم يعُد بإمكاني أن أتخيل، أن كل شيء في ذلك الوقت كان طبيعيًّا، وكانت لِينتشيه، وهانيس يحبان بعضهما بعضًا في تلك الآونة كما كانا يحباني، دون أن يقترف أي شخص ذنبًا.

لكن عليَّ أن أحكي ذلك، وإلا فلن أصل إلى النهاية – وتلك النهاية هي تحديدًا السبب الذي يجب أن أحكي كل شيء من أجل أن أصل إليها – يجب أن أكتشف شيئًا، وأفهم شيئًا ما، لا يجب أن أصاب بالجنون التام.

أرقد هنا وأريد أن أفهم – أبحث وأجدُ دائمًا أسبابًا أخرى لوقوع الحادث. إلا أنني لا يمكنني العثور على السبب الرئيسي الذي أدى إليه.

لم يكن الذنب ذنب لِينتشيه، كلا، فهي لم تكن مسؤولة عن ولادتها. وكانت دائمًا طفلة ودودة ولطيفة، تُحب الجميع، كما أنها

لم تكن عنيدة أبدًا. عاشت بهدوء ولطف معي ومع هانيس طوال تلك السنوات – ما زلتُ لا أفهم كيف أمكنها أن تجعلني فجأة مُذنبة لتلك الدرجة.

في السنة الأولى التي قُمنا فيها، لِينتشيه وأنا، برعاية بيتنا الصغير، استمتعنا كثيرًا معًا. كانت هناك أحداث مبهجة صغيرة، واضح بالطبع، كلها في المنزل. في بعض الأحيان أعدُّ لها مفاجأة – كستناء مُحمصة أو زهور الربيع المخملية الأولى – وفي أحيان أخرى تحضر بعضَ الأعمال اليدوية من الورق المُقوَّى من المدرسة، صندوقَ رسائل لتعليقه، أو تقويمًا على سبيل المثال، فقد كان هناك دائمًا مكان لمثل تلك الأشياء على جدران بيتنا العارية.

يا لَه من جنون! عندما كانت تعود إلى المنزل بشيء صنعته، كنتُ أرى في اللحظة الأولى مدى قبحه. أما فيما بعد، عندما تُعلقه لِينتشيه على الحائط، كنتُ أنظر إليه بنظرة ودودة – ثم لم تعُد لدي رغبة بعد ذلك في إزالته من على الحائط مرة أخرى. لطالما كانت لِينتشيه تسعد للغاية، عندما كانت تُحضر لي هدية.

نعم، لم تستطِع أبدًا التمييز بين الجميل والقبيح، كان كل شيء يعجبها. وفي إحدى المرات سقط منها فنجان والدتي الخزفي المنقوش بالزهور، الذي ورثتُه عنها، في حوض الغسيل، أصبتُ بصدمة، إلا أن أول شيء فكرتُ به أنه لن يصبح نشازًا وسط

الطقم الخزفي الأصفر مرة أخرى.

إلا أن لِينتشيه صرخت، وقامت بلصق القطع المكسورة معًا – بالطبع لم يعد بالإمكان استخدام الفنجان، إلا أن لِينتشيه وضعته مرة أخرى في مكانه على لوح الشاي.

شعرتُ أن لِينتشيه لديها حساسية مفرطة – إلا أنني أحببتها كثيرًا، على ما أعتقد. كانت تحب أن تُعانَق، وكنتُ أستمتع بضم هذا الجسد الناعم بين ذراعي – كانت في الحادية عشرة من عمرها، وعلى الرغم من ذلك ظلت تعانقني – فكنتُ أشعر بجسدها الرقيق تحت ثنايا فستانها، مثل جسد الطائر الصغير تحت ريشه الرقيق.

حتى إنني اعتنيتُ بها أكثر من اعتنائي بنفسي. حرصتُ على أن تأكل ما يكفي وأن تنام مبكرًا. كنتُ أذهب معها في يوم اختبار السباحة، لأنني أخشى إصابتها بنزلة برد في أثناء انتظارها على حافة حوض السباحة وهي مُبتلة.

ذات مرة عندما كنتُ أُلُف لِينتشيه بمنشفتها الثقيلة بعد الجزء الأخير من الامتحان، جاء هانيس للتهنئة. صافحها أولًا بقوة ومرح، ثم صافحني.

شعرتُ بيديه مبللة وباردة، لم يفكر في كونه قد خرج من الماء للتوِّ، شعورًا فريدًا جدًّا. لقد صدمتُ واضطررتُ إلى الضحك،

وهنا ضحك هانيس أيضًا، إلا أنه لم يعتذر. ورفع لِينتشيه فوق رأسه وسألها: «وأين الكعكة؟»

جلست لِينتشيه على كتفيه، وشدت أذنه. وقالت: «عند الحلواني!»

كانت الأجواء في المسبح صاخبةً ومرحةً – كان الجميع يستمتع بذلك، كان عليك فقط أن تشارك في الضحك. استمر هانيس في مزاحه مع لِينتشيه لأنها لم تُوزِّع أي شيء بمُناسِبة اجتيازها للامتحان، وقال لي: «وعدتني، سيدتي. ببعض المال الذي تدخره في حصالتها».

أعتقد أنني شعرت بالخجل – كان أمرًا غير مريح تمامًا بالنسبة لي، لأن لِينتشيه لا تملك حصالة، ولم أفكر قط في شيء من هذا القبيل، وهي لم تطلب، لكنني أدركتُ الآن أنها سمعت ما يحكيه الأطفال الآخرون في المدرسة عما لديهم وما يحصلون عليه.

ومن أجل أن أسدي لها معروفًا، وأخرجها من هذا الموقف المُحرِج، سألت هانيس عما إذا كان يرغب في الذهاب معنا إلى المنزل لتناول كعكة صغيرة، وكانت لِينتشيه سعيدة جدًّا عندما قال «نعم».

من الغريب أن ساعة واحدة مُشمِسة بعد الظهر قادرة على أن تغير العالم بأسره. بعد أن ذهب لتغيير ملابسه، استمعتُ

لبعض الوقت إلى صراخٍ وضحكٍ من الأشخاص الذين يسبحون ويقفزون من فوق حافةً المسبح. شعرتُ بالحرارة الشديدة، كما شعرتُ بأنني أرتدي ذلك الثوب الأنيق في المكان غير المناسب، كما حسدتُ الآخرين الذين ينثرون المياه بعضهم تجاه بعض، وتجرؤوا على القفز من فوق لوح القفز.

ثم عاد هانيس. وهو يرتدي قميصًا ذا ياقة ناعمة – الآن يفعل كل الرجال ذلك، بما في ذلك أساتذة الجامعة هنا والمحامون – ولكن في ذلك الوقت أدهشني أن قميصه لم يكن ذا ياقة عالية مدببة. وكانت تلك هي المرة الأولى أيضًا، التي أرى فيها رجلًا يرتدي بدلة رياضية من قماش الفانيلا ويتحرك بارتياح.

لطالما تابعتُ هانيس أثناء مغادرته المنزل في الصباح؛ حتى إنه لا يمكنني إحصاء عدد المرات التي تابعته فيها، تبدو وكأنها دقيقة واحدة طويلة رائعة. أقف عند النافذة وأنتظر باب المنزل لينغلق – ثم يسير بالأسفل، أرى شعره الذي أصبح غير منسق مرة أخرى رغم أنه صففه، ثم أراه يسير في الشارع، ويُبقى نفسه معتدلًا، رغم ذلك يتأرجح كتفاه قليلًا ذهابًا وإيابًا، كان ذلك يحدث، لأنه يستمتع بالاندماج مع إيقاع مشيته – يمكنني أن أشعر به وهو يمشي –أعرفه جيدًا، أيتها المرضة...

أعرفه بالفعل منذ جلس أمامي في الشرفة مع زهور الكبوسين بعد الظهيرة. لطالما كنتُ قادرة على رؤية الناس على حقيقتهم.

ومع هانيس رأيتُ كل شيء من أول نظرة، لم يكذب جسده.

ذات مرة جلستُ بجوار اثنين من الصحفيين، عندما كان يرمي الرمح في عرضٍ لألعاب القوى. ولفت أحدهم انتباه زميله إلى هانيس، قائلًا: «انظر هناك إلى هذا كيف يتحرك - يا له من جسد رائع ومعبِّر!»

كلا، أيتها المُمرِّضة. أعرف ما تفكرين به الآن، تفكرين بشيء أقل أهمية بالنسبة لكِ، ربما تسميته «المادي» أو «الفاني» - نعم، هكذا تطلقين عليه على الأرجح.

لكن يجب ألا تفكري بهذه الطريقة عندما يتعلق الأمر بهانيس، لم يكن الأمر كذلك. لقد عاش بجسده كله، على عكسنا، حيث نستخدمه فقط. عاش بقدميه ويديه وكتفيه تمامًا - أدرك العالم بجسده، وتعرَّف عليه من خلاله.

ربما لهذا السبب أصبح مدرِّسًا للتربية الرياضية. في البداية كان مدرِّسًا لمواد أخرى - أخبرني ذلك في أول أمسية التقينا فيها - إلا أنه لم يستمتع بتعليم الأطفال الشيء نفسه مِرارًا وتكرارًا، لذلك تحوَّل إلى الرياضة.

قال: «في الحقيقة لم أرغب في أن أصبح مدرِّسًا، لكن رئيس البلدية ألحقني بمنحة دراسية. حيث كان والدي عاملًا في مجلس المدينة».

وبعدها فقط بدأنا نتحدث فعلًا – كم استمتعتُ حقًّا بالتحدُّث إلى شخص كان أيضًا طفلًا لعائلة فقيرة، وأصبح يعرف الدنيا الآن. لم أكن مُضطرَّة لإجراء حوار على الإطلاق – جلسنا بعضنا في مقابل بعض، وكان هانيس يلعب بلفات التطريز الحريرية الملونة، واستخدمها لعمل أشكال على الطاولة المعدنية، لكنه في النهاية كان ينحي كل شيء جانبًا، وينظر إليَّ فقط.

أدركتُ فجأة أنه كان جالسًا هناك، كما لو كان مستعدًا للبقاء. كان يجلس واضعًا يديه حول ركبتيه – كانتا طويلتين ولونهما بُني، وأصابعه مستقيمة وأطرافها قوية.

هُرَاء – لم تكن يداه هكذا – هما لا تزالان هكذا – حتى الآن. الوسيطة الروحية رأتهما.

إنه أمر صعب – لم يعد بإمكاني التمييز بين الأحياء والأموات. عندما أفكر في لِينتشيه، فهي موجودة دائمًا – هي لا تزال موجودة حتى وإن لم أفكر بها – ومع ذلك أعرف تمامًا أنها ماتت – لم ينزف الجرح سوى لفترة وجيزة، ثم تجلط الدم.

ومات هانيس كذلك – لقد مات بالتأكيد، لقد قرأتُ كل ما كُتب عنه في الصحف – ومع ذلك فهو موجود في مكان ما، في تلك اللحظة، لقد رأته المرأة وسمعته. لكن عندما أفكر فيه، يكون قد مات إلى الأبد.

هل تعتقدون أنني مجنونة، لأنني في بعض الأحيان لا أعرف أين أنا – في الجحيم أم في مَصحَّة عقلية؟ ألا يمكن أن يبدو جحيمي وكأنه مَصحَّة عقلية؟

أوه، هكذا لن أتمكن أبدًا من حكي كل شيء. وأنا أريد أن أحكي كل شيء حتى النهاية.

جلس أمامي، ووقفت لِينتشيه إلى جواره، لكنه تحدث معي أنا.

كنا نتحدث ونستمع بعضنا إلى بعض، بالتناوب دائمًا، وكلٌّ منا يأسف كثيرًا عندما يتوقف الآخر عن الكلام. عندما همَّ هانيس بالمُغادرة، قال إنه سيأتي قريبًا مرة أخرى – لم أفكر حتى في طلب ذلك منه، لقد أصبح مألوفًا جدًّا بالنسبة لي.

في المرة التالية جاء في المساء عندما كنتُ أحيك ثوبًا. قادته لِينتشيه، وهي تشعر بالانتصار، إلى غرفتي الفوضوية – وأراد هو أن يبقى هناك. فتحت له النافذة وجلس على كرسي المُتدرِّبة، التي قد ذهبت إلى منزلها منذ فترة طويلة. عندما بدأ الظلام يحلُّ، أردتُ إشعال الضوء لأتمكن من مواصلة الحياكة، إلا أنه أخذ الفستان من يدي.

وقال: «سيكون ذلك مُؤذٍ لعينيكِ».

لم تكن هناك حاجة للغضب، لأنه لم يفعل أي شيء آخر سوى ما أردتُ. ذهبتُ معه إلى الشرفة، وجلسنا هناك حتى الغروب

وانتهاء تلك الأمسية الصيفية المضيئة. في تلك الأثناء أصبح يناديني باسمي الأول، كما أخبرني الكثير عن نفسه.

كان في الخامسة والعشرين، بدا لي صغيرًا، لكنه كان سعيدًا لأنه لم يكبر ـ بل رأى أنه من الأفضل أن يظلَّ هكذا.

قال: «في غضون سنوات قليلة سيبدأ الخوف من الروماتيزم، كل زملائي الأكبر سنًّا يخافون منه. لكنني الآن لا زلتُ أجرؤ على النوم في خيمة، حيث إنني في نهاية كل أسبوع أُخيم خارج المدينة».

ثم قال إنه لديه غرفة صغيرة وضيقة، حيث إنه لا يستطيع تحمُّل نفقات مكان أفضل للإقامة، لأنه حصل على قرض لإتمام التأهيل كمُعلِّم تربية بدنية، وعليه سداده أولًا – سيتم سداده في العام المقبل، وعندها سيمكنه استغلال راتبه بالكامل.

سألته «إذًا ماذا ستفعل بكل تلك الأموال؟» فضحك ومدَّ ذراعيه وقال: «الذهاب في جولات بجبال الألب. وشراء مركب شراعي، عندها يمكنك مشاركتي في إحدى المرات؛ ولِينتشيه كذلك.»

قلتُ له إنني لم أتعلم السباحة مُطلقًا، عندها قال مازحًا لا بد أنني خائفة على بشرتي، لكنني عندما ودَّعته في وقت مُتأخِّر من الليل، صاح من على الدرج: «يجب أن تتعلمي السباحة في وقت قريب، قبل أن أحصل على قاربي. وإلا فلن آخذك معي».

وضحك – من قلبه وبارتياح كبير، كما كانت عادته. كان دائمًا يضحك هكذا، مثل الصبي السعيد.

وكنتُ سعيدة أيضًا، من دون تفكير تمامًا مثل الطفل ؛ وفي الأسبوع نفسه، اشتركتُ في دورة لتعليم السباحة، حتى أتمكن من ركوب القارب الشراعي، الذي لم يتمكن هانيس من شرائه إلا بعد فترة طويلة.

لم أجرؤ على إخباره، أنني سأبلغ الثلاثين من عمري بعد عام؛ وأن هناك أوقاتًا طويلة في حياتي أريد نسيانها.

أفهم أنني أردتُ نسيان هذا في ذلك الوقت. لكن كان عليَّ أن أنتبه، ما كان ينبغي أن أنسى أنني عشتُ طويلًا جدًّا. الآن فقط، وأنا أخبركِ بكل شيء، أدركتُ كم من الوقت مرَّ عليَّ وأنا على قيد الحياة. عندما جاء هانيس – كانت نصف حياتي قد انتهت بالفعل. لا أفهم كيف كان باستطاعتي نسيان ذلك.

في البداية فكرتُ في الأمر أحيانًا. لكن ليس في كثير من الأحيان، لم أجرؤ على ذلك.

كنتُ سعيدة وخائفة في الوقت ذاته. كان يمكنني أن أجثو على ركبتي من فرط الامتنان المطلق لأن هانيس كان على استعداد أن يحبني، لأنني رأيتُ ذلك – لم يكن الأمر سرًّا، لا بالنسبة له وبالطبع لم يكن كذلك بالنسبة لي أيضًا – ولكنني في الوقت ذاته

كنتُ خائفَة بشدة، من أنني قد أفعل ما يؤذيه.

يا إلهي، أيتها المُمرِّضة، كان بإمكاني أن أرى ما كان عليه – كان واضحًا جدًّا، وحقيقيًّا، وقويًّا، وشابًّا – كنتُ أرى فيه كل ما يمكن أن يجعلني أحبه – ولكنني كنتُ مختلِفة تمامًا.

لذلك قررتُ أن أخبره كيف أكون، وكيف كانت حياتي حتى ذلك الوقت – حقًّا، هذا ما قررتُه. لقد جربتُ ذلك ذات مساء – في فترة ما بعد الظهر، وقد نتفتُ أول شعرتين رماديتين من شعري – وكنتُ مُتأكِّدة تمامًا من أنني لم أعُد صغيرة بما يكفي لهانيس.

في تلك الأثناء أتى لبيتي عدة مرات، وأصبح يعرف طريقه في بيتي، حتى إنه يبحث بنفسه عن إبريق الحليب لعمل الشاي، ويضجر ويقول إن أشيائي غير مُنظمة.

قال عندما رأى الإبريق به باقة من الياسمين وموضوعًا على رف المَوْقِد: «قد تكونين ربة منزل غريبة الأطوار. إذا لم تُصبحي أكثر تنظيمًا، فلن يُسمح لك بالتخييم معي.»

ثم ضحك وانتظر ليرى ماذا سيكون ردي. لقد أثار هذا الموضوع عدة مرات، كما لو كان يقطع على نفسه وعدًا بأنه من المفترض أن نُخيم ثلاثتنا في المُروج خلال العطلة. لم أُعلق على الأمر من قبل.

لكن في ذلك المساء استمر في النظر إليَّ منتظرًا ردي. ظلَّ

هادئًا للغاية – لم يكن هانيس يتوتر أبدًا، كان بإمكانه الانتظار ليرى ما سيحدث؛ وحينها ظلَّ ينتظر إجابتي.

هززتُ رأسي، إلا أنني لم أستطِع التحدُّث. في الواقع، كان عليَّ حينها أن أشرح له لماذا لا أستطيع الذهاب معه، ولماذا لا أريد الذهاب معه لقضاء أيام الصيف المُشمسة والليالي المُرصعة بالنجوم وسط المُروج، كان عليَّ أن أوضح، لماذا لا أُعدُّ شريكة حياة مُناسِبة له. لقد وعدتُ نفسي مائة مرة بأنني سأقول كل شيء له، قبل فوات الأوان.

وفي ذلك المساء عندما كانت الفرصة الأخيرة لفعل ذلك، لم أستطِع التحدُّث.

وضعتُ رأسي على ذراعي وبكيتُ – سقطت دموعي الساخنة، هكذا يطلقون عليها في الأغلب، نعم، كانت مؤلمة. لم أستطِع النظر إلى هانيس – ثم شعرتُ فجأة أنه يحتضن رُسغَيَّ.

نظرتُ لأعلى ونظرتُ في عينيه الرماديتين الصادقتين – كانتا جادتين للغاية – وفكرتُ: أنتِ الآن بالفعل تسببين له الهمَّ.

قال: «أخبريني الآن»، وأمام نظرته الصادقة، بدأت في إخباره بكل ما استطعتُ في ذلك الوقت.

لكنني لم أخبره بكل شيء. بالتأكيد، ذكرتُ أسماء، ووصفتُ الأشخاص والأشياء، وقلتُ له بالترتيب، كيف سارت حياتي. لكن

كانت هناك بعض الأشياء التي لم يستطِع فهمها. رأيتُ ذلك في عينيه، ولم أتمكن من شرح أي شيء - لم أستطِع إخباره كيف عشتُ مع تشارلز.

كما أنني لم أستطِع أيضًا سرد الأشياء الصعبة التي مررتُ بها في حياتي اليومية أيام طفولتي - أتذكر ذلك الآن فقط. عندما رويتُ قصة حياتي، التي لم يكن يعرفها - حاولتُ أن أكون صادقة. ظلَّ ممسكًا برُسغَيَّ. ثم جذبني إليه. ونظر إليَّ قائلًا: «لذا سنرحل يوم 26 يوليو. تأكدي من أن يكون لديكِ الوقت عندئذ».

لقد فعلتُ كل ما استطعتُ؛ عملتُ بالليالي لجمع المال لرحلتنا أنا ولِينتشيه. ولكن بعد ذلك، كان المال جاهزًا، إلا أنني لم يكُن لديَّ الوقت – كما ظلَّت تراودني شكوك حول ما إذا كان ينبغي لي الذهاب معهما.

يا إلهي، لقد بذلتُ قصارى جهدي كي يكون لديَّ الوقت. أحيانًا كنتُ أُقْسِم لنفسي أنني لن أذهب معهما، وأن هانيس ينبغي ألّا يحبني بالحال التي كنتُ عليها- وأنني سأنتزع من داخلي الحنين العظيم والقوي له. لكنني عندما أراه كما هو – بهذا الرأس الأشقر المُستقيم القابع فوق تلك الرقبة القوية، والذراعين الأسمرَين من الشمس، اللذين كان بإمكانهما أن يصلا إلى أي شيء ويمسكا به كما يحلو لهما - فجأة يكون وميض برقٍ يضرب كل ما نويته، وأشعر بأن شيئًا واحدًا فقط يمكنه أن يجعلني حُرَّة – وهو أن

أريد أي شيء يريده هو.

لم أُصلِّ – وكيف عساي أن أصلي؟ – لم أعُد أعرف حتى أنه يمكن للمرء الصلاة. وجدتُ نفسي ذات مرة راكعةً على ركبتي أمام السرير – ضحكتُ وقمتُ – كان ذلك خطأ. كان عليَّ أن أقرر بنفسي ما إذا كنتُ أرغب في هانيس أم أنني أريد الاستغناء عنه.

الآن أعلم أنني عشتُ طوال الوقت، لأتمكن من البقاء مع هانيس. كثرة تفكيري ومخاوفي حجبا الحقيقة فقط – بدا جليًّا أن هانيس قد أصبح كل حياتي منذ فترة.

ومع ذلك لم أشعر وأنا في القطار في طريقنا إلى خارج المدينة بأنني حُرَّة بما يكفي لأكون له. جلس بجانبي، وأخذ يضحك، ويلعب مع لِينتشيه، بينما أحسب عدد أعمدة التلغراف التي نمُرُّ بها: زوجي أو فردي – لم أعرف ما إذا كان من حقي أن أحب هانيس.

نعم. أخشى أن أُلحق به أذى، وقد عشتُ طويلًا جدًا، مِن دون أن أعرفه.

في الأمسية الأولى، نامت لِينتشيه في الخيمة، وجلسنا فوق أحد التلال، وانتظرنا أن يسطع القمر فوق المُروج، التي تنحدر بلطف نحو حافة الغابة. لكن لم يكن هناك قمر في تلك الليلة، بل كان هناك عديدٌ من النجوم الساطعة. نظرنا أولًا إلى الأعلى معًا، ثم

أدرتُ وجهي إليه، ورأيته يبتسم في سماء الليل العريضة والرائعة – أسندتُ رأسي على كتفه، ووضع يده فوق صدري.

لم ندخل إلى الخيمة في تلك الليلة – عندما سمعنا صوتًا عاليًا فجأة، نحيتُ القماش المُشمع جانبًا بعناية، وتأكدتُ من أن لِينتشيه لا تزال نائمة أيضًا. ثم عدتُ إلى هانيس مرة أخرى.

هل سبق لكِ أن رأيتِ غابة تنتظر شروق الشمس؟ إنها تقبع هناك في الهدوء والظلام، يمكنكِ أن تستشعري برودة الجو تحت الأشجار. وبعد ذلك، وفجأة، تضحك قمم الأشجار، يغمرها الشفق، ويتحوَّل كل شيء إلى اللون الذهبي، وتتخذ الأشجار أشكالًا، وتتدرج ظلالها لتغطي جميع درجات اللون الأخضر.

هكذا رأيتُ الشمس تشرق فوق الغابة – وأيضًا على وجه هانيس عندما كنتُ ذائبة فيه تمامًا.

الآن يجب ألّا أقول أي شيء آخر. لا أستطيع أن أقول كيف كان الأمر مع هانيس، لا توجد كلمات يمكنها أن تصف ذلك. لا أريد حتى أن أخبر الرَّب – لن أضطر حتى لأخبره هو نفسه، كان يعلم: لا يمكن أن يكون هناك شيء أجمل في العالم. ستبقى ذكرى ذلك معي طيلة العمر، الذي سأضطر إلى قضائه في الجحيم.

نعم. هناك حُبٌّ، وهو يعيش. في المدرسة كان عليَّ أن أتعلم الكثير من النصوص حول الحُبِّ، لم أكن أفهمها أبدًا – لم يكن

بإمكاني أن أحب المُعلِّم بصوته الرتيب، ولا الطفل الجالس بجواري الذي كثيرًا ما كان يخزني بالدبابيس. لا أعتقد أن هناك أي شخص يستطيع ذلك حقًّا - بغض النظر عن مقدار ما كُتب عنه في الكتب، لا أعتقد أن يسوع ذاته، سيحب هذا المُعلِّم إذا وجب عليه أن يجلس أمامه يوميًّا لمدة ست سنوات.

فقط من خلال هانيس، علمتُ أن هناك حبًّا حقيقيًّا في العالم. أن يقبل المرء العالم بأسره، لأن الحُبَّ ينتمي أيضًا إلى هذا العالم. خلال أسابيع الإجازة الصيفية التي قضيتها معه - في المُروج الأرجوانية المزهرة – شعرتُ، ورأيتُ، وعرفتُ الحُبَّ لأول مرة.

خلف حافة المُروج يمكنكِ أن تري العشبَ الأخضر – وكثيرًا ما كنا نقف لننظر من هناك إلى الأراضي الدنيا. في وسط مرعى مُحاط بالسياج، كان هناك شجرة زان قديمة وضخمة وعالية - ربما قد زرعها مُزارِع في وقت ما؛ لتجد الماشية مكانًا ظليلًا لها. وفي الأيام الحارة، تبقى الأبقار الحمراء والبيضاء قريبة من ساق تلك الشجرة، التي شكَّلت أغصانها وأوراقها سقفًا أخضر فوق العشب الأخضر - لا يمكنكِ تخيل المكان مِن دون تلك الشجرة.

تمامًا مثلما لم يعُد بإمكاني تخيُّل العالم مِن دون هانيس - لقد تَوَّج حياتي مثل تلك الشجرة الرائعة، وفكرتُ أنه الآن يمكنني أخيرًا أن أرتاح في ظله.

ابتسمتُ دائمًا بهدوء عندما رأيتُ شجرة الزان تلك، وخاصة

بعد تفكيري في الأمر بتلك الطريقة. لكنني لم أستطِع أن أبتسم في وجه هانيس بتلك الطريقة نفسها – عندما كنتُ أنظر إليه، كانت نظراتي تتَّسِم دائمًا بالجدية، شعرتُ بهذا دائمًا. لأول مرة مررتُ بتجربة أن المرء يمكنه أن يلهث من الجدية والسعادة في الوقت ذاته.

هكذا أحببتُه – هكذا رقدتُ بين ذراعيه، هكذا استوعبتُ كل حركة قام بها، في أعماق جسدي وروحي – حتى لم يعد لديَّ المزيد من اليقين، باستثناء حقيقة واحدة تامة: هذا هو الحُبُّ – نحن معًا.

عندما عُدنا إلى المدينة، تبيَّن أن هانيس لن يعيش بمفرده في غرفته الصغيرة المستأجرة. لقد أثثتُ له الغرفة الخلفية الكبيرة التي كانت فارغة. اشترينا معًا كل ما احتجناه لتأثيثها – سرير وكرسي وحوض استحمام من الزنك. قمتُ بالطلاء فوق القماش القطني المربعات الأحمر، الذي أستخدمه لحياكة الستائر، وكنتُ سعيدة.

كان الشتاء التالي هو أول شتاء نجلس فيه ثلاثتنا إلى الطاولة في المساء، أنا وهانيس ولِينتشيه. أعتقد أن لِينتشيه قد فهمت تمامًا انتمائي أنا وهانيس بعضنا إلى بعض – فهي لم تتفاجأ أبدًا عندما يمدُّ يده ليتحسس يدي. تقضي معظم وقتها في القراءة أو تستذكر دروسها، لم يكن الاستذكار سهلًا عليها، لكنها

عملت دائمًا باجتهاد. لقد أحببتُ حياتنا الهادئة المكونة من ثلاثة أشخاص، وهي بالتأكيد لم تكن تغار أبدًا لأنني لم أعُد أعتني بها بمفردي، بل إنها استمتعت كثيرًا بأن هانيس أصبح يعيش معنا.

كلما سمعَته يغني في غرفته كل صباح، كانت ترفع إصبعها لتُشير إليَّ كي أستمع أنا أيضًا. وقالت أيضًا إنه يغني خلال دروس الجمباز دائمًا عندما يعزف على البيانو لمُصاحبة التدريبات الإيقاعية.

ذات مرة عندما ذهبتُ لآخذها من المدرسة، قادتني إلى صالة الألعاب الرياضية حيث وجدنا الأولاد يتلقون دروسهم. وقفنا تحت النوافذ، وسمعت هانيس يطلق أوامره بصوت عالٍ، اهتزَّت النوافذ من صوته – ثم بدأ في عزف إيقاع المَسير على البيانو، وسمعتُ صوته القوي يُحلق في عنان السماء.

كان من الرائع الوقوف هناك والاستماع، شعرتُ بسعادة كبيرة لدرجة أنني اعتقدتُ أن دمي يجب أن يشاركه الغناء. ولِينتشيه التي وقفت إلى جواري، ظلت تقفز صعودًا وهبوطًا من الفرح.

نعم. جلب هانيس معه دائمًا سعادتَه وحبَّه للحياة أينما حلَّ وذهب. لم يُدرك ذلك – لم يعلم بأي شكل من الأشكال أنه يجعل الآخرين سعداء، ولم يهدف لذلك أبدًا، إلا أنه كان هكذا وحسب. لم يمكنه العيش مِن دون أن يكون سعيدًا.

لم يرَ أيضًا أي صعوبات على الإطلاق. بعد أن سكن معنا لعدة أسابيع، وجدتُ يومًا بيانو كبيرًا جميلًا يضعونه أمام المنزل في الصباح. علمتُ أنه لا بد أن يكون من أجله – أنا لم أفكر في البيانو مُطلقًا، لا أستطيع العزف، ولا أكسب ما يكفي لدفع ثمن دروس خاصة في العزف لِينتشيه. لم يكن هانيس كذلك يملك المال الكافي لمثل هذه الآلة الباهظة الثمن أيضًا، كنتُ أعرف ذلك جيدًا.

ومع ذلك، فقد اشترى البيانو. بالتقسيط بالطبع – فقط لأنه لم يعُد يستطيع الحياة مِن دون بيانو أكثر من ذلك.

قال «كان لدينا بيانو في كلية المُعلِّمين. أقمتُ حفلات موسيقية كاملة على الجهاز القديم، لكن لم يعزف عليه أحد سواي، وكان الآخرون يرون أنه عليكَ كمُدرِس أن تتعلم ما يكفي، أي أن الموسيقى غير مهمة بالنسبة للمُعلِّم. الآن لديَّ هذا الشيء المُذهِل في المدرسة أيضًا، إنه يُشبه صوت الكتابة على الآلة الكاتبة، وأنا أستخدمه فقط لأنني تعبتُ من الضرب الرتيب بالعصا. هذا البيانو من أجل سعادتي فقط وسعادتكم أيضًا. سوف أقوم بتعليم لِينتشيه الكثير من الأشياء المُمتعة. أريني يديك يا لين!»

كان جالسًا بالفعل إلى البيانو وكان هناك دوي – أيدي الرجال تضغط على المفاتيح بشكل مختلِف عن أصابع النساء التي تعزف بحذر. نظرت لِينتشيه بتوتر، ولم تحرك ساكنًا. ثم أخذها بين ركبتيه، ووضع يديها على البيانو.

لم أجرؤ على سؤاله عن الكيفية التي سيقوم بسداد قيمة الآلة بها. لم أرغب في الظهور بمظهر الأكبر منه أو الأكثر عقلانية منه – لكنني في بعض الأحيان قمتُ بسداد أحد الأقساط، عندما كنتُ مُتأكِّدة من أنه لا يملك المال الكافي لسداده، كنتُ مُمتنَّة جدًّا لأنني أتمكن من الاستماع إلى موسيقاه في الشقة في أثناء قيامي بالحياكة. في العام التالي كان لديه مال، لذلك قام بسداد القرض، وأصبح راتبه مُتاحًا له بالكامل. حصل هانيس على دخل لائق، حيث قام بالتدريس في مدرسة شعبية حكومية ومدرسة ثانوية عُليا، كما قام بتدريب الجمباز النسائي في اتحاد رياضي كبير.

في المساء، الذي أصبح فيه قادرًا على الاحتفاظ بأجره الشهري لنفسه لأول مرة، وضع الأوراق النقدية الجديدة الجميلة بعضها بجانب بعض أمامي على المنضدة، وقام بفردها والنظر إليها.

قال: «إذًا، سنقوم الآن بغزو العالم.»

سألته «كيف تريد أن تفعل ذلك؟ في قاربك الشراعي؟»

ضحك ومدَّ ذراعيه – كما هو الحال دائمًا عندما كنتُ أتحدث معه كصبي. ثم قال: «انظري إليَّ.»

فعلتُ ما طلبه مني، ونظرتُ إلى عينيه، ورأيتُ أنه رَجُلي – كان عليَّ أن أُنحِّي عملي جانبًا. وقال: «سنتزوج بهذا المال، ثم ننجب أطفالًا.»

وهنا انطلق بداخلي شعاع عظيم من السعادة – وألقيتُ بنفسي على صدره وبكيتُ، لأنني سمعتُ كيف ينبض قلبه بشدة عند أذني. ما زلتُ أتذكر مدى سعادتي التي لا تُوصف، حتى ذُقتُ طعم دموعي المالحة، وسألتُ نفسي، عما إذا كنتُ أبكي فقط من فرط السعادة.

نعم. ثم شعرتُ عندها أنني أبكي من الخوف أيضًا.

لقد كان أمرًا فظيعًا – غريبًا وفظيعًا، كوني لا يمكنني أن أصبح سعيدة أبدًا مِن دون خوف. خفتُ عندما لاحظتُ أن هانيس قد أحبني، والآن بعد أن طلب الزواج بي، شعرتُ بخوف رهيب مرة أخرى – ما زلتُ أخشى أن أجعله تعيسًا.

في تلك الليلة سألته: «لماذا تريد أطفالًا مني؟»

قبَّل ما بين عينيَّ، ولم يقُل أي شيء في البداية. لكن لأنني انتظرت الردَّ، قال: «لا أريد منكِ أي أطفال، أيتها الفتاة الغبية، أنا أريد أطفالًا مني معكِ».

ثم أخبرتُه قليلًا عن خوفي – لم يكن لدي أطفال من تشارلز من قبل.

سحبني تجاهه وقال، «لقد كان رجلًا عجوزًا. سيكون لدينا أطفال على أي حال».

لقد كان واثقًا تمامًا من نفسه ومني أيضًا – بهدوء وثقة بأننا

سنتزوج ونُكوِّن أسرة مع أطفالنا، حتى جعلني أثق في حدوث ذلك لفترة من الوقت.

لذلك تزوجنا، ومرَّت بضع سنوات قبل أن أُدرك أنه ما كان يجب أن أثق في حدوث ذلك تمامًا. كان عليَّ أن أُدرك الأمور بشكل أفضل – كنتُ أكبر من هانيس، وكان يجب أن أكون أكثر عقلانية منه، وأن أثنيه عن التفكير في هذا. لم يتوجب عليَّ أن أقبل ما قاله كما هو – كم كان يتوقع كل شيء سعيد في هذه الحياة! – كان صغيرًا جدًّا، وصريحًا جدًّا، ومُستقيمًا جدًّا بالنسبة لي – لقد ألحقتُ به الأذى.

يا إلهي، كان هذا هو ذنبي الكبير – لم ينبغِ أن أَقبله بأي حال من الأحوال، عندما مُنِح لي.

لكن مَنْ منحه لي؟ مَنْ وضعه أمامي حتى أصبحتُ أشتاق إليه؟ كان من الممكن أن أعيش وأموت مِن دون أن أعرفه على الإطلاق – لماذا اضطررتُ إلى تجربة هذه السعادة العظيمة مع هانيس أولًا، هل فقط لأُحرَم منها بطريقة بشعة في وقت لاحق؟

كلا. إنه ليس خطأي. لو مُنِح لأي امرأة غيري لقبلَتْه – ولم تكن واحدة منهن لتتنازل عنه أبدًا.

باستثناء لِينتشيه، فقد أرادت الاستغناء عنه...

أعطني يدكِ، أيتها المُمرِّضة، تمسكي بيدي – لا يمكنني

التفكير في لِينتشيه على هذا النحو، لا أستطيع التفكير على هذا النحو مُطلقًا، لستُ بحاجة إلى الشعور بالأسف - لقد اعتنيتُ بها وربيتُها، ومع ذلك فقد استمرت في اشتياقها لهانيس، حتى وإن أرادت الاستغناء عنه.

آه، أيتها المُمرِّضة، لا تتركيني – لم أعُد أعرف طريقي بعد الآن. كل كلمة أقولها تشير إلى طريق مختلِف، لقد فقدت الوِجْهة تمامًا – حتى إنني لم أعُد مُتأكِّدة ما إذا كانت أيضًا مُذنبةً.

نعم. ومع ذلك لا بد لي من الاستمرار. كل كلمة أقولها، تعني شيئًا ما – يجب عليَّ أن أجد أيضًا معنى للنهاية الأخيرة.

استغرق الأمر بضع سنوات، قبل أن أتأكد من أنني كنتُ أؤذي هانيس.

بقينا سعداء بعضنا مع بعض - حتى ولو لم نسعد بجنون كما كنا في البداية. إلا أن هانيس ظلَّ هادئًا وسعيدًا بي وبحياتنا معًا. ظلَّ يقوم بعمله ويستمتع به، كما ظلَّ يقوم أيضًا بالكثير من النشاط الرياضي. حتى إنه في ذلك الوقت فاز ببطولة في مسابقة دولية للعَدْوِّ.

بدا رائعًا وهو يركض فوق شريط القطار تحت الشمس، وقبضتاه أمام صدره، وشعره ينطلق في مهب الريح ، كنتُ فخورة للغاية أنه زوجي، ومُمتنَّة جدًّا لحبه لي.

إلا أنني اختبأتُ خلفه قليلًا في الصورة الصحفية التي التُقطت لنا بعد البطولة، – كنتُ أخجل كثيرًا ذلك الحين.

نعم، بدأتُ أخجل من الناس. وكذلك من هانيس. شعرتُ بالخجل الشديد لأنه لم يكن لديَّ أطفال. عندما يوقفني أمامه ويضع يديه على كتفي، أشعر بالخجل من جسدي الجميل النحيف غير النافع، وغير المُثمِر.

بالطبع، لم يكن لدى هانيس أدنى فكرة عن سبب عدم تمكني من النظر إليه في عينيه الصادقتين في أثناء تقبيله لي – فالرجال ليس لديهم إحساس بمثل ذلك الشيء. ربما كان عليَّ أن أخبره، لكنني لم أستطِع، شعرتُ بضآلتي، وبأنني مُثيرة للشفقة.

كنتُ على استعداد لمنح هانيس كل شيء – وبالفعل أعطيتُه كل ما بوسعي، اعتنيتُ به وبشقتنا، أعددتُ مفاجآت صغيرة من خلال وضع شيء مُميز على الطاولة أو شراء ملابس له، واعتنيتُ بنفسي لأظهر دائمًا بأجمل صورة مُمكنة. لكن لم يكن هذا ما توقعه مني – لقد أعطيتُه كل هذا حتى قبل زواجنا، ولكن المرء لا يتزوج لهذا السبب فقط – علمتُ أنه اتخذني زوجة بسبب إنجاب أطفال لنا في المستقبل. وهذا ما لم أتمكن من منحه له.

حتى وإن جلبتُ له العالم كله بين ذراعي، فإنني لم أستطِع أن أمنحه مُجرد طفل.

نعم بالفعل، لم يكن ذلك أمرًا غير مُعتَاد، بالطبع، كان هناك الآلاف من الأزواج الذين لم ينجبوا أطفالًا – ولا توجد حاجة حتى للبحث عن السبب؛ لأنه عادةً لا يوجد سبب. ثم يعتاد مُعظم الناس على ذلك، ويقولون فيما بعد أن الأطفال هم في الأساس مُجرد عبء.

إلا أن الأمر لم يكن كذلك مع هانيس. هل تفهمين، لقد درَّس للكثير من الأطفال كل يوم، ولطالما أخبرني عن أشياء مُضحكة، ومواقف تحدث معهم. أحبَّ اللعب مع الأطفال، وكان مُولعًا بأطفال الجيران الصغار القاطنين بالطابق العلوي، وكان يتركهم يمارسون الحيل على كتفيه، وأحيانًا يتركهم ليلتقطهم قبل السقوط – كان الأطفال يحبون ذلك، و لم تكن أمهم تخشى عليهم، كان هانيس يشع بالأمان على مَنْ حوله.

في وقت لاحق، عندما تأكد أننا لن ننجب أطفالًا، اشترى كلبًا، من نوع الشيفر الألماني، وعلَّمه القفز وجَلْب الأشياء. كان من المُؤثِّر رؤية تعلُّق عيون الكلب البُنيَّة به أينما ذهب وحلَّ، كما تتبَّع خطواته في الشارع. وعلى الجانب الآخر، أُغرم هانيس بالكلب؛ اعتاد أن يجلس على كرسيه ذي الذراعين، ويرقد تشيور تحت ساقيه، ثم يترك يده تتدلى من فوق مسند الذراع، فيعرف تشيور أنه يمكنه أن يلعقها.

هناك عدد غير قليل من الناس الذين ليس لديهم أطفال يربون

الكلاب. إلا أن هذا لا يساعدهم تمامًا.

ذهبنا يوم الأحد، بعد أن تناولنا طعام الغداء، إلى الحديقة، حيث ترك الأطفال قواربهم الصغيرة تنطلق فوق مياه البركة. جثا صبي صغير على ركبتيه على شاطئ البركة، ونظر ليرى ما إذا كان قاربه يسير فوق الماء. وكان أبوه يقف خلفه، وبدا راضيًا، كما هو مُعتَاد لدى الآباء عندما يقومون بأي نشاط مع أبنائهم أيام العطلة الأسبوعية.

ترك هانيس تشيور يسبح؛ وألقى العصا، التي كان على تشيور أن يجلبها، بعيدًا في الماء. عاد الكلب وهو يحملها، وزفر بعمق، بعد أن بذل جهدًا كبيرًا. إلا أنه في مُنتصَف الطريق، ترك العصا وأمسك بالقارب الصغير الخاص بالطفل بدلًا منها.

بكى الطفل، وصاح الأب. وقف هانيس بلا حِراك على ضفة البركة، وعندما خرج تشيور من الماء بلعبة الطفل، ووضعها أمام هانيس، أخذ الأخير سوط الكلب، الذي لم يكن قد استخدمه أبدًا، وضرب تشيور، حتى زحف الأخير نحوي وهو يئن.

وهنا بدا واضحًا جدًّا بالنسبة لي ولأول مرة أن هانيس كان حزينًا.

عندما تصفَّح الصحيفة في ذلك المساء، لاحظتُ أن عينيه لم تكن تتبع السطور. فذهبتُ إليه وقبلتُ يده. فملس على شعري،

ولكن مِن دون أن ينظر إليَّ.

نعم، كانت تلك أمسية واحدة - المرة الأولى - وبعدها مرَّت أشهر لم نفكر فيها بأي شيء، حيث كنتُ سعيدة فقط بوجوده، وبجسده القوي الشاب - وبحقيقة أنه أحبني كثيرًا، كما ينبغي أن يكون مِن دون الكثير من التفكير. ولكن بعد ذلك جاء عيد القديس نيكولاوس، وكان الجميع هناك يحمل الهدايا، وسأل جيراننا في الطابق العلوي عما إذا كان هانيس يمكنه أن يقوم لديهم بدور القديس نيكولاوس.

بالطبع فعل هذا، واعتنيتُ بتنسيق الزِّيِّ الذي سيرتديه. كان نيكولاوس وسيمًا، وعريض المنكبين، ذا لحية مُجعَّدة. رقصت لِينتشيه حوله من فرط سعادتها واستمتاعها - وتوقفَت فجأة ونظرَت إليه وقالت: «هانيس، تبدو جدًّا رائعًا.»

في اللحظة التالية صُدمتُ من كلماتها، وقد بلغت الخامسة عشر من عمرها بالفعل.

صعدنا إلى الطابق العلوي للاحتفال بنيكولاوس مع الجيران. جلس الأطفال الثلاثة في حجر هانيس، وهم يرتدون أردية أطفال بيضاء من قطعة واحدة، وغنوا له بأصوات لطيفة ومُزعجة. وعندما مسح على رؤوسهم، رأيتُ، لقد شعر بالملمس الحريري لشعر الأطفال الصغار.

بعد ذلك المساء، استغرق الأمر وقتًا أطول حتى أنسى أنه لم يكن ينبغي لي أن أتزوج هانيس.

نعم. هكذا بدأ الأمر برمته. وهكذا استمر الحال. وفي كل مرة، عندما كنتُ ألاحظ افتقاد هانيس للأطفال الذين كان يستحقهم، كنتُ أشعر بالذنب أكثر.

إلا أنه ربما لم يستاء مني أبدًا بسبب ذلك. مَنْ يعرف؟ من المُحتمل جدًّا أنه شعر بالأسف من أجلي – على أي حال، لم يلُمني أبدًا.

إلا أن الخوف قد بدأ ينمو بداخلي تدريجيًّا. ظهر مُجددًا خوفي القديم من أنني قد أؤذي هانيس، وأدركتُ أن هناك ما كان يبرره. شعرتُ بالذنب لعدم الاستماع إلى مخاوفي من البداية.

ثم أضفتُ إلى هذا الخوف خوفًا جديدًا، ألا وهو خوفي من عدم تمكني من الاحتفاظ بهانيس.

آه، لقد مرَّت سنوات قبل أن يحدث ذلك؛ كنتُ أحارب خوفي. إلا أن ذلك لم يفلح، كان يعود دائمًا، خاصة في لحظات غير مُتوقَّعة تمامًا.

كنتُ في الرابعة والثلاثين من عمري، ولِينتشيه في السادسة عشر، عندما اكتشفتُ التجاعيد الأولى حول عيني. وقفنا سويًّا أمام المرآة – كانت تلك هي لعبة قديمة ألعبها مع لِينتشيه، وكانت

تطلق عليها «التقاط الصور»، وكنا نلعبها سويًّا عندما انتقلت للعيش معي في منزل تشارلز. كنا نضع رؤوسنا جنبًا إلى جنب، وكان هذا يبدو لطيفًا، رأس أشقر بجانب رأس أسود، ثم كنا نتصنع وجوهًا للتصوير.

يا له من أمر مُضحك!، الآن تخطر ببالي بياض الثلج وزوجة أبيها الشريرة. لطالما كنتُ مقتنعة دائمًا، أنني الأجمل. إلا أنني رأيتُ في ذلك اليوم فجأة تجاعيد حول عينَي. كما كان هناك خط رفيع بين الحاجبين – لقد قمتُ بتنظيفه، ولكنه بقي، مما جعل جبهتي تبدو غير سعيدة.

ثم نظرتُ إلى وجه لِينتشيه. كانت لا تزال مثل السمكة الصغيرة، فمها كبير قليلًا، وخديها ضيقان جدًا. لكنها كانت ذات عينين زرقاوين فاتحتين للغاية، وكانت جبهتها ناعمة تمامًا، تُحيط بها خصلات من الشعر الأشقر.

في المُعتَاد، كنا نضحك دائمًا بعضنا على بعض في أثناء التقاط الصور في المرآة، لكنني في تلك المرة لم أشعر بالرغبة في الضحك، كان عليَّ أن أستمر في التدقيق. كانت لِينتشيه تزداد جمالًا كل عام – أما أنا فلم يكن بإمكاني سوى أن أصبح قبيحة.

لم أكن أغار منها، كلا بالطبع؛ كنتُ أعلم أنه لا يمكن أن يصبح الأمر خلاف ذلك – كانت لا تزال طفلة، وكنتُ قد أصبحت امرأة بالغة منذ فترة طويلة. لكنني منذ ذلك الحين، عشتُ في خوف

دائم، وأدركتُ أنني أتقدم في العمر يومًا بعد يوم، وأن هانيس لابد وأن يلاحظ ذلك يومًا ما.

كلا، الغيرة شيء آخر. لم أكن أشعر بالغيرة أيضًا من فتيات النادي الرياضي، اللواتي كنَّ يمارسْنَ رياضة الجمباز مع هانيس، ويقفزْنَ فوق حصان القفز ليلتقفهنَّ هو بين ذراعيه – كنتُ أخشى أنه في يوم من الأيام قد يلاحظ مدى صغر سنهنَّ، ومرونتهنَّ، ومدى تماسك أذرعهنَّ النحيلة. – ثم سيدرك في نفس الوقت أن جسدي قد ترهل بالفعل.

كان هذا هو سبب بؤسي. كنتُ قد فقدت هانيس بالفعل، قبل وقت طويل من الاضطرار إلى الاستغناء عنه، كنتُ أعرف بالضبط كيف ستسير الأمور معنا، لقد عانيتُ من كل شيء مائة مرة قبل أن يصبح حقيقةً.

وكان عليَّ ألا أجعله يلاحظ أي شيء. كان هذا هو ما عشتُ من أجله في ذلك الوقت – يجب ألا يلاحظ هانيس أي شيء، كما كنتُ أعتقد، يجب ألا يلاحظ أيًا من مخاوفكِ، ولا يجب أن يلاحظ كيف تكبرين، ولا يمكنكِ أن تجعلينه تعيسًا أبدًا.

نتفتُ شعراتي الرمادية الواحدة تلو الأخرى، كما أزلتُ الشعيرات من فوق شفتي العليا بعناية بملاقط صغيرة، وذهبتُ لتدليك وجهي وجسدي، وأخذتُ حمامات كهربائية – إلا أن التجعُّد الموجود بين حاجبي أصبح أعمق. هنا بدأت في وضع مساحيق

التجميل بعناية.

في البداية سخر مني هانيس لهذا السبب، ثم أصبح يُحدق فيَّ لاحقًا كثيرًا في دهشة – وقال لي في إحدى المرات: «أزيلي تلك الأشياء عن وجهكِ»؛ لكنني لم أجرؤ على التوقف عن فعل ذلك، لأنني كنتُ سأبدو من دون مساحيق التجميل في السن الحقيقي الذي كنتُ فيه.

لطالما حرصتُ على أن أرتدي ملابس جيدة، لكنني الآن كنتُ صعبة الإرضاء فيما يخص مظهري، فقد صنعتُ مشدَّات الجسم بقياس مخصوص، وقمتُ بحياكة ملابس داخلية حريرية ناعمة لنفسي. كما كنتُ أحرص على أن تبدو شقتنا رائعة دائمًا، فهي أنيقة ومؤثثة بشكل مريح، بها مصابيح مُظللة، وكراسٍ مريحة بذراعين، وكنتُ أراها قبيحة، إلا أن هانيس كان يحب التمدد عليها في أثناء تدخينه لسجائره؛ أما ما تبقى من نفقات الأسرة فقد كنتُ أنفقها على السلع الكمالية. بالنسبة لهانيس لم يكن مُحيطه يعنيه بشكل خاص، إلا أنني كنتُ أرغب في الحصول على منزل يرغب في العودة إليه، كنتُ أضع مفارش بيضاء، وأزهارًا نضرة على المنضدة، واشتريتُ غطاء مصباح بلون السلمون الوردي للمصباح الليلي الذي يقف على المنضدة إلى جوار سريري.

ومع ذلك كنتُ خائفة على الدوام، حتى أنني لم أكن سعيدة

بين ذراعي هانيس، كنتُ أعرف أنني أكبُر في السن، قبل هانيس. وأنني سأموتُ، إذا تركني أو ابتعد عني.

لكنني لم أرغب في أن أموت. أردتُ أن أعيش وأكون سعيدة. كنتُ أعرف كيف تبدو السعادة، كان عليَّ فقط التفكير في السنوات الأولى مع هانيس - لم أكن بحاجة إلى الجنة. كان هانيس يكفيني.

كان لديَّ الكثير من الوقت للتفكير. كنتُ أُنهي شؤون المنزل في الصباح الباكر، ولم يكن لديَّ ما أفعله سوى انتظار هانيس ولِينتشيه.

لم أقُم بالحياكة للآخرين منذ فترة طويلة، كان ذلك سيجعل المنزل غير مريح، كما أن هانيس لم يرحب بعملي على أي حال. علاوة على ذلك، فقد كان يكسب أكثر مما هو كافٍ لثلاثتنا، حتى أنه كان من الممكن أن يعول عائلة أكبر بسهولة.

عندما كان في المدرسة، ولم يكن لديَّ ما أفعله في المنزل، كنتُ أحيانًا أستلقي على أريكتي، وأفكر فيه وفي سعادتنا المُشتركة المُشرقة العظيمة التي كنا نحظى بها في الماضي. ثم أتساءل، أين ذهبت تلك السعادة. عندما كنتُ أفكر في الأمر لفترة طويلة، وأعود إلى الذكريات، كنتُ أحيانًا أنسى أنني قد فقدتُها بالفعل، وأشعر وأرى كل ما كان يحدث من قبل، وأحيانًا أحلم بكامل سعادتي، أحلم وعيناي مفتوحتان.

إلا أنني بعد ذلك كنتُ أستيقظ على الواقع، وأشعر بصدمة رهيبة. غالبًا ما كان سبب عودتي للواقع هو الضجيج اليومي، أو صوت الترام، أو صوت آلة التنبيه القادم من إحدى السيارات، أو نداء جامع الأشياء القديمة في الشارع. ثم كنتُ أنظر إلى الساعة، فأرى أنني قد غرقتُ في أحلامي لساعات، وأدرك حينها، أنه على الرغم من أنني أستطيع تخيل الوقت الماضي، إلا أنه قد مات في الواقع منذ فترة طويلة.

ثم كنتُ أقفز وأجثو على ركبتي أمام الديوان؛ واضعةً يدي أمام وجهي، وكنتُ أفكر في يأس إذا لم يكن هناك أي شيء آخر أتمناه. أردتُ أن أكون سعيدة في الوقت الحالي، وليس في الماضي – لا يمكن أن يكون الأمر أنني قد عشتُ بالفعل كل السعادة التي سأحظى بها في حياتي. أردتُ استعادة تلك السعادة، لأنني كنتُ أعرف أنه لا يوجد شيء آخر في العالم، يمكنه أن يجعلني سعيدة بعد الآن.

في ذلك الوقت كنتُ لا أزال أحاول الصلاة، من أجل أن يساعدني الرَّب – في كل مرة جثوت فيها على ركبتي، لم أعرف بأي حال ماذا يمكنني أن أفعل، ولم أستطِع سوى الصلاة. ربما لم تكن تلك هي الصلاة بالمعنى المُعتَاد – لم يكن بإمكاني التسول أبدًا، وكان من الصعب عليَّ كذلك أن أشكر. لكنني دعوتُ الرَّب، وتحدثتُ معه، وكشفتُ له كل فِكَري، بما في ذلك كل الأعمال والرغبات والمخاوف والتناقضات – وعندها أدركُت أن كل ذلك قد نَتَج عنه

شيء غريب غير مُكتمِل. ظلَّ لديَّ أمل في أن يهتم الرَّب بحياتي يومًا ما، ويرتبها حتى يكون لكل شيء مكانه المناسب – اعتقدتُ أن الرَّب يمكن أن يفعل ذلك، وانتظرتُ يده لتقوم بعملها.

لكن الرَّب لا يفعل شيئًا كهذا – أو أنني لم أنتظر بما فيه الكفاية.

نفد صبري، وأردتُ أن أخبر الرَّب. كنتُ أعلم أنه يمكن أن يساعد الناس – لقد علمونا ذلك، كنتُ أعرف أن هناك أشخاصًا أسعدهم الرَّب. لذلك طلبتُ وصرختُ وتضرعتُ – أحيانًا بكلمات قاسية وشريرة، قلتها بصوت عالٍ لأتمكن من سماع نفسي – لقد عاتبتُ الرَّب على عدم قدرته على تحرير شخص عادي من مشاكله العادية، ورأيتُ أن أسوأ جَرَّاح في العالم يفعل للناس أكثر من الرَّب، الذي خلق العالم.

ولكن بعد ذلك استولى الحزن الشديد على قلبي فجأة، ثم لم يصبح لديَّ سوى الرغبة الشديدة في أن يشرح لي الرَّب نفسي والعالم، فانزلقتُ على ركبتي على الأرض، وضغطتُ وجهي بين يدي، وصرختُ مُناديةً الرَّب كما لم أنادِ هانيس من قبل.

لكن حتى بعد هذا لم يأتِني الجواب.

ذات صباح نهضتُ من جثوتي على ركبتيَّ وأنا أبكي. ذهبتُ إلى الحمام لأغسل وجهي، وأضع مسحوق التجميل مُجددًا، وأقسمتُ لنفسي أن تلك هي المرة الأخيرة التي أجثو فيها على ركبتيَّ.

لطالما دعوتُ الرَّب لفترة كافية – لم يكن يستمع إليَّ – ربما لا يفهمنا نحن البشر على الإطلاق.

عندما جلستُ هناك إلى منضدة التزيين الخاصة بي بالحمام، ووضعتُ كريم الإزالة على جفوني، رأيت فجأة يد أبي اليُمنى بإصبعين مرفوعتين أمام عينيَّ المُغلقتين، رأيتُ ذلك رؤية جلية، وتذكرتُ الجملة، التي قال الجزء الأخير منها في ذلك المساء، عندما تشاجرتُ معه، من أجل ترك المنزل، تمتمتُ قائلة: «مزمور 1، الآية 6: «أَنَّ الرَّبَّ يَعْلَمُ طَرِيقَ الأَبْرَارِ، أَمَّا طَرِيقُ الأَشْرَارِ فَتَهْلِكُ»»

أُصِبتُ بصدمة رهيبة في البداية – اعتقدتُ أن تلك هي إجابة الرَّب. لكنني فكرتُ بعد ذلك في أن الرَّب لم يكتب المزمور بنفسه، وأن أبي كان مُنافقًا وأنانيًّا – ضغطتُ على أسناني، وواصلتُ تدليك الكريم على جفني وجبهتي وذقني، حتى أصبحت بشرتي غير مُلطَّخة وساخنة. وعندما أصبح وجهي باردًا مرة أخرى بعد وضع المساحيق، نظرتُ هادئة في المرآة، ورأيتُ نفسي، مسحتُ فوق وجهي ورقبتي وفكرتُ قائلة: لقد انتهى ذلك، الآن لن أخاف من تلك الفزَّاعة أكثر من ذلك. إذا أراد الرَّب أن أستمع إليه، فعليه أن يتحدث معي أولًا.

ثم جاء ذلك القِس.

لا أدري لماذا أحكي هذا الآن، الأمر برمته لا يعنيه. لم يأتِ القِس بسببي، بل جاء بسبب لِينتشيه.

حضرت لِينتشيه دورة لتأهيل المُعلِّمين، فقد أرادت أن تقوم بالتدريس هي أيضًا. حيث قالت عندما سألتُها عن الطريقة التي تريد بها كسب لقمة العيش في هذا العالم: «مثل هانيس.»

كان الدين أحد المواد التي تُدرَّس أيضًا في الدورة التدريبية، وكان القِسُّ يأتي من أجل تدريسه كل أسبوع. لم تكن المشاركة إجبارية، كان من الممكن أن تعفي طفلك من ذلك الدرس.

تقدمتُ بطلب للحصول على إعفاء لِلينتشيه؛ لأنني لم أرغب في أن تتعلم هي أيضًا ما أربكني من قبل. ولهذا جاء القِسُّ بنفسه؛ ليتحدث معنا عن ذلك.

فاجأني مظهره. شاب يرتدي بدلة رمادية فاتحة مع ربطة عنق – لم أرَ قط قسًّا مثل ذلك القِسِّ. تحدث بنبرة مُفعمة بالحيوية، وكأنه يسعد بالتحدُّث مع الآخرين عن عقيدته.

لقد أراد أن يعرف سبب عدم إرسال لِينتشيه إليه – لذلك أخبرته بالطبع كم كانت دروس التربية الدينية أمرًا شاقًّا بالنسبة لي؛ وأنني أصبحتُ في حياتي اللاحقة أتعايش جيدًا مع عدم وجود دين.

ارتبكَ قليلًا، كنتُ أكبر منه بكثير. ومع ذلك، حاول العثور على إجابة – قال إن المرء لا يبدأ الحياة، إلا عندما يحين وقت الموت.

هززتُ كتفيَّ وقلتُ، «من المرجح أن أموت بالطريقة التي عشتُ

بها؛ وحتى أموت، سأفعل دائمًا، ما لا أستطيع تركه.»

عند ذلك احمرَّ وجهه – ليس من الغضب، لقد حاول بجدية، وتحدث عن لِينتشيه قائلًا: «معي، يتعلم الشباب اتخاذ قراراتهم الخاصة بشأن ما يُسمح لهم بفعله، وما لا يُسمح لهم به.»

ثم أراد أن يقول شيئًا بشأني، كان صغيرًا جدًّا ومُتحمسًا مما دفعني إلى الضحك للحظة؛ ثم عبس وقال بنبرة جادة جدًّا: «مَنْ لا يؤمن، يمكنه حتى أن يخطئ بدافع الحُبِّ.»

بعد ذلك شعر بالإحراج قليلًا من كلماته الكبيرة، وأخذ يتحدث إلى هانيس حول أمور المدرسة. ولكن قبل مغادرته، سأل هانيس عما إذا كان يرغب في إرسال لِينتشيه إلى فصول الدين، وقال هانيس إنها يجب أن تقرر ذلك بنفسها، فقد كانت بالفعل في السادسة عشر من عمرها. ودعاها للقدوم.

وكما اتضح، أرادت لِينتشيه بشدة أن تذهب إلى دروس الدين. سألها الشاب إذا كانت تُصلي أحيانًا، فضحكت وقالت دون أن يثير ذلك أي إحراج أنها تؤدي صلوات الأطفال كل مساء، وهو ما تعلمته من والدتها. وقالت إنها تعتقد أن النص الذي تذكره في صلاتها أصبح الآن طفوليًّا، لكنها لم تترك تلك الصلاة في أي مساء.

غادر القسُّ منذ فترة طويلة، وما زلنا واقفين في الغرفة، لم نعرف أبدًا ماذا نقول – لقد كنتُ مبتهجة بعض الشيء؛ لأن

لِينتشيه ظلت متشبثة بالصلاة الساذجة، لكنني نظرت إليها الآن بعيون مُختلِفة، فقد اتضح لي مدى ضآلة معرفتي الحقيقية بها. ووقف هانيس عند النافذة، وطرق بأصابعه على اللوح الزجاجي.

سألته قائلة: «هل تفهم كيف يمكن أن يكون شابًا مؤمنًا؟»

استدار ونظر فوق رؤوسنا، وقال، «أوه، كل شخص مُختلِف، حتى إنني لا أفهم نفسي في بعض الأحيان. لكن ما أعرفه كافٍ بالنسبة لي – على الأقل أنا أعرف ما عليَّ فعله، وما عليَّ تركه، وهذا يكفي.»

سألته «وكيف تعرف ذلك؟»

«عندما أشعر بالسوء إذا فعلتُ شيئًا خاطئًا. إذا أخطأتُ في حق طفل في المدرسة مِن دون وجه حق، أُصاب بالصداع.»

فقلتُ، على سبيل المزاح: إنه سيكون أفضل بالنسبة للصبي إذا أصيب هانيس بالصداع قبل أن يخطئ في حقه. هنا أصبح جادًّا، ونظر مباشرة إلى عينيَّ.

وقال: «لا يمكن أن يكون لكِ رأي في الصواب والخطأ، فأنتِ لا تفهمين شيئًا عن ذلك. أنتِ تعرفين فقط الفرق بين الجميل والقبيح. عندما أردتِ منع لِينتشيه من القيام بشيء ما في الماضي، قلتِ لها: «لا يمكنكِ فعل ذلك، هذا قبيح» أنتِ فقط تلاحظين الخطأ عندما تعتبرينه قبيحًا.»

ثم أطلق صفيره مناديًا تشيور للذهاب معه في نزهة – بينما أنظرُ إليه – لم أتصور أبدًا أن هانيس يلاحظ مثل تلك الأشياء.

لقد كان مُحقًّا بالفعل. ولكن إذا فكرتُ في الأمر بشكل أدق، لم يكن مُحقًّا تمامًا، فهو في النهاية، لم يعرفني حق المعرفة. كنتُ أعلم جيدًا أنه بغض النظر عن مدى حُبِّ بعضنا لبعض، كان من الخطأ أنني لم أتخلَ عنه. لقد فكرتُ في ذلك لفترة طويلة.

كنتُ بشكل عام أفكر كثيرًا في ذلك الوقت – أكثر مما استطعتُ تحمُّله. لا أستطيع التفكير مليًّا أو لفترة طويلة، حيث يختلط سريعًا كل شيء في رأسي. يجب أن أنتظر دائمًا حتى يحدث لي شيء فجأة.

في السنوات القليلة الماضية مع هانيس، حاولت التفكير مِرارًا وتكرارًا – كان هناك الكثير مما يجب التفكير فيه، وما وجب إبعاده عن تفكيري، لطالما عذبتني بين الحين والآخر فكرةٌ جديدة – ثم كان عليَّ أن أقول لنفسي إنني كنتُ مخطئة، وإنني فكرتُ بشكل خاطئ.

توجد هنا في الجانب المُقابل لي بالممر مريضة تزفر طوال الوقت – لا أعرف لماذا بالطبع، كما أنني لا أعرف حتى ما إذا كانت عجوزًا أو فتاةً صغيرة – لم تنطق بأي كلمة، لا يُسمع منها سوى تلك الزفرات. أحيانًا تكون تلك الزفرات هادئة، ربما لأنها لا يزال لديها بعض الموانع – لكن في أحيان أخرى أسمعها تأخذ

نفسًا عميقًا ثم تطلقه بصوتها، ويبدو الأمر حينها كما لو أنها تتعرض للتعذيب. أعرف بالضبط كيف تفعل ذلك - لقد أطلقت تلك الزفرات عندما كنتُ أجلس وحدي في المنزل، ولم أستطِع متابعة فِكَري.

لطالما دارت كل فِكَري باستمرار حولي أنا وهانيس.

لم أعُد أجرؤ على التعلق بأمل أنه سيظلُّ يحبني طيلة حياته - لم يضايقني ذلك الأمر منه على الإطلاق، فقد صار واضحًا بالنسبة لي أنني لن أستطيع أن أبقى زوجته وأنا على تلك الحال. في السنوات القليلة الماضية، بحثتُ طوال الوقت، بحثتُ دائمًا في كل مكان عن المرأة التي سيحبها بعدي. لقد رافقتُه في جميع العروض، والمسابقات، والمهرجانات الرياضية، وأيضًا في مؤتمر عن الجمباز الإيقاعي، ولم أهتم في أي مكان بالحدث الذي يُقدَّم - بل انصبَّ كل اهتمامي على النساء اللائي في الصالة أو في الملعب الرياضي، وكيف ينظرْنَ إلى هانيس. لم أستطِع البقاء في المنزل في انتظار ما سيحدث. أردتُ حقًّا أن أكون هناك عندما يلتقي هانيس للمرة الأولى بالمرأة التي يمكن أن يحبها أكثر مني.

ورأيتُ عديدًا من النساء - نساء جميلات، وأنيقات، وذوات بِنية جسدية جيدة - وكنتُ أُولي اهتمامًا كبيرًا بكل واحدة. وأنا أدقق في إحداهنَّ فكرتُ في: أن فخذيها أكثر استدارة من فخذيَّ - وبالنسبة لأخرى قلتُ: إن كاحليها أرفع من كاحليَّ. وعند رؤية

كل فتاة تمارس الجمباز على عوارض الاتزان غير المُستوية أو تجري في تتابع، فكرتُ أنها أصغر مني سِنًا. ثم شعرتُ بذلك الألم الخفي يتسرب خلف عينَيَّ، الذي يشعر به المرء عندما يُحدِّق في شيء طويلًا – فكل حركة تصدر من تلك الفتيات تُثبت أنهنَّ أصغر سنًّا.

لكنني لاحظتُ دائمًا أن هانيس يتجاهلهنَّ تمامًا، ويقوم بعمله بطريقة سليمة تمامًا، ويشاهد الآخرين ويُنصتُ إليهم. وعندما نعود في طريقنا إلى المنزل معًا، أشعر بارتياح لا يوصف لأنه لا يزال مِلْكي وحدي – لكنني في الوقت نفسه أشعر بالخجل الشديد. ومع ذلك، تسير الأمور على المنوال نفسه في المرة التالية.

في النهاية اعتقدتُ أنني اكتشفتُ المرأة التي سيميلُ إليها. كانت فتاة يُشرف عليها بوصفه مُدربًا. ويسمح لها بمساعدته في التدريس، وتأتي أحيانًا إلى منزلنا حتى يتمكن من الاطلاع على كتاباتها النظرية. كانت قصيرة وذات شعر داكن وتبدو مثل الكرز الناضج، وكان خداها متوهجين على وجهها الأسمر من أثر الشمس. وذراعاها مُتماسكين وأسمرَين كذلك، وتشع بشرتها بالدفء الذي ينضح من خلال نسيج فساتينها الخفيفة التي كانت بلا أكمام.

لم تتدلل أمام هانيس، على الإطلاق، كانت فقط غير تقليدية للغاية. تدخن سجائره، وتقول كل الأشياء التي لم يجرؤ أحد

على قولها بصوت عالٍ، أعتقد أنها استمتعت بالتعبير عن نفسها بأكبر قدر ممكن من الصراحة. لكنها لم تكن مبتذلة بأي حال من الأحوال. كانت مجرد فتاة رياضية.

في المرة الأولى التي أتتْ فيها إلينا، استمعتُ إليها وإلى هانيس لفترة طويلة قبل أن أتمكن من قول أي شيء - فكرتُ فيما قد يُعجبه فيها، لكنني لم أكتشف أي شيء، لقد رأيتُ فقط أنها كانت مختلِفة جدًّا عني في كل شيء. لقد تحدثت إلى هانيس كما لو كانت صبيًّا، ومع ذلك كان لديها جسد أنثوي ناعم ومُتماسِك.

بالطبع استقبلتها بأدب - كنتُ حينئذٍ أعامل الجميع بأدب جمٍّ، وكانت الأخلاق الرفيعة مهمة بالنسبة لي. لكن عندما وقفتُ لأسكب الشاي وأقدم الشوكولاتة، عَلِق كعبي في سجادة القدم التي قد طرزتُها بنفسي. لم أشعر من قبل بهذا الكم من العجز الذي شعرتُ به عندما واجهتُ تلك الطفلة الرياضية الشابة.

كان عليَّ أن أتحملها سواء شئتُ أم أبيتُ. كان هانيس يعاملها بودٍّ، كما هو الحال مع زميل جيد، كما أنه يستفيد منها باعتبارها مساعدته، ولم أستطِع معرفة رأيها فيه، لأنني لم أحضر الدروس التي تساعد فيها هانيس. لم أعرف كيف تتصرف عندما يكونان وحدهما معًا.

ولكنني سمعتُها ذات مرة تقول إنها ستأتي إلى حمام السباحة في صباح اليوم التالي، حيث يريد تدريب بعض التلاميذ على

القفز. ذهبتُ أيضًا إلى المسبح، ولم يكن لديهما أدنى فكرة أنني سأحضر.

حصلتُ بالفعل على شارة السباحة الخاصة بي قبل سنوات، كنتُ أسبح بضربات طويلة، لم أسبح بسرعة، ولكن بشجاعة - كان هانيس غير راضٍ عني، وقال إنني أتمشى في الماء. كما لم أستطِع القفز. ربما لأنني تعلمتُ السباحة في سِنٍّ مُتأخِّرة، لم أجرؤ على ترك نفسي أسقط من فوق اللوح إلى الفراغ.

في الصباح عندما أردتُ الدخول إلى المسبح مُرتديةً بدلة السباحة، كان المُنقِذ يقف هناك؛ ورآني، ولوح لي وقال: «زوجكِ يعرض شيئًا ما».

عندما يقوم هانيس بقفزات الطفو، أستمتع بمشاهدته إلى ما لا نهاية، كان الماء هو عنصره المفضل. لكنني في ذلك الصباح بحثتُ عن تلك المساعدة الصغيرة. رأيتها على المنصة العلوية لبرج الغطس، حيث تنتظر هانيس ليلحق بها. صعد إلى الأعلى ووقف بجانبها.

وبعد ذلك كان هناك صراع مازح بالأعلى، أراد أن يصعد فوق لوح الغطس، وتقدمتْ هي عليه، إلا أنها لم تقفز، وإنما ظلتْ تقفز قفزات متتابعة فوق اللوح.

وفجأة أمسكها هانيس من خصرها ورفعها على كتفيه. ووقفا هكذا عند مقدمة لوح القفز، ورأيتُ قدميها البُنيَّتين الصغيرتين،

وتمكنتُ من أن أشعر بها، وهي تجلس فوق كتفَي هانيس العاريين.

في اللحظة التالية قفزا معًا، وصفَّق التلاميذ.

عُدتُ إلى حجرة تبديل الملابس الخاصة بي، وارتديتُ ملابسي النسائية المُهندَمة مرة أخرى، ولا أعرف كيف فعلتُ ذلك، فقد كانت عيناي لا تريان شيئًا من كثرة الدموع، التي رغبتُ في حبسها.

في المنزل وقفتُ أمام المرآة وتحدثتُ إلى وجهي طويلًا – وفي كل مرة أراد وجهي أن يبكي، قلتُ له بصوت عالٍ، إنني سأظل قادرة على الاحتفاظ بهانيس.

وفي المساء وفي أثناء نومي في السرير، مددتُ ذراعي ناحيته – فإنه ينسى أحيانًا أن يقول لي ليلة سعيدة أو تصبحين على خير. جذبتُه نحوي، حيث أردتُ أن أتأكد من أنه لا يزال مِلْكي أنا.

لم يكُن غير ودود، ولكنه قال إنه مُتعبٌ فقط، تمتم ذلك مُداعبًا لحدٍّ ما، وقال: إنني لم أكن لأتركه على راحته أبدًا. ثم استدار على جانبه مرة أخرى.

استلقيتُ بلا حِراك، إلا أنني جززتُ على أسناني بقوة لدرجة أن فكي كاد أن ينكسر، لقد كان ذلك مُؤلمًا، لكن لم يكن هناك ما يمكنني القيام به حِيال ذلك. ظلت ذراعاي ممدودتين نحو

هانيس، لكنهما بقيتا فارغتين، وسمعتُ من صوت أنفاسه أنه على وشك النوم.

يا إلهي، لم أعرف ماذا عليَّ أن أفعل، وخطر ببالي حينها: أن الأمر قد انتهى، لم أعُد أعني أي شيء لهانيس بعد ذلك، فقد أصبحتُ مُجرد مُدبِّرة لمنزله – كل سعادته وحماسته للحياة هي الآن مِلْك لتلك الشابة.

وبينما أُحملق أمامي في الظلام، خطر ببالي تشارلز فجأة – ما زلتُ لا أعرف لماذا، ولكن فجأة خطر لي كيف عشتُ مع تشارلز – لا بد أنني قد أصبتُ بالجنون من فرط الخوف والشوق، حتى لقد أصبح بإمكاني أن أفكر في الأمر، وأنا بجانب هانيس. لكن العادة القديمة القذرة ظلت حية بداخلي – فضغطتُ جسدي في هانيس، لم أرغب في أن أفقده.

عندها قام بدفعي بعيدًا، واستيقظ على الفور، وما زلتُ أسمع صوته العالي، حين قال: اللعنة – كيف يمكنكِ ذلك! أنت تفسدين كل شيء فينا داخليًّا وخارجيًّا.»

يا إلهي، يا إلهي، لا تدعني أفكر في ذلك الأمر بعد الآن!

لكنني لا أجد مهربًا من التفكير في ذلك الأمر – لأنه أصبح بداية النهاية الأخيرة.

يا إلهي. لماذا تسمح للشر بأن يسري فينا، على الرغم من أنكَ

تعلم جيدًا كيف يمكننا أن نكون خِلاف ذلك؟ لماذا لا تساعدنا؟ كان من الممكن أن تُحذرني في أي وقت، عندما كنتُ على وشك أن أفعل شيئًا خاطئًا. لماذا لم تتحدث معي بصوت مسموع؟

أفكر في ذلك منذ أيام وأسابيع. عرف الرَّب كل شيء ورآه – لماذا لم يساعد؟ كل شخص عادي يسحب الطفل بعيدًا، عندما يهم بالوقوع أمام السيارة – لماذا ترك الرَّب كل هذه المحنة الفظيعة تقع عليَّ دون أن يمدَّ يده إليَّ لينقذني؟

بعد ذلك النهار وتلك الليلة، بدأت التعاسة في اتخاذ مجراها.

لم أعُد أجرؤ على الخروج مع هانيس وسط الناس، وإلا سأُعاني مما أراه وحسب، لذلك بقيتُ في المنزل. لكن في المنزل كان الأمر على الحال نفسها دائمًا، ظللتُ أتخيَّل هانيس أمامي، وهو يختار لنفسه زوجة أخرى.

في بعض الأحيان كانت امرأة أعرفها، وفي أحيان أخرى كانت مجرد امرأة ما تسير في الخارج – أعلم أن هذا مُجرد هُرَاء، لكنني لم أستطِع الخروج من تلك الحالة. وعندما يقع نظري على هانيس، أفكر على الفور في النساء اللواتي تخيلتهنَّ معه.

لقد كان الجحيم، الجحيم، أيتها المُمرِّضة – لا يوجد شخص عادي يعرف كيف يكون ذلك.

ولكن ربما الأمر غير ذلك. لا بد وأن يكون هناك آخرون لا يشي

مظهرهم الخارجي بما يجول في خواطرهم من فِكَر رهيبة. لم أفعل أي شيء يمكن وصفه بأنه غير طبيعي، ولم يلاحظ هانيس ولِينتشيه أي شيء عليَّ في البداية. إلا أنني ألاحظ نفسي بالطبع – في المرآة تُحدق عيناي بطريقة غريبة، وكان ذلك بسبب حقيقة أن الفِكَر القذرة نفسها تدور خلفهما مِرارًا وتكرارًا – إلا أن الآخرين لم يلاحظوا أي شيء عليَّ.

عشتُ في تلك الحالة لمدة عام تقريبًا. لقد أصبحتُ نحيفة للغاية في ذلك العام – لقد لاحظتُ ذلك، من دون رغبة في أن أفعل أي شيء حِياله. لقد كان واضحًا بالنسبة لي منذ فترة طويلة أنني أصبحتُ قبيحة، وكثيرًا ما قمتُ بتمرير إصبعي السبابة على رقبتي، وفحص مدى وضوح التجاعيد التي جعلت الجلد يبدو داكنًا وبنيًّا –يمكنني بعد ذلك أن أفهم بسهولة أن هانيس لم يعُد يشتهيني كما كان الحال عليه من قبل. لم أتوقع أي شيء آخر، كيف يمكن لشخص أن يحب امرأة قبيحة، وفوق ذلك أيضًا سيئة؟ كنتُ خائفة ومُشمئزَّة من نفسي – لقد انتهى كل شيء، كان ذلك مُؤكدًا.

كنتُ حينها في الثامنة والثلاثين، وهانيس في الثالثة والثلاثين. وبلغت لِينتشيه لتوها إحدى وعشرين عامًا، عندما بدأت النهاية الأخيرة.

كان ذلك عندما لاحظ هانيس غيرتي.

نعم؛ يجب أن نُسميها غيرة.

أول شيء فعلتُه هو شجاري معه بسبب الفتاة السمراء، التي يقوم برعايتها. أخبرتُه أنها غير جديرة بالثقة، وأنه يجب أن يُوكل أمرها لمُعلِّم آخر.

قام بهزِّ كتفيه فقط، وعمل على ألا تأتي إلى منزلنا مرة أخرى. اكتشفتُ لاحقًا أنها كانت على علاقة مع طالب قانون لبضع سنوات – ولم أجرؤ حينذاك بالطبع على إخبار هانيس أنني كنتُ مخطئة.

ثم أردتُه أن يُبدِّل العمل مع زميل له في النادي الرياضي، يقوم بتدريب الرجال، حينها قام بزَمِّ شفتيه ولم يقُل شيئًا. ألححتُ عليه في طلبِ ذلك مِرارًا وتكرارًا – مِن دون جدوى، إذ لم يعطني أي ردٍّ. بكيتُ وركعتُ أمامه، أمسكتُ يديه، ومسحتُ عليهما، وظللتُ أُردد الشيء نفسه – لكنني لم أستطِع شرح ذلك، لم أستطِع أن أخبره كم عانيتُ، عندما كان يلعب الجمباز مع تلك الفتيات – بالطبع دفعني بعيدًا عنه.

بعد ذلك لم يعد هانيس يلمسني قط. كان لديه دائمًا سببٌ وجيهٌ لعدم تقبيلي – وهكذا لم يكن لدي سبب لإلقاء اللوم عليه.

ولم أجرؤ في آخر الأمر حتى على وضع يدي على ذراعه. لقد حدث شيء بيننا لم أستطِع تجاوزه، وبعد فترة تعايشتُ مع ذلك، ربما كان الوضع أفضل على ذلك النحو أيضًا – لأنني في بعض

الأحيان كنتُ أعتقد اعتقادًا راسخًا أنه يمكنني تلطيخ هانيس بفِكَري القذرة، وكنتُ خائفة جدًا من ذلك.

كنتُ آنذاك أحبه كثيرًا. أحبه بجنون. عندما أبقى وحدي في المنزل، كنتُ أرمي نفسي على السرير، وألفُّ ذراعيَّ حول الوسادة التي تفوح منها رائحة شعره.

عندما كان يعود إلى المنزل، لم أكن أستطيع أن أريه كم أتوق إليه بشدة، لا أجرؤ حتى على النظر إليه. كنتُ أعرف نفسي، وكم كانت دواخلي فاسدة، وكيف أن كل شيء قذرٌ ومَرَضيٌّ يثير اشمئزازه – لم يكن بإمكاني مواجهته عندما تَجُول بخاطري تلك الفِكَر القذرة طوال اليوم. الشيء الوحيد الذي تبقَّى لي هو مُراقبة كل ما يفعله من مسافة بعيدة قدر الإمكان. وكل ما يفعله كان يثير غيرتي.

عندما يخرج، كنتُ أقوم بعدِّ الساعات حتى عودته، ثم أحسب له بعد ذلك المدة التي قضاها بعيدًا عني. وعندما كانت تأتي امرأة لزيارتنا، كنتُ أبكي قبل أن يُغلق باب الشقة خلفها – لم أستطِع أبدًا أن أخبره عن سبب بكائي، لكنه كان يعرف ذلك أيضًا.

ثم تغيَّر تدريجيًّا. لقد كان رجلًا، ولم يكن شهيدًا بأي حال من الأحوال. كان يفقد صبره ولطالما كان يهاجمني، حتى عندما لم أكن أستحق ذلك. ثم توقف عن العودة إلى المنزل في أوقات محددة؛ كان يخرج أحيانًا بعد انتهاء الدروس، في حين أنتظره

لتناول الطعام سويًّا؛ كان يجلس في الحانة مع أحد زملائه المُدرِّسين، رجل يكبرهُ سنًّا وأعزب. وعندما يقرر العودة أخيرًا إلى شارعنا، كنتُ أعرف أنه كلما اقترب من منزلنا، يسير ببطء أكثر من المُعتَاد.

في إحدى المرات، كان يومًا مُمطرًا بعد الظهيرة، نظرتُ عبر النافذة المُوصَدة باحثة عنه، وفجأة رأيته قريبًا جدًّا من ضوء مصباح الإضاءة بالشارع، عندها لاحظتُ لأول مرة أنه لم يعُد يخطو بقوة كما كان الحال من قبل. كما أنه لم يعُد يُحرك كتفيه إلى الوراء – لذلك فكرتُ: الآن يمكنه بالتأكيد أن يشعر بأنه يتقدم في السن.

ولكن بعد ذلك خطر لي: ربما أصبح يشرب كثيرًا أيضًا. لم تكن الفكرة جديدة، كنتُ أتوقعها، لقد فكرتُ بها منذ فترة طويلة؛ عندما كان يظلُّ بالخارج بعد المدرسة، كنتُ أعرف أني سأشم رائحة الكحول تفوح منه – لم أَخَف من ذلك بعد كل ما حدث، كنتُ أعرف أن ذلك جزء من كل شيء آخر يحدث. جزء مما فعلتُه بهانيس.

رأيتُ هذا وعرفتُه. كان عليَّ دائمًا توقُّع كل شيء والتفكير فيه؛ عندما كانت الأمور تسير بشكل مُختلِف في النهاية، كنتُ مُتأكِّدة من أن شخصًا ما قد أصلح ما فعلته فِكَري القذرة القبيحة.

في الأساس، يرجع الفضل لِلينتشيه في أن هانيس لم يبدأ في

احتساء الخمر.

من دون لِينتشيه لم نكن سنصبح قادرين على الاستمرار في العيش معًا. كانت تجلس بيننا كل يوم إلى مائدة الطعام، وتخبرنا بأحداث مُضحكة وقعت في مدرستها، وتتحدث إلى هانيس عن الأشياء اليومية، وتمسح على شعري، عندما كانت تعتقد أنني أعاني من الصداع.

لذلك عندما عاد إلى المنزل بعد ظهر ذلك اليوم، وكانت تبدو عليه علامات احتساء الكحول، لم أتفاجأ – فقد حدث ما توقعته مرة أخرى ببساطة. علمتُ أيضًا أن الأمور ستستمر وفقًا لذلك، وأن هانيس سيستمر في الشرب، وأنه لن يصبح قادرًا على ممارسة الرياضة، وأنه بسبب أخطائي، سيصبح شخصًا سِكِّيرًا ومُنكسرًا.

لكنني رأيتُ بعد ذلك أن لِينتشيه أصيبت بصدمة، وألقت بكتابها جانبًا. ونهضت مسرعة – كانت تستقبل هانيس بأن تجري نحوه بفرحة عندما يعود إلى المنزل، وتُقبِّله على خده غالبًا، كما كانت تفعل وهي طفلة.

في ذلك اليوم وقفت أمامه، كما كان الحال دائمًا على أطراف أصابعها، لكنها فجأة أشاحت بوجهها بعيدًا، وأمسكت بيده فقط وقالت: «ماذا فعلت يا هانيس – لا يمكنني تقبيلك بهذه الطريقة.»

استدار هانيس، ودخل غرفة نومنا واغتسل، وفجأة سمعتُ شيئًا ما ينكسر وفكرتُ: الآن فقد هانيس كل الأمان، وأصبح أخرقًا

أيضًا. في اللحظة التالية كانت لِينتشيه تقف أمامي، من الواضح أنها أرادت أن تقول شيئًا ما - وفجأة أدركتُ كم كانت تُشبه أُمي، بتعبيرها الحكيم والخجول الذي يرتسمُ حول فمها.

قالت: «عليكِ أن تعتني به بشكل أفضل.»

انتظرتُ، لأنه من المؤكد أن لديها المزيد من الكلمات، تمامًا مثل أمي، تبحث دائمًا عن الكلمات المُناسِبة لفترة طويلة. كنتُ أجلس إلى المائدة، وأنظر إليها، انتظرتُ لبعض الوقت، إلا أنها لم تكن مُستعِدة لقول المزيد.

خرج هانيس من غرفة النوم - فانحنت لِينتشيه نحوي، وكان وجهها شاحبًا، وعيناها متسعتان.

وقالت: «أنتما تسببان لي الكثير من الحزن».

ثم جلست إلى الطاولة، بيننا، كما كانت تفعل كل يوم، وناولتنا الصحون، وقشرت برتقالة هانيس، كما فعلت دائمًا، منذ أن أصبح يعيش معنا.

أنتما تسببان لي الكثير من الحزن – تخرج مثل تلك الكلمات من فم أمي. شعرتُ كما لو أن أمي هي مَنْ قالت ذلك.

غريب، لم يخطر ببالي قط، أن لِينتشيه يمكن أن تشعر بالحزن.

كان الوضع الطبيعي، أنها تجلس معنا بوجهها الجميل الحكيم، لقد اعتدتُ على ذلك، لدرجة أنني لم أعُد ألاحظها تقريبًا. كما أنني لم أُدرك أنها كبرت، وأصبحت امرأة ناضجة - وأنها كانت ترى بعض الأشياء، وعرفتُ هنا أنه من الممكن أن يكون لديها حزنها الخاص كذلك.

لا يزال اليوم بإمكاني رؤية المائدة أمامي، وأرى وجهَيْ هانيس ولِينتشيه فوق الأطباق. في ذلك اليوم أدركتُ لأول مرة أننا ننتمني - نحن الثلاثة - بعضنا إلى بعض، وأن أحزاننا مُشترَكة كذلك.

لم أكن لأتصور أبدًا أن لِينتشيه يمكن أن يكون لديها ما يحزنها هي أيضًا. فقد كانت بالنسبة لي دائمًا شخصًا ينتمي إلينا، لي ولهانيس على حد سواء. وحتى وقت مُتأخِّر، لم يكن لدي أدنى فكرة أن حزنها كان بسبب هانيس. نعم، هذا غريب جدًّا. تخيلتُ معه كل أنواع النساء، تخيلتُه مع كل مَنْ عرفتُه ورأيتُه، وكنتُ أرتجف بسبب خوفي من أن أفقده. لكن أن تكون لِينتشيه هي المرأة التي كنتُ أبحث عنها، والمرأة التي يمكن أن يحبها هانيس أكثر مني، هذا ما لم يخطر ببالي قط.

كنتُ أحتاجها بجانبي، لطالما كانت داعمة لي، كانت بمثابة قُرة عين صغيرة في المنزل. عندما لم أعُد أجرؤ على النظر إلى وجه هانيس المُظلم والمُنغلق، كنتُ أبحث بنظري عن عينَيْ لِينتشيه، وفمها الودود الحكيم، وكنتُ آمل أن تظلَّ تبتسم في

وجهي. وكانت تبتسم لي أيضًا، لكنها بدت دائمًا خجولة قليلًا – كما لو كان الأمر مُؤلمًا.

استمر حالنا هكذا لمدة عام آخر. وقد حاولتُ خلاله أن أقتل نفسي – كان ذلك بالطبع مُتوقعًا.

أوه، ليس بسبب اليأس، لم أكن يائسة – لقد تعودتُ على ذلك – لقد كنتُ أغرق كل يوم أكثر قليلًا في حفرة بلا قاع. وفي النهاية، لم أقتل نفسي أيضًا – لو كنتُ يائسة حقًّا، لتمكنتُ من فعل ذلك بذكاء؛ فكون محاولة انتحاري لم تنجح، كان بالطبع خطأي – في الواقع، كنتُ أضعف من أن أقتل نفسي قتلًا صحيحًا.

لقد جربتُ الانتحار بالغاز – يقولون إن ذلك يفلح أحيانًا – لكنني شعرتُ بالبؤس والإرهاق لدرجة أنني لم أحسبه بشكل صحيح. رغبتُ في القيام بذلك في المطبخ؛ لأن مَوْقِد الغاز يحتوي على أنبوب تغذية سميك، لكنني لم أفكر في المروحة الموجودة أعلى المدخنة. في الساعة التاسعة صباحًا، عندما غادر هانيس ولِينتشيه المنزل، فتحتُ مفاتيح المَوْقِد، وفي الساعة الثانية عشرة عندما عاد هانيس كنتُ فاقدة للوعي جزئيًّا، في اليوم التالي لم أتذكر أي شيء إطلاقًا.

كان هانيس يتجوَّل بضمادته، وقد أُصِيب بجرح عميق في معصمه؛ لأنه اضطر إلى تحطيم اللوح الزجاجي لباب المطبخ؛ ليتمكن من الوصول إلى المفتاح. تحوَّل هذا الجرح فيما بعد إلى

ندبة بيضاء كبيرة، ظلَّت تاركة أثرها على جسده.

أراد طبيبنا أن يرسلني إلى مَصحَّة للأمراض العصبية، وتحدث إلى هانيس عن ذلك في حديث مُطوَّل بعد أن خاط الجرح وقام بتضميده. لكن الأمر لم يصل إلى ذلك الحد، إلا أننا قمنا بناءً على نصيحته بإجازة معًا لبضعة أسابيع.

ذهبنا مرة أخرى إلى المُروج - أوه، لكنها ليست هي نفسها التي ذهبنا إليها في المرة الأولى. لم نُخيِّم أيضًا في تلك المرة – سكنا في نُزُل لطيف، به هاتف منزلي وحمام، وكنا نذهب لتناول الوجبات عندما يدق الجرس، وفي المساء نضع أحذيتنا المتسخة أمام الباب.

مُضحك – في كل مرة كنتُ أضع فيها أحذيتنا أمام باب الغرفة، كان عليَّ أن أتذكر أن القماش المُشمع لا ينبغي أن يصدر أي ضجيج، لأن لِينتشيه تنام في الخيمة، وكنتُ أريد الخروج لرؤية هانيس.

في النُزُل كنا هناك كلانا بمفردنا. اضطرت لِينتشيه إلى الانتظام بالمدرسة، وكان الوقت حينئذٍ في أوائل الربيع. كان على هانيس تقديم طلب للحصول على إجازة إضافية حتى نتمكن من تمديد عطلة عيد الفصح.

لم يعُد احتفاظي بهانيس لنفسي يمنحني السعادة التي كنتُ أجدها من قبل – لقد أصبحتُ أشعر بالأسف الشديد من أجله

والحزن الشديد عليه. لقد بذل قصارى جهده لمساعدتي؛ كنتُ قد سمعتُ الطبيب يوصيه أن يعتني بي جيدًا. وقد قام بهذا بالفعل، ولكن بطريقة حزينة ومُحرجة – لم يعُد يعرف كيف يفعل شيئًا جيدًا من أجلي. كان كل شيء صعبًا جدًّا عليه – لم يكن بإمكانه العيش، إلا بالشكل الذي يناسبه، وليس كما هو ضروري لشخص آخر.

كنتُ أعرف ذلك بالفعل – كان الأمر نفسه دائمًا، فقد كان شابًّا، ومُفعمًا بالحيوية بدرجة أكثر مما يصلح لي. كنتُ دائمًا، في كل دقيقة، أعرف تمامًا ما يشعر به؛ لأنني مررت بالشيء نفسه مع تشارلز.

لقد بذل جهدًا كبيرًا، وفي غضون يومين جعلني سعيدة بالفعل. مشينا عبر غابة الصنوبر، حيث الرائحة المُنعِشة والخفيفة للأشجار تعمُّ المكان، ورأينا أرانبَ صغيرة تقفز بعيدًا، واستمعنا إلى صوت الشحرور – ثم مشينا ويدي في يده على طريق الغابة. وقفنا نراقب معًا أيضًا من شرفتنا، كيف تمرُّ السحب المُظلِمة من أمام القمر مُجددًا – وعندما أصبح القرص اللامع الرائع مُكتمِلًا وواضحًا مرة أخرى في سماء تلك الليلة الربيعية، لاحظتُ أن هانيس ما زال بإمكانه الاستمتاع بالهدوء كما كان الحال عليه من قبل.

ولكن عندما نجلس فيما بعد في غرفتنا بالنُزُل، كنا نجلس

في ترقب وانتظار، هنا لاحظتُ أيضًا أنني لم أعُد الأحب إلى قلب هانيس.

نعم، لقد حاول جاهدًا، إلا أن ذلك لم يعُد ممكنًا.

أوه، لقد كان يقبلني بالطبع، وكنتُ أسير إلى جواره طوال اليوم، كنا نهتم بأن نتناول عشاءنا معًا، ونخلع ملابسنا في الوقت نفسه. لكنه لم يعد يبدو كما لو أن الشمس تشرق عندما ينظر إليَّ – لقد لاحظتُ في ذلك الوقت، أنه يمكن أيضًا أن يبدو مثل الرجال الآخرين، كما لو كان يتعثر في خطواته.

رؤية زوجي على تلك الحالة كان أمرًا مُروِّعًا – كنتُ أُفضِّل أن أراه مخمورًا، بدا لي أحيانًا كما لو أنه يريد أن يشرب حتى يثمل.

تسببت لي تلك الإجازة الأخيرة في كثير من الحزن.

وبالعودة إلى المنزل مرة أخرى، علمتُ أن شيئًا لم يتحسن – ما زلتُ أريد أن أموت. كل شيء كما كان عليه قبلها.

كلا. في الواقع، لا شيء كما كان. لكنني استوعبتُ ذلك الآن، لأن كل شيء انتهى.

لم تكن لِينتشيه كما كانت من قبل، لا أفهم كيف لم أفكر في الأمر على الرغم من أنني قد لاحظتُه.

كانت قد تغيرت، تغيرت تمامًا. كانت تجلس بيننا على مائدة

الطعام، نعم، لكنها لم تعُد تنتمي إلينا، لقد انسحبت. عندما كان يتحدث هانيس إليها، كانت تبدو منزعجة في البداية، ثم تبدأ في الضحك فجأة بصوت عالٍ مُرتفع، وهو أمر لم تفعله من قبل مُطلقًا. أما معي فقد كانت هادئة جدًّا أمامي، على الرغم من أنها ما زالت تستطيع تخمين ما أحتاجه، وتحضر لي ما أريد، ولكن فقط من أجل أن تغرق على الفور في صمتها مرة أخرى.

في أحد الأيام أخبرتنا أنها تولت إدارة مدرسة الأحد.

كان هذا أيضًا غريبًا وجديدًا. لم تكن لِينتشيه في الواقع من رواد الكنيسة المُنتظِمين. كانت تحضر القدَّاس بين الحين والآخر – ترسَّخ ذلك بداخلها منذ دراستها مع القِسِّ – لكنها لم تذهب إلى كنيسة معينة، حيث يكون لديها مقعدها المُعتَاد كل يوم أحد، كما كان يفعل أبي وأمي. لقد استمتعت أيضًا بالذهاب معنا في نزهات يوم الأحد، على الرغم من أنها كانت تخطط للاستماع إلى عِظة في مكان ما.

ثم أعلنت فجأة أن أيام الآحاد لديها ستكون مشغولة في المستقبل.

لا يزال بإمكاني أن أرى، كيف كان الحال. جلسنا في القارب الذي يقف في وسط البوص، وكانت زنابق الماء متفتحة، لأننا في مُنتصَف الصيف. كانت لِينتشيه قد غطَّست ذراعها في الماء، وتحسَّست ساقًا طويلة لإحدى زنابق الماء التي أرادت قطفها.

وقالت: «عليكما أن تفعلا شيئًا وحدكما يوم الأحد المُقبل». «ستبدأ مدرسة الأحد في الساعة الحادية عشرة.»

هبَّ هانيس مُنتفِضًا، حيث كان يغفو على السطح الأمامي للقارب، لكنه الآن أصبح مُتيقِظًا تمامًا، وبحث في جيوبه عن علبة السجائر.

وسأل «ماذا يعني ذلك؟»

بدت لِينتشيه سارحة قليلًا في زنبق الماء الذي تسحبه من بين البوص – لم يسعني إلا التفكير في جريتشن، وهي تقطف أوراق الأقحوان، واندهشتُ. ثم قلتُ أيضًا: «نعم، ما معنى ذلك؟»

أجابت دون أن ترفع ناظرها إليَّ، «أريد أن أُعلِّم الأطفال أكثر مما يمكنني تعليمهم إيَّاه في المدرسة».

بحث هانيس بصبر نافذ عن سجائره، التي لم يعرف أبدًا أين وضعها بالضبط، لأن جيوب ملابسه الرياضية كانت متفرقة هنا وهناك. وقال للِينتشيه بصبر نافذ أيضًا: «هُرَاء، ليس هذا هو السبب. لماذا تريدين أيام الآحاد لنفسكِ فقط؟ «

وهنا نظرت لِينتشيه لهانيس بطريقة أعرفها من والدتي – كما لو كانت مُعتَادة على المعاناة.

لقد أفزعني ذلك، فقلتُ: «هذا شأنها على أي حال».

وفي تلك اللحظة أدركتُ أنني قلتُ الشيء نفسه الذي قاله لي هانيس عندما كان القِس عندنا في المنزل.

في تلك الأثناء، كان هانيس قد وجد علبته الفضِّية، وقام بنفض رماد سيجارته في توتر، ونظر إلى لِينتشيه. إلا أنه لم يستطِع رؤية وجهها لأنها كانت تنظر إلى يديها، اللتين تحملان الآن زنبق الماء الذي قطفته. كان لدى هانيس نظرة غامضة ومُتسائلة، جعلتني أفكر: ما الذي يراه الآن أمامه؟

ثم قال: «ماذا يجب أن يتعلم الأطفال غير ذلك؟ أنتِ تعلمينهم ما يكفي في المدرسة، أليس كذلك؟»

احمرَّ وجه لِينتشيه، وكان من الصعب عليها أن تقول ما تفكر فيه، واعتقدتُ أنه من اللطيف منها أنها تريد تولي مدرسة الأحد. أخيرًا قالت: «أريد أن أعلِّم الأطفال شيئًا عن الحياة.»

هنا مازحتها – فقد كان يوم الأحد ذلك جميلًا ومُشمسًا، ولم أشعر بالحزن كالمُعتَاد، فقلتُ: «لستِ بحاجة إلى تولي مدرسة الأحد من أجل ذلك. فقط انتظري، سيكون لديكِ قريبًا زوج وأطفال.»

وفجأة أدركتُ أنه لم يكن ينبغي لي أن أقول ذلك، وشعرتُ بنوبة خوف. كانت لِينتشيه في عامها الثاني والعشرين، وقد أصبحت امرأة بالفعل، لقد فهمتُ ذلك منذ تلك اللحظة وإلى الأبد. وعلمتُ من نظرتي لهانيس أنه فهم ذلك أيضًا، في اللحظة نفسها

– لم يعُد يبدو غامضًا للغاية، لقد عقد حاجبيه ونظر إلى الماء في ترقُّب، كان ينظر تلك النظرة فقط عندما تكون هناك بوادر أو علامات تدل على هطول المطر. ثم انحنى وأخذ زنبق الماء من يدي لِينتشيه، ودفع وريقاته إلى الخلف ونظر إلى القلب الأصفر – لكنه فجأة ألقى الزهرة في البحر، إلا أنها عَلِقت في سيقان البوص. وهنا أطلق الحبل ودفع القارب مبتعدًا عن الرصيف، وتوليتُ أنا الدفة. ظلت لِينتشيه جالسةً مُنحنية، وتشكلت يداها في حجرها على هيئة وعاء كان يحوي زنبق الماء.

عندما انزلق القارب فوق المياه الملساء مرة أخرى، مُتجاوزًا بوابة الهويس، ومارًّا بجدار الرصيف، حيث تطفو فضلات المدينة البغيضة، تغلب عليَّ القلق الذي كانت الشمس قد طردته بعيدًا – وأُضيف إليه خوف جديد: لقد اتضح، كم كانت حياة لِينتشيه قاحلة ووحيدة، وأن ذلك كان خطأي أنا.

لا يهم إذا حكيتُ المزيد الآن أم لا، لا يمكن للمرء أن يرسم منظرًا طبيعيًّا يصور الليل الأسود. كان كل شيء حولي في ذلك الصيف الأخير أسودَ – لا، أنا أقول هذا بطريقة خاطئة – كان كل شيء أسودَ بداخلي، كل ما رأيتُه وفكرتُ فيه كان مُظلمًا، كما لو كان الطين يربض فوقه.

كنتُ أجلس طيلة النهار على كرسي بذراعين بجوار النافذة، ويمرُّ كل شيء أمامي، أو ينظر لأعلى في اتجاهي على حال واحدة،

كان مُتسخًا ومُظلمًا، ولا معنى له كذلك. في تلك الأثناء، لم أعُد أهتم بالشكل الذي تبدو عليه الشقة كما كان الحال في الماضي، فهي لم تكن نظيفة ومرتبة أبدًا، ولم أهتم حتى بملابسي – أعتقد أنني في ذلك الوقت كنتُ قد فقدتُ مظهري الأنثوي المُهندَم.

فقط هانيس ولِينتشيه لم يغرقا تمامًا في الوحل في تلك الآونة، كنتُ أستطيع رؤيتهما. لم يكن هذا يسعدني، لكنهما على الأقل كانا موجودين – على الأقل كنتُ أشعر بالحزن بسببهما. لقد تحملتُ الكثير من الحزن والخوف بسبب هانيس ولِينتشيه، لأنني آذيتهما – من الصعب تخيُّل أنه يمكن أن يكون هناك مثل هذا الكم من الخوف والحزن في العالم في الوقت نفسه.

نعم، أعلم، تُطلقون على هذا اسم اكتئاب، أو تُسمونه نوعًا ما من أنواع الرُّهاب، بالنسبة لكم فهذا مرض، فأنتم تعطون أسماء رنانة لأمراضنا، ثم تضعونا في مؤسسات تحمل أحرفًا ذهبية فوق مدخلها. لكننا لسنا مرضى فقط، فهذا ليس مرضًا عاديًّا، لا تعتقدوا فقط أننا مرضى مثيرون للشفقة. يمكن دائمًا العثور على البداية؛ إذا حاولت وبذلت جهدًا من أجل ذلك، يمكنك معرفة أين ومتى اتضح أنه كان علينا أن نصبح مرضى – ابحثوا عن هذا، وستجدون أن كل شخص، قد اتخذ القرار الخاطئ في مرحلة ما.

يا إلهي، لو كان هناك من يُحذِّر قائلًا: لقد حان الوقت، الآن، في هذه اللحظة وفي هذا المكان، عليك أن تعقد خيارًا. لكن كل الأيام

يُشبه بعضها بعضًا، وكل الأماكن كذلك، لا يوجد أي مؤشر في أي مكان يقول: الآن يتم اتخاذ القرار.

بالتأكيد لا يمكن للإنسان أن يعيش حياته في حالة استنفار دائم، كما لو كان عليه اتخاذ قرار في كل الأوقات وفي جميع الأماكن؟

لذلك قد يكون شيئًا جيدًا أن نموت، دون أن نتخذ هذا القرار بأنفسنا. على الأقل هنا لا يكون لدينا خيار، لا يموت الإنسان بإرادته، وإنما تتمُّ إماتته. تمامًا مثلما يُولَد – دون أدنى معرفة مُسبَقة أو إرادة.

أنتِ تعرفين بالطبع، كيف مات هانيس، كتبوا عن ذلك في جميع الصحف.

فجأة مِن دون أن يرغب في ذلك أو يفكر فيه. لأن الحبل الذي كان مُعلقًا فيه فوق الصدع الجليدي انقطع.

لقد كتبت الصحف الكثير عن ذلك. كان هانيس رياضيًّا مشهورًا، وكان الحادث مأساويًّا، ولم يستطِع فعل أي شيء على الإطلاق. فضلًا عن ذلك، كان شابًّا يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عامًا فقط. قدَّم لي أشخاص كثيرون لم أرَهم من قبل تعازيَهم – الشيء الغريب الوحيد هو أنني لم أستطِع أن أطلب من أي شخص أن يُلقي عليه نظرة الوداع، فقد كان جسده في مكان ما وسط الجليد.

الغريب، أن الأمر لم يكن فظيعًا بالنسبة لي على الإطلاق، بل كان عزائي أنه كان مُستلقيًا في مكان هادئ، ولم يتحلل جسده بعد، ولا يمكن لأحد أن يصل إليه. جعلني ذلك أشعر سرًّا بالفخر بعض الشيء، لأن جسده ظلَّ كما هو عندما كنتُ أحتضنه بين ذراعي – ولأنه كان فوق الآخرين، لأنه حتى في الموت بقي جميلًا وخاليًا من العيوب.

نعم. الآن سأخبركِ بشيء، شيء مُروِّع للغاية، بالكاد أفهم نفسي أنني أجرؤ على قول ذلك: لم أكن حزينةً حتى عندما مات هانيس.

إنه أمرٌ غير إنساني، أليس كذلك؟ نعم، علمتُ ذلك، ومع ذلك لم يكن هناك أي لمحة حزن في داخلي. في البداية، بعد وقت قصير من وفاته، تحسستُ أحيانًا جبهتي لأرى ما إذا كانت ستتجعد من الحزن كي تذرف عيناي ولو بعض الدموع القليلة. لكنها ظلت ناعمة – باستثناء التجاعيد القليلة التي قد عانيتُ منها من قبل.

كنتُ خائفةً جدًّا على هانيس، عشتُ في عذاب بسبب الفِكَر الرهيبة عنه وعن الآخرين. ولكن عندما علمتُ أنه مات، ومات حقًّا، منحني ذلك أخيرًا راحة البال. تمامًا مثل الهدوء الرائع في القاعة عندما تنهار السيدة تايسولتس بعد انتهاء نوبة أصابتها.

لاحقًا، عندما انتهى كل شيء، عندما عُثِر عليه أخيرًا، ودُفن في المقبرة المحلية، وجدتُ نفسي أضحك بهدوء، سعيدةً بالهدوء

الرائع، مِن دون خوف.

نعم. الآن سأخبركِ بما حدث. هذا لا يُسبب لي أي مشاكل؛ لأنني ما زلتُ لا أشعر بالحزن على هانيس.

ذهب إلى سويسرا في المساء الذي يسبق عيد ميلاد لِينتشيه الثالث والعشرين.

شعرتُ ببؤس أكثر من أي وقت سابق أو لاحق. ليس لأنه ذهب وتركني وحدي، فقد اعتدتُ على ذلك، ولم يكن لدي المزيد من التوقعات أيضًا، ولكن لأنني كنتُ مُنغمسةً في طيني الأسود لدرجة أنني لم أعُد قادرةً على الحركة. شعرتُ بفراغ في داخلي مثل بيضة أخذوا ما بداخلها بالمِلْعقة، وسحقوا قشرتها المتشققة، وألقوها في سلة المُهملات – كل ما أمكنني فعله هو الجلوس والانتظار لأرى ما سيحدث لي.

كان هانيس مُستعدًّا للمُغادرة، ولم يكن لديه حقيبة سفر، فقط حقيبة ظهر ثقيلة، كانت الأمتعة الكبيرة مصدر إزعاج له. استطعت أن أرى في ملامحه أنه يودُّ الذهاب، وعرفتُ أيضًا لماذا – عرفتُ كل شيء – لم يكن بحاجة إلى أن يكون معي، بالطبع أمكنني فهم ذلك. كنتُ مجرد عبء عليه، ولا شيء آخر؛ بعد عطلة الربيع لم يلمسني مرة أخرى، كان هذا أيضًا مفهومًا، لم يكن باستطاعته فعل شيء آخر، كنتُ متسخةً بفِكَري القذرة. كان كل هذا واضحًا تمامًا بالنسبة لي.

لقد وقف أمامي وأخذ يدي - كانت يدي نحيفة جدًّا في ذلك الوقت. انحنى نحوي، لكنه فجأة رجع إلى الوراء - كان ذلك فظيعًا: لقد تصرف مثل تشور عند رؤية السوط.

ثم دخلت لِينتشيه إلى الغرفة وعيناها حمراوان لأنها بكت - اعتقدتُ: إنها تبكي لأنه يجب أن تكون وحيدة معي الآن - وشعرتُ بالأسف لها؛ لأن الاضطرار للعيش مع مخلوق فاسد مثلي لا يتسبب سوى في إزعاج الآخرين، هو حقًّا سيء.

كان هانيس بالفعل عند الباب عندما وضع حقيبة ظهره فجأة - ذهب إلى لِينتشيه وأخذ رأسها بكلتا يديه، وما زلتُ أستطيع رؤيته أمامي، ويداه القويتان، ذواتا اللون البُني من الشمس، على رأسها.

ثم وضع خده على جبهتها.

فقط عندما انغلق باب البيت بالأسفل، فتحت لِينتشيه عينيها مرة أخرى. وابتسمت بغرابة وكأنها تعاني من ألم رهيب لكنها مُستعِدة لتحمُّله.

نعم. الآن أصبح الأمر واضحًا لي. الآن أُدرك من أين عرفتُ ذلك. كان لدى تشارلز تمثال بيتتا صغير من فنان مجهول - وقفتُ أمامه عدة مرات، ولم أفهم أبدًا كيف أن مريم ظلَّت قادرة على الابتسام، لا بد أنه كان أمرًا فظيعًا أن تحمل المسيح الميت

المُدرَج في دمائه في حضنها. وكانت هذه الابتسامة بالضبط هي التي ارتسمت على وجه لِينتشيه عندما أنصتت إلى خطوات هانيس في الخارج في الشارع في ذلك المساء حتى لم يعُد من الممكن سماعها.

أتذكر كل هذا جيدًا. في ذلك الوقت كنتُ أراقب هانيس ولِينتشيه، وكان عليَّ أن أفعل ذلك حتى أتمكن من رؤية مدى معاناتهما مني.

وبعد أسبوع جاءت البرقية.

أحضرتها عاملة التنظيف إلى الداخل. أخذتها لِينتشيه وفجأة سقطت بشكل غريب على الأرض.

عرفتُ ما حدث. لم أكن مُضطرَّة لقراءة البرقية.

وضعنا لِينتشيه في سريرها – لم أفكر حتى في الذهاب إلى سويسرا، لم يكن ذلك لينفع في أي شيء. ذهب شقيق هانيس إلى هناك، وجلستُ مع لِينتشيه، ووضعتُ الكمادات على رأسها لعدة أيام.

هذا كل ما يمكنني قوله عن موت هانيس.

وهذا يتفق تمامًا مع ما أعرفه اليوم – إنه لم يمُت.

بعد بضعة أيام، بدأتُ أشك في أنه يمكن أن يكون قد مات

وذهب إلى الأبد - حلمتُ به كل ليلة، وكان على قيد الحياة، وتحدَّث إليَّ بطريقة طبيعية أكثر مما كان عليه الحال في السنوات الأخيرة. وكان ذلك رائعًا - فقط فكِّري في الأمر، لقد كان لي مرة أخرى، لقد جاء لي في أحلامي! أظلُّ سعيدة عندما أستيقظ في الصباح، وأنتظر بصبر مساء اليوم التالي. انتهى أمر الخوف الرهيب على هانيس للأبد - لقد عاد مِلْكًا لي بمفرده، وكان رَجُلي مرة أخرى، ولم يستطِع أحد أن يسلبني إيَّاه. كنتُ مُتأكِّدة من أني سأكون قادرةً على الاحتفاظ به إلى الأبد.

كان يأتيني، وأحيانًا يضع ذراعه حولي، وكان دائمًا له الوجه المُعتَاد نفسه المليء بالحيوية، ولم أحلم أبدًا بأي شيء مُخيف حوله. خلال تلك الفترة، بعد وقت قصير من وفاته، كنتُ سعيدةً حقًّا مُجددًا، كما أنني بدوتُ أفضل قليلًا مرة أخرى. هذا ما قاله لي الناس - لقد كانوا مُحرَجين قليلًا حِيال ذلك، لكنهم قالوا: «لحسن الحظ، لم تعودي تبدين بذلك السوء.»

أعتقد أنه في كثير من الأحيان تبدو المرأة أفضل عندما تكون أرملة. شعرتُ بأن صحتي أفضل، أيضًا من حيث تفكيري، كل شيء من حولي أصبح طبيعيًّا، وأصبح كما كان من قبل. صرتُ أبالي بتدبير شؤون منزلي، أصبحتُ أساعد عاملة التنظيف عندما تأتيني، وأحيانًا نضحك معًا. قلتُ لنفسي مِرارًا وتكرارًا:

يمكنك فقط التفكير في هانيس، فهو الآن مِلْكُك مرة أخرى.

لكن يجب ألا تعتقدي أن هذه حكايات خرافية استرضيتُ بها نفسي. هذا هُرَاء، لم تكن تلك الحكايات لتشعرني بالرضا – ولكني شعرتُ بالرضا، ورأى الناس ذلك، وازداد وزني. كنتُ مُتأكِّدة تمامًا من أن هانيس سيأتي إليَّ ليلًا في أحلامي، كنتُ عرفتُ ذلك بالتأكيد كما أعرف أني أتنفس.

أعرف ما تريدين قوله: الأحلام رغوة سريعًا ما تتبدد. حسنًا، الآن أعلم ذلك، الأحلام تساعدنا فقط على خداع أنفسنا. لكنني لم أُدرك وقتها أنني أحلم بنفسي.

حتى لو ساعدتُ في دفن هانيس، حتى لو أمسكتُ جثته – كنتُ سأؤمن بشدة أنه يمكن أن يعود إليَّ في أحلامي إذا أراد ذلك.

هناك أناس يصدقون فقط ما يرونه. أما أنا فأعتقد في الأساس أن كل شيء ممكن، إلى أن أعرف أخيرًا ما يمكنني وما لا يمكنني تصديقه. ولم أستطِع أبدًا أن أصدق أن الناس قد ماتوا تمامًا وذهبوا – هذا مُضحك – كانت ثقتي فيما يتعلق بالرَّب أقل منها فيما يتعلق بالناس.

على أي حال، لم أستطِع أن أتخيل أن هانيس، بما لديه من طاقة وحماسٍ للحياة، يمكن أن يختفي فجأة، كما لو أنه لم

يكن موجودًا من قبل، حتى أنا لا يمكن أن أموت وأذهب إلى الأبد أيضًا. يتعين عليه أن يكون هناك، وهذا أمر مُؤكد، لكنني لم أعرف مكانه. لذلك كان من المنطقي بالنسبة لي أن يأتي إليَّ في أحلامي.

ولهذا السبب تمكنتُ من التحدُّث عنه، حتى إنني تحدثتُ مع عاملة التنظيف عن هانيس. لقد كان طبيعيًّا في فِكَري مرة أخرى – وأحببتُ أن أقول اسمه، حتى لو كان لعاملة التنظيف فقط.

لم يكن من الممكن التحدُّث إلى لِينتشيه عن هانيس – فهي لا تُجيب. كانت قليلة الكلام في ذلك الوقت، لكن من الواضح أنها تفكر كثيرًا. وقد فعلت يداها كل شيء بدقة ونظام كما كانتا من قبل، كما أنها اعتنت جدًّا بنباتات الشرفة الخاصة بنا، والتي أنساها في بعض الأحيان. وفكرت في كل أنواع المفاجآت لتلاميذها، فقد كانت تُدرِّس للأطفال الصغار. في موسم الكستناء، صنعت أشكالَ أشخاصٍ وحيوانات للأطفال، وفي الأسبوع الأخير من فترة عيد الميلاد المجيد، زيَّنت الفصل الدراسي بأقماع الصنوبر الخضراء المَطليَّة بالفضة. نعم. لهذا الأسبوع الأخير من عيد الميلاد. غريب، الآن لم أعُد بحاجة إلى قول الكثير.

جلبت لِينتشيه أيضًا أغصان التَّنُّوب إلى المنزل لتعليقها

في غرفنا، وكانت رائحتها طيبة مثل الصنوبر، والتي ذكرتني بالتنزُّه في الربيع مع هانيس عبر أشجار الصنوبر الصغير. في يوم الأربعاء قبل عيد الميلاد، زينت لِينتشيه المصابيح، والمرايا، وإطارات الصور بأكاليل خضراء، واستغرق الأمر وقتًا طويلًا للقيام بذلك، وفي غضون ذلك، قرأتُ جريدة الصباح بأكملها، باستثناء الإعلانات. كان الجوُّ هادئًا في الغرفة ورائحتها طيبة؛ كنتُ في مزاج جيد وأشعر بالرضا.

اطَّلعتُ على الإعلانات بسرعة؛ لأن لِينتشيه لم تكن قد انتهت بعد. ثم رأيتُ إعلانًا وجب عليَّ أن أقرأه، ولفت انتباهي العنوان الجريء – كان نصه: «جلسات روحانية».

لم أحضر جلسة روحانية من قبل، لكنني سمعتُ عنها من قبل. عاش صديقٌ لهانيس في إنجلترا بعد فترة وجيزة من الحرب، وأخبرنا أن العديد من الجلسات تُعقد هناك في ذلك الوقت لأن الناس أرادوا التواصل مع موتاهم. قال إنه يتعين على المرء إحضار شيء من حوزة المتوفَّى، ويمكن للوسيط استخدامه كدليل.

تذكرتُ ذلك في أثناء قراءة الإعلان، وقررتُ الذهاب على الفور. التاريخ والمكان كانا مَكتوبَين، وكانت الجلسة في المساء نفسه في أحد النوادي.

انتهت لِينتشيه من أكاليل التَّنُّوب، وعرضتُ عليها الإعلان، وقلتُ إنني سأذهب، ويمكنها أن تأتي معي. نظرت إليَّ غير مُتفهمة، فقلتُ لها إنه ربما يمكننا سماع شيء من هانيس هناك.

واصلت النظر إليَّ ورفَّت بعينيها، كما تفعل غالبًا عندما تريد أن ترى شيئًا بوضوح، لأنها تعاني قصر النظر. ثم قالت: «يجب ألا تفعلي ذلك.»

سألتها: «لماذا لا تريدين أن تأتي معي؟» لأنه كان من الواضح أنني سأذهب.

لم تجِب لِينتشيه، وخرجت من الباب المُوصِّل إلى الغرفة التي كانت تخص هانيس. لاحقًا تابعتُها لأجعلها تفهم سبب رغبتي في الذهاب إلى تلك الجلسة.

جلستُ بجوار المنضدة الصغيرة بجوار الباب، التي اعتاد هانيس أن يُلقي عليها علب السجائر وقفازات الملاكمة ومجلاته عندما يعود إلى المنزل، وقد اجتمعت كومة من الأشياء التي لم أنظر فيها بعد.

كانت لِينتشيه قد وضعت مَزهريَّة كبيرة فيها زهور الهولي، وكان هناك هولي أيضًا على المنضدة بجانب الديوان. سألتها لماذا لم تزين غرفة هانيس بالتَّنُّوب الأخضر أيضًا، فقالت:

«هانيس كان يحب الهولي أكثر.» وبدأت في تنسيق الفروع، وكأنني لم أكن هناك.

ثم عدتُ إلى موضوع الجلسة، وأردتُ بالتأكيد الذهاب إلى هناك، وكان عليها أن تعرف السبب – لقد حلمتُ بهانيس كثيرًا، كما قلتُ، وربما أراد أن يخبرني شيئًا أكثر – خاصة أنه لم يتمكن من قول كلمة الوداع.

تكلمتُ وتكلمتُ، وهي تُنسق الأغصان، التي بدت جميلة حقًّا، كانت الثمار الكروية الثقيلة حمراء نارية، وكانت الأوراق ذات لمعان أخضر غامق. لقد تكلمتُ لفترة طويلة – أخيرًا تركت المزهرية، لكنها فجأة غطت أذنيها، وضربت بقدمها وصرخت: «اسكتي! بحق الرَّب، اسكتي! هذا لا يصح، يجب عليك ألا تفعلي ذلك – يجب ألا تفعلي».

لم أرَ لِينتشيه في مثل هذه الحال من قبل، سألتها: «لمَ لا؟ ماذا تعرفين عن مثل تلك الأمور؟»

نظرت في عيني مباشرة، وبدا لي أن غضبها قد هدأ، وقالت: «أنا لا أفهم أيًّا من هذا. لكن إذا كنتِ تؤمنين بذلك، فيجب ألا تذهبي».

سألتها: «ألا يجب أن أحاول أن أسمع شيئًا من هانيس؟»

فجأة وجدتها تقف أمامي مُنتصبةً، أمسكت بذراعي وهزَّتني

- كان الأمر فظيعًا، لم أرَها غاضبة هكذا من قبل، وبدا ذلك غريبًا جدًّا بالنسبة لها، لأنها لم تكن من النوع الذي يناسبه الغضب. لهذا السبب بالتحديد بدا الأمر في غاية الحُمق، كما لو أن الفأر يثور ضد القطة. لكنها لم تتركني، وصرخت بصوت حاد لم أسمعه منها من قبل: «يجب ألا تفعلي، لا يجب أن تذهبي، أنتِ لم تتركيه لحاله في حياته، هل يجب عليكِ أن تعذبيه في الموت أيضا؟»

ثم تركتني وهي تلهث - غادرتُ الغرفة مِن دون أن أنبس ببنت شفة. ومِن دون أن أغضب منها، لأنه كيف كان من المفترض أن تعرف ما أعرفه - أن هانيس قال لي في الحلم إنه كان يتوق إليَّ؟

أكلتُ بمفردي، ولأول مرة منذ سنوات عديدة، جلستُ وحدي إلى المائدة مرة أخرى، مِن دون لِينتشيه ومِن دون هانيس. لقد أغلقت لِينتشيه باب غرفته خلفي - كان من المُضحك أنها كانت مُتمرِّدة للغاية، ولم أكره ذلك، وفكرتُ: لديها أعصاب ضعيفة، لكن يبدو الآن أنها أصبحت أكثر قوة تدريجيًّا. كنتُ حقًّا في مزاج جيد؛ لأنني كنت ذاهبةً إلى الجلسة.

بعد تناول الطعام، ارتديتُ ملابس أنيقة، وأخذتُ وقتي في ذلك، وأخذتُ أفضل معطف لديَّ، ووضعتُ المساحيق على أنفي مرة أخرى. عندما كنتُ على وشك أن أرتدي قبعتي المخملية

الخضراء الجديدة، رأيتُ في المرآة أن شعر الصدغ لديَّ أصبح أبيض تقريبًا، أمسكتُ القبعة في يدي، وتساءلتُ عما إذا كان يجب أن أصبغه باللون الأسود أم البُنيِّ. بعد فترة، قررتُ أن أرتدي القبعة ذات اللون البُنيِّ الذي يميل إلى الحمرة، عندها فقط ارتديتُ القبعة، ببطء وحذر حتى لا يخرج الشعر الأبيض من تحت الحافة. ومع ذلك، انتهيتُ من ارتداء ملابسي مُبكرًا جدًّا، وغادرتُ المنزل قبل نصف ساعة من الموعد.

لكن في مُنتصَف الطريق إلى النادي، تذكرتُ أنني لم آخذ أيًّا من أشياء هانيس معي؛ لذلك كان عليَّ أن أستدير وأعود. أخذتُ القلم الرصاص الفضي الذي حمله هانيس دائمًا في جيب سترته، وكنتُ أستخدمه على مكتبي الصغير.

ثم كان هناك ما يكفي من الوقت للذهاب بالترام إلى النادي. كان عليَّ أن أدفع خمسة وسبعين سنتًا للدخول، الأمر الذي بدا لي وكأنه مبلغ غير مُكتمِل – أتذكر أنني أعطيتُ السيدة الشابة جولدن، وتركتُ العملة التي أعطتني إيَّاها.

كان الضوء في القاعة كالمُعتَاد، لم يكن هناك شيء غامض أو مُخيف، تمَّ شَغْل جميع المقاعد، حسبتُ مجموع رسوم الدخول، ووجدته مبلغًا كبيرًا. لم أكن مُتوترة أو مُتحمسةً على الإطلاق، كان حولي أشخاص مثلي دفعوا أموالًا أيضًا؛ لأنهم أرادوا اكتشاف شيء ما أو كانوا ببساطة فضوليين.

قبل أن يأتي الوسيط، تحرك بيننا رجل بصينية خشبية كبيرة كان من المفترض أن نضع عليها الأشياء التي جلبناها معنا. عندما مدَّ الصينية أمامي، سرعان ما وضعتُ القلم عليها، والذي حملتُه في يدي طوال الوقت، وكان هناك العديد من العناصر اليومية الأخرى – المَحافِظ، والبطاقات البريدية، والساعات، والحقيبة المخملية الحمراء – لقد كان خليطًا مثل الذي يوجد لدى كل شخص في المنزل مِن دون أن يلتفت إليه.

ولكن عندما كانت الصينية على الطاولة، بجانب الدَّوْرق والكوب اللذين يقفان عادةً على مفارش المائدة الخضراء، بدا الأمر كما لو أن تلك الأشياء كانت تنتظر شيئًا ما.

كان الوسيط الذي عقد الجلسة امرأة، وكانت غير مُلفِتة إلى حد ما؛ لو جلست أمامي في الترام، لما نظرتُ إليها. كانت ممتلئة الجسم، وذات ذقن مُزدوَجة، كانت ترتدي – مثل العديد من النساء البرجوازيات المُحترَمات – فستانًا حريريًّا أسود عفا عليه الزمن. وصوتها بدا أيضا وكأنها امرأة برجوازية صالحة.

لكن حتى كلماتها الأولى كانت غريبة، قالت: «سأصف أولًا بعض الأرواح التي أشعر بوجودها هنا في هذه الغرفة.» ثم أصبحت نظرتها جامدة وزجاجية قليلًا – كما هو الحال مع الأشخاص الغارقين في فِكَرهم.

نظرت من فوق رؤوس الجالسين، ثم أشارت إلى القاعة وبدأت في الوصف: «خلف السيد في الصف الأول – السيد ذو الياقة المصنوعة من الفِرَاء – سيدة عجوز. لديها وجه ممتلئ، وفم واسع، الآن تضحك، فاقدة لأحد أنيابها – توجد حقيبة تسوُّق سوداء مُعلَّقة على ذراعها».

ذهبت كل الأنظار، بالطبع، إلى ذلك السيد، الذي لم يكن في الواقع رجل نبيل، ولكنه سائق. كنتُ سعيدة لأنه لم يكن أحد ورائي.

وصفت الوسيطة الروحية عددًا من الظواهر الأخرى، وبدا على بعض الحضور أنهم يفهمون ما تقول، وكان من المُمتِع حقًّا مشاهدة ردود أفعالهم.

ثم التقطت الوسيطة الروحية عنصرًا من فوق الصينية. وفجأة انتهت التسلية. ركزتُ تمامًا على ما إذا كانت يدها وصلت إلى القلم الرصاص الفضي أم لا.

مرَّت ساعة، لمست المرأة العديد من الأشياء، ووصفت خصوصيات أصحابها – لم يتمكن الناس دائمًا من معرفة ما إذا كان كل ما قالته صحيحًا. أومأ بعضهم برأسه، وضحك معظمهم، لكن بعضهم الآخر جلس جامدًا وغير مُتأثِّر.

كما قدَّمت الوسيطة الروحية نصائح عندما كان العنصر

المَعْنِيُّ يخصُّ شخصًا على قيد الحياة. أخبرت رجلًا كبيرَ السن أن مُدبِّرة منزله، التي أحضر معه حقيبتها المخملية الحمراء، كانت امرأة صعبة المراس، لكنها ستبقى معه لفترة طويلة؛ وبدا غير سعيد لسماع ذلك – لقد أراد أن يعرف كيف يمكنها التخلص من الصداع الذي تعانيه، فنصحته باستخدام الكمادات المُبلَّلة، وما شابه ذلك. استمتع الآخرون بذلك الرجل الكبير.

نعم، كانت تلك ساعات غريبة – لم يكن هناك موضوع كبير جدًّا أو صغير جدًّا بالنسبة للمرأة، لقد تعاملت مع كل شيء – تحدثت إلى أمٍّ فقدت طفلها، ووصفت الطفل، وجلبت منه كلمات لطيفة لأمه – وفي اللحظة التالية عالجت مشكلة تذكرة ترام شهرية مفقودة، وقالت إنها موجودة على الرَّف السفلي لخِزَانة الكتب. كان كل شيء إنسانيًّا جدًّا، وحقيقة أن تكلفة الدخول كانت خمسة وسبعين سنتًا، بدت منطقية بالنسبة لي – فبعد كل شيء، كان المال أيضًا شيئًا شائعًا جدًّا، علينا جميعًا التعامل به.

فجأة حملت المرأة في يدها القلمَ الفضي – وتوقَّف قلبي. ولكن بعد ذلك بدت وكأن أحدهم قد ناداها؛ فوضعت القلم جانبًا مرة أخرى.

تدريجيًّا شعرت بالملل، وأصبح الأمر بعد فترة رتيبًا، ولم

يكن صوت الوسيطة الروحية لطيفًا أيضًا. عندما تتحدث بحيوية، كان ذلك مُحتملًا، لكنها تعود مِرارًا وتكرارًا إلى نغمة الجلسات الروحية، وتنظر إلى القاعة، وتقول بصوت امرأة من الطبقة المتوسطة: «هل يمكنك التحقق من صحة ذلك من فضلك؟»

ولكني لم أستطِع الذهاب؛ لأن القلم هناك مع الأشياء الأخرى، وما زلتُ آمل أن تخبرني شيئًا يمكن أن يكون مفيدًا لي. ولكن بعد ذلك رأيتُ في ساعتي أن الوقت المُخصَّص كاد تقريبًا أن ينتهي.

لقد خطر لي أنه يمكنك جعل الآخرين يفعلون شيئًا مُحددًا إذا أردت ذلك حقًّا؛ لذلك حوَّلت كل رغباتي القوية نحو المرأة، ونظرتُ إلى عينيها اللامعتين المحدقتينن، وأجبرتُ إرادتها على الخضوع لإرادتي - يجب أن تأخذ قلم هانيس الرصاص الفضي.

فجأة رفعت ما كان في يدها، وحركت أصابعها عبر الصينية كما لو أنها تبحث عن القلم، وأمسكت به.

لقد شعرتُ بالصدمة، لقد فعلت ما أردته بالفعل. نظرت في اتجاهي بالفعل، لكن فوقي، إلى شيء خلفي، كما فعلت من قبل مع الآخرين، ثم وضعت القلم في راحة يدها، ورفعته

بصعوبة، كما لو أن شيئًا ثقيلًا مُلقًى فوقها.

قالت ببطء: «هذا غريب، يبدو الأمر كما لو أنني اضطررت إلى رفع هذا الشيء من الأعماق - الجو بارد جدًّا هناك، وأطراف أصابعي أصبحت باردة جدًّا، وتتجمد.» وارتجفت. ثم عادت فجأة إلى نظرتها العادية، وقالت بصوت جلسة تحضير الأرواح: «أولاً سأصف الأشياء التي يرقد فيها هذا القلم الرصاص. أرى علبة سجائر، علبة فضية روسية، بها حرف واحد فقط في الزاوية - هل يعرف أي شخص في الغرفة ما إذا كان هناك شيء محفور في تلك العلبة؟ «

أومأتُ برأسي، ونظر من حولي على الفور إليَّ - كان ذلك فظيعًا - لكنني أردتُ الصمود، أردتُ أن أعرف ما يمكن معرفته.

«هناك أيضا عام، أرى تسعة وثلاثة – 1923م - هل هذا صحيح؟»

أومأتُ برأسي مرة أخرى، كان ذلك صحيحًا تمامًا، فقد فاز هانيس بعلبة السجائر في مسابقة للسباحة في عام 1923م.

تابعت المرأة «الآن أرى منديلًا أيضًا، منديل رجل - حرير أزرق غامق بحواف بيضاء. هل هذا صحيح؟»

انتظرتُ بلا حِراك - رأيتُ المنديل أمامي الذي أعطته لِينتشيه لهانيس في عيد ميلاده الأخير. ثم قالت الوسيطة الروحية: «الآن

سأصف مرة أخرى الروح التي أرى وجودها. خلف السيدة في الصف السادس، السيدة ذات القبعة الخضراء، يقف رجل. رجل أشقر، شاحب قليلًا، لكن بِنيته متينة. الآن يشير إلى ندبة، ندبة بيضاء واسعة على ذراعه اليمنى».

كان عليَّ أن أضع يدي أمام عيني، كما رأيتُ الندبة على ساعد هانيس، بعد أن حطم لوح زجاج باب المطبخ. تابعت الوسيطة الروحية: «يريدني أن أقول شيئًا، إنه قلق بشأن الشخص الذي تركه وراءه بعد انتقاله. من المفترض أن أرسل تحذيرًا».

فجأة رفعت رأسها وكأنها تستمع. عندما تحدثت مرة أخرى، كان صوتها مختلِفا تمامًا، عميقًا، مثل صوت الرجال. وبهذا الصوت قالت: «لانه؟ لينه؟»

وبعد ذلك، مرة أخرى بنبرة واقعية: «هل يمكنك التحقق مما إذا كان هذا صحيحًا؟»

لم يعُد بإمكاني التحقق من أي شيء - كنتُ مُتجمِّدةً في مكاني - لم أكن قادرة على نُطق كلمة أخرى، كان قلبي ينبض بضربات قوية، حتى شعرتُ به في حلقي.

وضعت المرأة القلم، وأخذته مرة أخرى، ودارت بإصبعها عليه، ثم تابعت: «يجب أن أتحدث، يقول، هناك شخص ما عليه أن يساعده».

أدارت عينيها إلى الجانب كما لو أنها تستمع باهتمام؛ ثم قالت شيئًا مرة أخرى، كان صوتها مُرتفعًا وخائفًا، تحدثت بسرعة كبيرة.

«هناك خطر - الشابة الشقراء التي تقف بجانبه في خطر، لكنه لا يستطيع الوصول إليها - يجب أن تأتي المساعدة من مكان آخر.»

ثم وصفت المرأة بصوتها الطبيعي تلك الشابة، لاحظت على الفور أن الأمر يتعلق بلِينتشيه - تحدثت عن شخص صغير الحجم له شعر أشقر مُجعَّد، وعينان زرقاوان، ووصفت طريقة لِينتشيه المُعتَادة عند إمالة رأسها إلى جانب واحد. كانت الشابة ترتدي رداء أبيض، على حد قولها، رداء أو ثوب نوم. كان ذلك مُمتعًا - لم تحب لِينتشيه أبدًا ارتداء البيجامات. أومأتُ برأسي، حتى الآن كان كل شيء على ما يرام - لم أفهم لماذا يجب على هانيس حماية لِينتشيه.

ظلت المرأة تتحدث، وهي تنظر إلى شيء خلفي، وتبتسم عدة مرات لشيء تراه. ثم قالت: «الشابة لديها خصلات شعر أشقر جميلة، وهي الآن تلفُّ شريطًا أبيض حولها. الرجل يقف بجانبها يراقب - الآن يضع يده على رأسها - إنهما زوجان جميلان».

قفزتُ فجأة، والتفت الناس نحوي، على ما أعتقد، لكنني صحتُ رغم ذلك: «هذا ليس صحيحًا! أنتِ مخطئة!»

قالت الوسيطة الروحية: «أنا لستُ مخطئةً»، وكما لو كانت تُخاطب طفلًا مُتمردًا، «هذان الشخصان ينتميان بعضهما إلى بعض، وهما مخطوبان أو متزوجان».

وقفتُ مُنتصبةً مثل الشمعة، شعرتُ بالبرد القارس، ثم صرختُ عبر القاعة فوق الرؤوس العديدة بأن أيًّا من هذا لم يكن صحيحًا، هذان الشخصان لم يكونا مخطوبين، ولا متزوجين. لم تستجِب المرأة، قامت بحركات يد خفيفة فقط، كما لو كانت لإزاحة بعوضة أو ذبابة. وتمنيتُ لو أستطيع إزاحتها عن المِنصَّة.

ثم تابعت، بفظاظة وغضب نوعا ما: «لا تعارضيني. عندما أقول إن الأمر كذلك، لديَّ أسبابي لذلك، لا يمكنني شرح ذلك الآن. نحن نرى الروابط بين الناس بشكل مختلِف عنكِ، نرى علاقة الزواج هذه بشكل مختلِف تمامًا».

ثم أسقطت القلم، فجأة كما لو أنها أحرقت نفسها به – عادت عيناها الطبيعيتان مرة أخرى وقالت في القاعة: «لا أريد أن أقول أي شيء آخر عن هذا الموضوع. يمكن للسيدة ذات القبعة الخضراء القدوم لرؤيتي في غرفة الاجتماعات بعد ذلك

- سأكون سعيدةً بإخبارها بالمزيد».

أردتُ أن أذهب – ولكن للقيام بذلك كان عليَّ أن أتخطى الكثير من الناس، وهذا أزعج القاعة بأكملها، لكن لم يوقفني شيء هناك، لم أفكر حتى في القلم، أردتُ فقط العودة إلى المنزل.

اضطررتُ إلى الفرار. الحيوانات التي تُصاب برصاصة قاتلة تهرب إلى وكرها لتموت هناك، سمعتُ ذلك مرة. وهربتُ إلى المنزل، مثل شخص أعمى، دفعتُ قدمي إلى الأمام، وتحسستُ طريقي على طول الرصيف وجدران المنزل – واضطررتُ كثيرًا إلى الضغط بيدي على عيني ثم على قلبي، الذي كان ينبض بشدة لدرجة الإيلام، شعرتُ بقلبي ولم أعُد أستطيع التفكير في أي شيء. لكن أمام منزلنا أدركتُ فجأة أن لِينتشيه كانت في الطابق العلوي في الشقة وأنه كان عليَّ أن أسألها شيئًا.

ولكن ماذا، لم أكن أعرف، وقفتُ أمام الباب الأمامي، ولم أستطِع إدخال المفتاح في القفل - أردتُ فقط الدخول بسرعة إلى لِينتشيه.

كان كل شيء مُظلمًا في الطابق العلوي، ولم أجدها. أشعلت

الأضواء في كل مكان، في غرفتها وغرفتي وفي غرفة المعيشة – لم تكن في أي مكان. ثم لاحظتُ أن باب غرفة هانيس كان مُغلقًا. وقفتُ أمامه، ولم أستطِع الذهاب أبعد من ذلك. كان هناك تراب عالق في أحد أركان لوحة الباب، وكشطتُه بمسمار، ثم رأيتُ بصمة متسخة وفكرتُ: كانت يدا هانيس شديدة السواد عندما يعود من الملعب الرياضي.

وفجأة علمتُ مرة أخرى أن هانيس مات، وأنه خانني مع لِينتشيه.

ثم اتضح لي كل شيء مثل ضربة البرق. فجأة عرفتُ كل شيء، رأيتُ كل شيء. سمعتُ حركة خلف الباب – الآن أصبح واضحًا لي سبب عدم رغبة لِينتشيه في الذهاب إلى الجلسة.

طرقتُ الباب فلم يُفتَح. ضربتُ وطرقتُ، لكن لم يصدر صوت من الداخل.

لذلك بحثتُ حولي عن شيء لأكسر به الباب، لكن لم يكن هناك شيء في الغرفة، لذلك أخذتُ العصا الخيزران ذات المقبض الرصاصي الذي كان بجانب عصا الهوكي الخاصة بهانيس في الرُّدهة.

تركتُه يتأرجح لفترة وجيزة – لقد كان سلاحًا، عرفتُ أنه يمكن تحطيم لوحة الباب به بسهولة. كان هانيس يضع العصا

بجانبه دائمًا عندما ننام في الخيمة أو في القارب، وسألته ذات مرة عما إذا كان يفضل شراء مسدس - ثم قال إن الأسلحة النارية تقليدية جدًّا بالنسبة له، وأن الرجل يجب أن يستخدم يديه والعصا. كما أراني كيفية استخدام العصا، وكان يمسك بالمقبض في يده، وكانت القصبة تكفيه.

قال: «أنا أضرب بالمقبض فقط في حالة الطوارئ، ما يُضرب بالمقبض ينتهي أمره».

لطالما احترمت العصا، والآن أمسكت بها بإحكام حتى أتمكن من الدخول إلى غرفة هانيس. كان هذا شعورًا جيدًا، لكنني لم أذهب مباشرة إلى الباب، بدلًا من ذلك جربتُ العصا على الأرضية - وبالفعل أحدثت ثقبًا في مخمل الأرضية.

ثم ذهبتُ إلى باب الغرفة، وفي تلك اللحظة تحديدًا فتحت لِينتشيه الباب.

فكرت أنها كانت ترتدي ثوب نوم، لذا لم تكن في غرفة هانيس طوال المساء، ولكن لماذا كانت هناك مرة أخرى؟ ثم لاحظتُ أن ثوب نومها الأبيض كان طويلًا يصل إلى قدميها العاريتين، وأنها كانت ترتدي الشريط الأبيض الذي يحافظ على شعرها بعيدًا عن وجهها في الليل.

دخلتُ الغرفة ونظرتُ حولي - ماذا فعلَت هناك؟ ثم رأيتُ

سترة هانيس الرياضية البيضاء على الديوان، ولم تكن موجودة هناك من قبل.

أخذتُها وشعرتُ بملمسها الصوف على يدي، وفجأة شممتُ رائحة أن هانيس قد ارتدى السترة، على جسده، على جلده - شممتُ رائحة هانيس، كيف تحرك في ملابسه، شعرتُ بدوار شديد. أعدتُ السترة إلى الديوان، وربتُّ بأصابعي عليها. شعرتُ ببقعة رطبة، فالتفتُ إلى لِينتشيه، ورأيتُ آثار الدموع على وجهها.

ثم أصابني هياج، لا أتذكر بالضبط ما قلتُه - أعتقد أنه كان شيئًا فظيعًا - لا يزال بإمكاني رؤية وجهها الأبيض، وفمها المفتوح.

نظرت إليَّ لوقت طويل مِن دون أن تقول شيئًا، أو لعلها قالت شيئًا لم أسمعه. أنا أعرف فقط، وبالتأكيد تمامًا، أنها قالت شيئًا وهي تتكئ على الطاولة بجانب أزهار الهولي، قالت: «لم تستحقيه».

ثم انفجرت بالبكاء – ووضعت قبضتيها على فمها، وهي تبكي – كانت تنوح كما اعتادت عندما كانت طفلة، وبدت من وراء يديها خائفة جدًّا، ثم قلتُ لها، «كيف أمكنكِ أن تخونني هكذا؟»

نعم، لقد قلتُ ذلك، لقد ألقيتُ باللوم عليها. لقد نسيتُ تمامًا أن هانيس لم يكن لي في الوقت الأخير من حياته – حتى يومنا هذا ما زلتُ لا أفهم كيف حدث لي ذلك. لكنني لم أعُد أفكر في الأمر بعد الآن، شعرتُ بأنها سرقتني، هي من بين كل الناس – وأردتُ أن أعرف ما الذي سرقته. صرختُ فيها لتتحدث، لكنها كانت تبكي ولم تقُل شيئًا، لذلك صرختُ فيها، «عاهرة!» وفي تلك اللحظة رفعت رأسها نحوي بسرعة.

يا إلهي، لم أعرف ما كنتُ أقوله – كان قلبي يؤلمني فقط، وكل شيء يؤلمني – لم أستطِع الاستمرار. لكنها بالطبع لم تكن تعرف ذلك، لقد وقفت مُنتصبةً وصارمة أمامي، لقد كانت مُتفوقة عليَّ، لقد رأيتُ ذلك. ثم قالت: «أنتِ قذرة. صحيح أنكِ قذرة. عندما كنتِ تقولين ذلك عن نفسكِ من قبل، لم أكن أصدق ذلك، لكنني أراه الآن».

لقد أصابني ذلك بصدمة رهيبة، شعرتُ بالبرد من شدة الصدمة، كانت على حق، عرفتُ ذلك. لكن بعد ذلك تذكرتُ ما قالته الوسيطة الروحية عن الزواج والزوجين الجميلين – وكانت تعني هانيس ولِينتشيه – عضضتُ على أسناني وصرختُ: «أنتِ عاهرة، أنتِ أقذر مني. والآن ستخبرينني بكل شيء».

وقفت أمامي بوجهها الأبيض وبدأت في الكلام، لقد بذلَت جهدًا حقًّا، وتلاشت القسوة مرة أخرى، ربما شعرتُ بالأسف من أجلي.

ارتجف صوتها، لكنها قالت ما أريد أن أعرفه: أنها أحبت هانيس وأحبها.

يا له من جنون!، لم يكن هذا شيئًا جديدًا - بالطبع لقد أحبا بعضهما بعضًا طالما عاش هانيس معنا؛ أردتُ أن أعرف بالضبط ما كان بينهما.

لقد استمعتُ وانتظرتُ، تحدثت لِينتشيه ببطء شديد وبصوت هادئ ومرتعش. بدا الأمر وكأنها كانت تُسمِّع درسًا. فكرتُ: يا لها من طفلة، يا لها من طفلة خائفة. لكنها نظرت بعيدًا فجأة بابتسامة سعيدة غريبة ارتسمت حول فمها، وفكرتُ: الآن هي سعيدة؛ لأنها تمكنت أخيرًا من التحدُّث عنه.

لقد حكت كل شيء، رأيتُ أمامي - كيف كان هانيس يجلس معها، في البداية صامتًا جدًّا في حزنه بسببه وبسببي، وكيف قال الكثير لاحقًا، حتى إحدى الأمسيات في الصيف، ذلك الصيف، جلس على ركبتيه أمامها، ووضع رأسه في حجرها.

غريب. لم أرَ هانيس قط جالسًا على ركبتيه.

تابعت لِينتشيه: «لقد أحببتُه، لفترة طويلة جدًّا، ربما طوال حياتي، لكنني عرفتُ أنه مِلْكك. لقد احتاجني وأراد أن يأخذني بين ذراعيه، لذلك قلتُ إن ذلك لا ينبغي أن يكون، لن يكون مفيدًا له لأنه مُتزوِّج منكِ. قبَّلني هناك، مرة واحدة فقط في

حياته قبَّلني. لكن الآن لا يمكنني أن أغفر لنفسي أنني لم أحبه بالطريقة التي أرادها».

ظلَّت تنظر إليَّ، ثم مدَّت يدها خلفها بحثًا عن شيء لتتمسك به، المَزهريَّة التي بها زهور الهولي سقطت وتحطمت على مقبض معدني. اتكأت لِينتشيه على الطاولة، وجُرِحت يدها في شظية، نزفت يدها، ولكنها لم تلاحظ ذلك، وقالت: «لقد كنتُ أمينةً جدًّا، وأردتُ أن أكون كذلك بدافع الشفقة عليكِ، اعتقدتُ أنكِ تحبينه. لكنكِ تحبين نفسكِ فقط، والآن أراكِ للمرة الأولى، لم أُصدق ذلك أبدًا – لم أرغب في تصديق هانيس».

ثم انهارت فوق الديوان، وبكت وصرخت – وتحدثت إلى هانيس. استلقت ووجهها لأسفل على سترته البيضاء، وأعطته ألقاب تدليل لم أعرفها من قبل؛ وقالت إنها نادمة على تركه يذهب. سمعتُها تتحدث إليه قائلةً: «يا حبيبي المسكين، يا فتاي المسكين».

كل كلمة قالتها أخبرتني أن هانيس قد أُخذ مني، وأنني فقدته إلى الأبد؛ وأخيرًا قد سمعتُ ما يكفي لأفهم بالتدريج شيئًا ما. بعد أن أدركتُ أنه ليس لديَّ مستقبل، ولا حتى بعد موتي، كنتُ وحيدةً ومهجورةً – لم أشعر أبدًا أني مسكينة بهذا

القدر من قبل.

صدقيني – ما كان ذلك كله ليحدث لو لم أحمل العصا في يدي – لو اضطررتُ أولًا إلى الركض إلى الرُّدهة، ما حدثَ شيء. لم أكن مُستاءةً أو غاضبةً، ولم يكن هناك سبب لذلك، كان بإمكان الجميع أن يفعلوا ما يريدون من تلك اللحظة فصاعدًا. ولكن كان هناك شيء يجب عليَّ فعله، لم أستطِع تحديد ما هو، ولم أكن أشعر بالفضول حِيال ذلك، وفكرتُ فقط أنني: سأتذكره مرة أخرى بعد ذلك.

وقفتُ هناك ولم أصدق أنه يمكنك أن تكون وحيدًا جدًّا هكذا في هذا العالم. عليكِ أن تتخيلي أن كل شيء سُرِق مني في ليلة واحدة – لم يعُد لدي هانيس، لأن الأحلام كانت رغوة وتبددت، وفقدتُ لِينتشيه إلى الأبد. لم يتبقَ أحد ممَنْ لا يزال بإمكانه أن يحبني – قالت لِينتشيه بنفسها إنها تراني على حقيقتي الآن. لقد لعبتُ بالعصا قليلًا– والفكرة المُزعِجة بضرورة القيام بشيء كانت تراودني، لكنني لم أستطِع معرفة ما أفعل.

عليكِ أن تصدقيني – إذا لم تسقط عيني على شعر لِينتشيه الأشقر الجميل، ما حدث شيء، لو نظرت إليَّ مرة واحدة فقط كما تفعل عادةً، فلربما انهمرت دموعي، ثم كان كل شيء مُختلِفًا – ولأصبح العالم كله مُختلِفًا. لكنها لم تنظر إليَّ، بل ظلَّت على ركبتيها أمام الديوان، وشعرها الأشقر مُنتشِر فوق

سترة هانيس، نظرتُ إلى ثنايا الشعر الناعم، ولم يكن هناك شعرة رمادية واحدة فيه – أما أنا فقد كنتُ مُضطرَّة لصبغ شعري.

ثم فكرتُ: لا عجب أنه لا يزال يحبها حتى بعد وفاته. في اللحظة التالية أدركتُ أن كل ذلك كان مُجرد هُرَاء، لكنه لم يُحدِث فرقًا، لقد آلمني ذلك الهُرَاء.

لقد أزعجني كثيرًا أن رأسها كان على سترة هانيس – كنتُ أعرف كيف كانت رائحتها وشعرتُ بها، كنتُ أضع رأسي عليها. لمستُ كتفي لِينتشيه على أمل أن تنظر إليَّ، لكنها لم تفعل ذلك، واصلت ضغط وجهها على السترة.

عندها فقط أدركتُ أنني كنتُ أمسك العصا، ومقبضها الرصاصي لأسفل.

حركتها بين يدي قليلًا مرة أخرى، تمايل المقبض ذهابًا وإيابًا عندما حركتُ العصا، كانت لعبة، وفي الوقت نفسه كانت عيناي ثابتتين على رأس لِينتشيه الأشقر على الصوف الأبيض.

فجأة خطر شيء ببالي – فكرتُ في يدَي هانيس، وكيف وضعهما على رأس لِينتشيه مساءً يوم رحيله، على شعرها الجميل الناعم، ورأيتُ مرة أخرى كيف وضع خده على جبينها بحنان.

ثم اندلع الألم الرهيب في داخلي مرة أخرى؛ لذلك رغبتُ في الذهاب إلى المنزل، كان ألم لا يطاق - حتى بثور الحرق على الجسم كله لا يمكن أن تؤلم بهذا الشكل الرهيب – ألمٌ لا يمكن وصفه لأي شخص. كان الألم يحترق بداخلي وخلف عيني وقلبي.

أمسكتُ بالسترة لسحبها من تحت رأس لِينتشيه، أردتُ أن أضع عينيَّ المغلقتين على كنزة صوفية ناعمة كان زوجي يرتديها على جسده.

لكن لِينتشيه شدتها بكلتا يديها، وضغطت عليها بوجهها بقوة أكبر.

لذلك ركلتُها على ركبتها لأجعلها تقف، لكنها لم تلاحظ ذلك حتى - لقد وضعت ذراعيها على السترة حتى لا أستطيع الوصول إليها. وعندها ضربتُها حتى الموت.

بهذه البساطة. ضربتُها حتى الموت. لقد فعلتُ ذلك، وأعرف كيف، لا يزال بإمكاني الشعور بأرجحة العصا في يدي - أحيانًا أقوم من السرير وأمدُّ ذراعي اليمنى، تمامًا مثل ذلك المساء. فقط لا تعتقدي أنني تصرفت مِن دون وعي - دعي المحامي والطبيب يقولان ما شاءا - كنتُ أعرف بالضبط ما أفعله، حتى لو كنتُ في تلك اللحظة أتجمد من الغضب. أردتُ كسر الرأس

الموضوع على السترة، أردتُ كسرها!

بالطبع، لم يكن لديَّ أي فكرة عما سيكون عليه الحال بمجرد أن أضرب – كل ما رأيته هو كيف ضربتُ رأس لِينتشيه فوق السترة. لقد أدهشني أن المقبض لم يرتد إلى الوراء بل عَلِق، وأن السترة تحوَّلت فجأة إلى لون الدم الأحمر، وكان من المُثِير للاشمئزاز تمامًا فصل مقبض العصا عن الشعر المُتشابِك وشظايا الجمجمة، وأصبحت أصابعي لزجة جدًّا وأنا أفعل ذلك.

بالنسبة لي كان الأمر برُمَّته مجرد أمر مُثِير للاشمئزاز وبغيض – أتذكر أنني أحضرت الماء العذب في وعاء عدة مرات لغسل الرأس، وظللت أضع أشياء أخرى تحتها خالية من بقع الدم. مزقتُ كل ما كان هناك من خِزَانة هانيس – مناديل، وقمصان، ووشاح رمادي من الحرير. مِرارًا وتكرارًا رفعت الرأس لأضعه على الملابس الداخلية النظيفة الخاصة بهانيس، والتي تلطخت على الفور مرة أخرى – ثم توقف الجرح عن النزف، ولكن ظلَّ هناك دماء على الشعر، وفي كل مرة اعتقدتُ فيها أنني قد نظفتُ بالفعل كل شيء، كنتُ أكتشف بقعة حمراء.

لكن أخيرًا تمَّ ذلك – ثم أدركتُ أن الرأس ينتمي إلى جسد لِينتشيه – ورفعتُها، كانت ثقيلة كما هي، رفعتُها فوق الديوان، وغطيتها بغطاء هانيس.

ثم رأيتُ أن جميع الأبواب مفتوحة، وأن الأضواء مضاءة في كل مكان، وعندها فقط لاحظتُ أن شيئًا غير عادي قد حدث. ما زلتُ أتذكر أنني أغلقتُ الأبواب، وضغطتُ على جميع مفاتيح الإضاءة، في كل مرة ينطفئ مصباح مُختلِف، كان ذلك مُمتعًا - عندما ساد الظلام التام في الشقة تنهدتُ - فكرتُ: حسنًا، الآن انتهت الكوميديا.

غريب - شعرتُ حقًّا وكأنني في المسرح، فقد شعرتُ بالرضا؛ لأن كل شيء انتهى كما ينبغي. خرجتُ من المنزل كما لو أنني أغادر المسرح عندما تنتهي المسرحية - لم يعُد لديَّ ما أفعله هناك.

ثم مشيتُ طوال الليل لفترة طويلة جدًّا، ولم أعُد أعرف إلى أين ذهبتُ، ولم أكن بحاجة إلى معرفة ذلك وقتها أيضًا - كنتُ هادئةً لدرجة أنني لم أكن بحاجة إلى معرفة أي شيء. مشيتُ في شوارع طويلة وبمحاذاة القناة، وكان ضوء القمر ينعكس على الماء، وشاهدتُ ذلك لفترة من الوقت.

عندما حلَّ الصباح وبدأ شروق الشمس، فُتِحت نافذة في الطابق العلوي لأحد المنازل، وألقى صبي أشقر يرتدي رداءً داخليًّا من قطعة واحدة نظرةً خاطفة، كان شعره أشقر مُجعَّد لطيف، ربما لم يكن قد بلغ الثالثة من العمر. مدَّ ذراعيه الممتلئتين، ووضع كومة صغيرة من قطع الخبز على الحافة

من أجل الطيور – مدَّ فمه من خلال شقِّ النافذة، ونادى بصوت عالٍ: «بيييب! بيييب!

ثم رأيتُ أن هناك ثلج على الحافة. وفجأة علمتُ أن العالم لا يزال موجودًا، وأنني قتلتُ أختي بالفعل.

جلستُ في مدخل البيت، والبلاط الأزرق مغطًّى بالثلج، ولكن لأن أشخاصًا مروا، قمتُ مرة أخرى، وسرتُ على الطريق. عندما كنتُ أمشي مسافة طويلة، كنتُ أجلس فترة لأستريح، لكن في كل مرة يمرُّ الناس كان عليَّ أن أقوم. مشيتُ هكذا طوال اليوم، لم يمضِ وقت طويل لأنه كان فصل الشتاء – لم أفهم سبب تأخُّر حلول الظلام. حلَّ الظلام أخيرًا، لكن نظرًا لأن مصابيح الشوارع أضاءت، سِرتُ بعيدًا حيث لا توجد أي مصابيح، سِرتُ إلى خارج المدينة.

جلستُ هناك على كومة من الرمال مُغطاة بالثلوج. وفجأة وقف شرطي أمامي بمصباحه. قال: «حسنًا، أيتها المرأة الطيبة، ما الذي يحدث هنا؟»

كنتُ سعيدةً لأن الشرطي وجدني، وهذا بالضبط ما كان يجب أن يحدث، طلبتُ منه أن يعود معي إلى المنزل لرؤية لِينتشيه.

وهذا كل شيء.

أيتها المُمرِّضة، ماذا تفعلين، هل تبكين؟ بسببي؟

كم هذا جميل، دمعة تنهمر على خدكِ بسبب شخص آخر. انظري - سأمسكها بإصبعي.

بالطبع، البكاء على الآخرين لا يؤلم ...

كل الدموع التي ذرفتها آلمتني - بكيتُها فقط بسببي. لكن الدموع التي لم أستطِع أن أذرفها؛ لأنها عالقة خلف عيني كانت تلتهب وتؤلمني بشكل أسوأ. كاد هذا الألم أن يصيبني بالجنون وأنا عندكم هنا - لم أعُد أستطيع حتى البكاء على نفسي؛ لأنني أصبحت ضائعة وتائهة تمامًا.

نعم. هكذا تنبَّأ لي أبي: أَمَّا طَرِيقُ الأَشْرَارِ فَتَهْلِكُ!

غريب، ولا يزال هذا لا يخيفني - لقد جعلني الرَّب نفسُه شريرةً، وجعلني أطرح الأسئلة ولم يعطِ إجابة. الآن أنا متعبةٌ جدًّا من طرح أي أسئلة أخرى. وأنا لا أتوقع المُعجزات أيضًا - الرُّب لا يفعل المُعجزات، حتى إنه لم يسمح لي بذرف الدموع بسبب لِينتشيه.

أيتها المُمرِّضة! ماذا تفعلين الآن؟ هل تُصلين من أجلي؟

# كلمة ختامية

ماريانه فيليبس (1886م ـ 1951م)
"موهبة خاصة جدًّا"
من ناشطة إلى كاتبة

أُجرِيت انتخابات محلية في هولندا في عام 1919م، حيث لم تتمكن النساء من الإدلاء بأصواتهنَّ فحسب، بل أُتيح انتخابهنَّ أيضًا لأول مرة. ترشحت جدتي ماريانه فيليبس، وهي عضو في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي (SDAP)، لانتخابات المجلس البلدي في بوسوم، حيث عاشت، وكان ترتيبها الثالثة في القائمة. وبالفعل انتُخِبَت وأدت اليمين.

لكن في النهاية لم تكُن المواءمة بين رعاية الرضيع وواجباتها الرسمية ممكنةً؛ لذلك استقالت بعد عام ونصف. انحدرت ماريانه فيليبس من عائلة ثرية من الطبقة المتوسطة. وُلِدت في منزل على القناة في كلوفينيرسبورجوال بأمستردام، حيث كان أيضًا متجر خردوات والدها. لكنه تُوفِّي قبل أن تبلغ ماريانه العامين، ولم يكن زوج والدتها الجديد قادرًا على الحفاظ على العمل الذي كان

مُزدهرًا في حياة والدها. وازدادت الأسرة فقرًا بشكل ملحوظ. كما فقدت ماريانه فيليبس وهي ابنة أربعة عشر عامًا والدتها أيضًا، وكانت في فترة النِفاس.

لم تكن يتيمة فحسب، بل كانت مسؤولة أيضًا – وهي ما زالت فتاة – عن أختها الصغرى غير الشقيقة، والطفل الرضيع. انتقلوا إلى منزل عُمال في منطقة ووترجرافسمير. بدلًا من الاستمرار في الالتحاق بالمدرسة الثانوية، كان على ماريانه فيليبس الاعتناء بشؤون المنزل، ورعاية الأشقاء، والمساعدة في خياطة المرايل في ورشة الخيَّاطة الخاصة بزوج والدتها. شعرت بالوحدة والحزن الشديد بسبب عدم حصولها على التعليم، وانعدام آفاق المستقبل. ومع ذلك، كانت ذكية طامحة للمثالية، ومُستعِدة للعمل الجاد.

أدركت أن عليها أن تأخذ زمام حياتها بيديها. في الثامنة عشر من عمرها تركت الأسرة الربيبة، وانتقلت إلى هارلم مع أختها الكبرى، سارة فيليبس، التي كانت مُتزوِّجة. وهناك بدأ مستقبلها. علَّمت نفسها بنفسها في البداية من أجل تعويض ما فاتها من مواد علمية في سنوات الدراسة الضائعة.

انضمَّت من دون الحصول على شهادة الدراسة الثانوية للعمل في شركة «إسحاق جوزيف أشير»، التي أصبحت بعد ذلك شركة

«رويال أشير دايموند»؛ حيث استفادت في العمل المكتبي من مهارات اللغات الأجنبية التي اكتسبتها. أصبحت عضوًا في «الرابطة الهولندية العامة للتجارة وموظفي المكاتب»، والتي كان زوجها المستقبلي سام جوديكت أحد مؤسسيها. ثمَّ انضمت في عام 1909م إلى حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي. عرفت حياة العمال، التي اتسمت بالفقر وانعدام الآفاق، بشكل مباشر، ولكونها امرأة عاملة حديثة، أرادت المساهمة في تحسينها. لذلك أصبحت ناشطة شغوفة. ألقت محاضرات في جميع أنحاء البلاد، وأصبحت في آخر الأمر، في عام 1919م، واحدة من أوائل النساء اللائي عملنَّ في مجلس محلي هولندي.

من عام 1927م إلى عام 1928م عملت مرة أخرى عضوًا في مجلس محلي. في ربيع عام 1927م كان من المفترض أن تُلْقي محاضرة سياسية في ماستريخت. بعد رحلة طويلة بالقطار، قامت بجولة في المدينة، ثم عادت إلى الفندق، وبدأت في الكتابة. لكن ما وضعته على الورق لم يكن ملاحظات لمحاضرتها حول المشاكل الاجتماعية الكبرى في ذلك الوقت، والوضع المقفر للفقراء – وخاصة النساء والأطفال – ولا نداء من أجل السلام العالمي. لا، لقد كتبت عما رأته في الساحات والكنائس في أثناء سيرها في المدينة، وما أحسَّت به. هكذا اكتشفت الكاتبة التي بداخلها، وهي في الأربعين من عمرها.

بعد أن كانت ناشطةً سياسيةً لِما يقرب من عشرين عامًا،

وقامت فضلًا عن ذلك بإدارة شؤون المنزل وتربية أطفالها الثلاثة، أصيبت بأوجاع جسدية، وشعرت بالمرض شعورًا جعلها تعتقد أنها ستموت. ومع ذلك، كان الأطباء مقتنعين بأن شكاواها ليست جسدية، بل نفسية، ونصحوها بالتحليل النفسي. من عام 1928م إلى عام 1931م تابعت حالتها مع د. أوهانس هيرمانوس فان دير هوب، وهو طبيب نفساني غير اعتيادي، حيث كان يسير في عمله على نهج فرويد ويونج، وكان لديه اهتمام كبير بالعمليات الإبداعية. حتى إنها رافقته في عام 1931م إلى فيينا لمدة ثلاثة أشهر تقريبًا، حيث تلقَّى تدريبًا مُتقدمًا.

تمكنت - بدعمه - من سبر أغوار دوافعها النفسية اللاواعية للتكرار، ومشاعر الخوف، والعار، والذنب، وانعدام الأمن. كما شجَّعها فان دير هوب على الكتابة. في السنوات التي عُولِجت معه، كتبت عملين De wondeble genezing الشفاء الإعجازي (1929م) وDe biecht الاعتراف (1930م).

وقد اختارت لكلا الكتابين شكل المونولوج. يدور «الاعتراف» حول امرأة تحت الملاحظة في مستشفى للأمراض النفسية؛ تروي للمُمرِّضة الصامتة قصة حياتها التي تنتهي بقتل أختها الصغرى. كانت ماريانه فيليبس على دراية بالليالي الطويلة في العيادات؛ لأنها في عام 1913م، بعد ولادة ابنتها الكبرى - والدتي - مكثت في عيادة فاليريوس في أمستردام لمدة ستة أشهر، مصابة بذُهان النفاس. تحتوي الرواية على مزيد من

عناصر السيرة الذاتية: سنوات الفقر في ووترجرافسمير، والعمل في ورشة الخياط، والحياة كامرأة عاملة شابة في غرفة مستأجرة رَثَّة، والأجواء الفاخرة لشركة «أشير»، وما يرتبط بذلك كله من مخاوف وأحلام وأوهام.

## العمل الأدبي

لم يكن من الشائع في عام 1930م أن يتم مُعالجة العمليات النفسية المُعقَّدة في الروايات، خاصةً من قِبَل النساء. هذا هو السبب الذي جعل «الاعتراف» كتابًا غير عادي يتجاوز تقاليد واتجاهات العصر. وبناءً على ذلك، كانت المراجعات التي نُشرت عنه مُختلَطة؛ رفض بعضُ النقاد الكتابَ رفضًا تامًّا، وثمَّنهُ آخرون لصدقه وحساسيته.

في صحيفة «التجارة العامة » *Algemeen Handelsblad* الصادرة في الثاني من مايو 1930م، كتبت آني رومين فيرشور عن ماريانه فيليبس أن «لديها ميل فردي للغاية نحو سرد قصص السيرة الذاتية المُصطنَعة قليلًا». ثم عرَّجت على خبايا مثل ذلك الشكل المُكثَّف، ألا وهو المونولوج، واختتمت مراجعتها بالكلمات: «ماريانه فيليبس تنتمي، حتى لو كانت أعمالها المُستقبلية ما زالت ستوضح لنا حدود موهبتها، على أي حال إلى مَنْ يولدون وعلى رؤوسهم خوذة الكتابة. لديها الوجه الثاني النادر لامرأة

مُتذوِّقة تعرف الناس وتفهمهم، وهذا الوجه تحديدًا هو ما يُميِّز جميع رواة القصص الحقيقيين، سواء كانوا يسمون رومانسيين أو واقعيين أو كلاسيكيين أو أيًّا كان. [...] نعم، أودُّ أن أقولها مرة أخرى: ماريانه فيليبس ألَّفت كتابًا جيدًا، إنها كاتبة روايات.»

كتب مُراجِع مجهول كتابةً إيجابيةً أيضًا في صحيفة Haagsche Courant في 20 أبريل 1931م. في مراجعته لكتابي De wondeble genezing الشفاء الإعجازي وDe biecht «الاعتراف»، ما يلي: «الشيء الجدير بالتقدير في هذين العملين، هو نغمتهما ومن ثَمَّ نقاؤهما. تمت صياغتهما بقوة نفسية – ذاتية، فهما ليسا مكونين تكوينًا رائعًا، ولا مبنيين بناءً صارمًا، ولكنهما يُظهران عاطفةً كبيرة. وهذا هو سبب إعجابي بهما.»

ومن ناحية أخرى، في حين جاءت من البيئة السياسية لماريانه فيليبس ردود أفعال مختلِفة تمامًا. في وقت مبكر من نهاية عام 1930م، ذُكر «الاعتراف» كما كان متوقعًا، ولكن دون مزيد من التعليقات، في مجلة «المرأة البروليتارية، مجلة للعاملين والنساء العاملات» *De Proletarische Vrouw, blad voor arbeidsters en arbeidersvrouwen*؛ ولكن في 9 أبريل 1931م، نشر أدريانوس ميشيل دي يونج نقدًا مُدمِّرًا في «صحيفة حزب العمال» dagblad voor de arbeiderspartij. وبقدر نجاح ماريانه فيليبس في عملها السياسي، لم يقدِّرها

حزبها بوصفها كاتبةً.

ولكن ذلك تغير مع مرور الوقت. ففي عام 1935م، ظهر مقال من عشر صفحات بقلم هندريك جيريت كانيجيتر H. G. Cannegieter عن الكاتبة وأعمالها التي سبق نشرها في «المُرشِد الاشتراكي» De Socialist Gids، وهو كتاب تمَّ نشره في مجلة حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي Sociaal-Democratische Arbeiderspartij. علَّق كانيجيتر على رواية «الاعتراف» على النحو التالي: «خشوع لا حدود له أمام مظاهر الحياة المُتنوِّعة – عدم وجود رغبة في تغييرها، وعدم الحكم عليها، وربما حتى عدم الرغبة في الفهم، وعدم الاكتفاء بالنفس، ولكن الانفتاح على كل شيء آخر بإحساسٍ وحب، إدراك الأشياء والأشخاص باهتمام، والتعامل معهم بعناية، والبحث عن ثروة من الاحتمالات الخفية في كل إنسان – وهذا، على ما أعتقد، هو سرُّ موهبة ماريانه فيليبس الخاصة.»

عبَّر أيضًا الشاعر والناقد الأدبي جان جريشوف Jan Greshoff في صحيفة «أرنهيم» Arnhemse Courant في 19 يناير 1935م بعد نشر رواية «زفاف في أوروبا» Hochzeitin Europa عن إعجابه الشديد. في مقالة طويلة انتقد الكاتبة بحدة، لكنه امتدحها أيضًا: «ما يحظى بتقدير خاص في هذا الكتاب [الاعتراف] هو الصدق المطلق الذي تعترف لنا به ماريانه فيليبس بأخطائها، وأوجه القصور لديها، بالإضافة إلى

موهبتها. لم يخطر ببالها حتى أن تذر الرمال في أعيننا. من دون استعراض قدراتها تمامًا، لديها ما يكفي من الثقة بالنفس لإظهار نفسها دائمًا، دون خجل وببهجة، كما هي، بما في ذلك جميع نقاط الضعف والعيوب - هذه هي بالضبط الطريقة التي يمكنك من خلالها التعرف على الطبيعة الفنية الحقيقية [...]. مع رواية «الاعتراف»، التي تحتوي على عدد من المقاطع الناجحة تمامًا، انفصلت ماريانه فيليبس عن جيش كتابة السيدات، وصعدت بازدهار بعيدًا عن بودير- بيكر، آمرز كولير، لوخورست، إيسيل دي شيبر وغيرهنَّ. ومع ذلك، لا ينبغي اعتبار «الاعتراف» عملًا لا تشوبه شائبة تمامًا؛ لأنه يحتوي على العيوب نفسها مثل الشفاء الإعجازي، أي عدم القدرة على إنشاء بنية مُتناغِمة، والافتقار المؤلم إلى الإحساس بالمقياس الصحيح».

انتبه جان جريشوف وزملاؤه النقاد إلى «الاعتراف»؛ لأن الكتاب يختلف عن «روايات السيدات» التقليدية. إنه أكثر عمقًا، ولا يركز فقط على الجوانب السطحية لحياة المرأة. ومع ذلك، لم يكن جريشوف يعرف (وما كان له أن يعرف) أن الرواية كانت إلى حد ما جزءًا من علاج ماريانه فيليبس، وأنها كانت نابعةً من رغبتها في التعرف على نفسها، حتى لو تطلَّب ذلك أن تتعاطى مع أحلك جوانب روحها. على الرغم من أن أعمالها استُقبِلت استقبالًا مُتناقضًا من قِبَل كل من النقاد والقُرَّاء، فقد نشرت بحلول نهاية عام 1940م ما مجموعُه ست روايات، وعديدًا من

القصص القصيرة، كما ترجمت كتاب «ضرير في غزة» لألدوس هكسلي.

في عام 1938م كانت واحدة من ثلاث مُؤلِّفات لكتاب «هدية أسبوع الكتاب»[1] Boekenweek، الذي حمل عنوان «ثلاث روايات» Drie novellen، لم تُؤلف كتبها في خضم الزحام والضجيج في منزلها الكبير، ولكن في «غرفة الكتابة» في شارع جانبي هادئ في بوسوم، حيث لم تكن تستقبل أحدًا. كانت الكتابة بالنسبة لها شيئًا شخصيًّا للغاية، فقد كانت عملية يُعبِّر فيها وجودها عن نفسه دون عائق، وذلك بسبب ماضيها المُنغلِق، كما سمح لها ذلك بالانشغال التام في عملها لفترة من الوقت، بعيدًا عن الالتزامات العائلية. كانت تتلقى التقييمات السيئة بترحاب، وتشكر كاتبي المراجعات الإيجابية برسالةٍ بخط اليد. كما بقيت مُتحفظة ومُتواضعة، من ناحية، لكنها من ناحية أخرى أحبَّت الانخراط في الأوساط الأدبية. وعلى الرغم مما تحلَّت به من ثقة في النفس بوصفها ناشطة سياسية، إلا أنها كانت غير واثقة من مكانتها في الأدب الهولندي؛ لأنها دخلت مُتأخِّرة ذلك المجال، ولم يكُن لديها شهادة دراسية.

كتبت روايتها الأخيرة «المتاهة» De doolhofعلى عجل شديد. كانت قد بدأت العمل عليها قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية،

---

1- يُقام «أسبوع الكتاب» في هولندا منذ عام 1932 م سنويًّا في مارس لمدة أسبوع واحد للدعاية للكتب المُؤلَّفة باللغة الهولندية.

وقدَّمت المخطوطة إلى الناشر في وقت مبكر من أكتوبر 1940م – قبل وقت قصير من ظهور «شهادة الآرية». أمكن نشر الكتاب رغم أن البحث عن اليهود كان قد بدأ بالفعل. بالنسبة لماريانه فيليبس، التي لم تعُد لها أي روابط خاصة باليهودية مثل العديد من الاشتراكيين الديمقراطيين، كانت تلك ضربة قوية. في يوليو 1940م، قُبِلت في «جمعية الأدب الهولندي» mdnl، وبعد عام لم تعُد عضويةَ الجمعية ممكنة لليهود، وأُجبِرت على الخروج منها.

نجت ماريانه فيليبس من الحرب، وإن ظلَّت مريضة بمرض عُضال: التهاب المفاصل الروماتويدي الذي أهملته. ومع ذلك، استمرت في الترجمة والكتابة، بما في ذلك القصة القصيرة مثل «قضية بيكنوت» De zaak Beukenoot، التي كانت هدية أسبوع الكتاب عام 1950م. توفيت في 13 مايو 1951م. كانت ستشعر بالفخر لو علمت بالتكريم الذي أُقيم لها في الاجتماع السنوي لجمعية الأدب الهولندي في 20 يونيو 1951م، حيث قيل في حقها: «بموت ماريانه فيليبس فقدت بلادنا روائية، استطاعت، من دون أن تكون واحدة من أكبر الكُتاب، أن تبهرنا بحبها الدافئ للناس وقوة ملاحظتها الشديدة – العناصر التي تميَّز بها على وجه الخصوص كتاباها «زفاف في أوروبا» Bruiloft in Europa و«هنري من الجهة المقابلة» *Henri van de overkant*».

يُعد كلا الكتابين روايات مسرودة بطريقة تقليدية؛ ومع ذلك، فحتى أولئك الذين قدَّروا أعمالها وجدوا أنهما أقل إثارة للاهتمام

لأنهما افتقرا إلى نقاء وأصالة رواية «الاعتراف». كتب أحد مُراجِعي «تليجراف» (أهم صحيفة يومية في هولندا) Telegraaf في عام 1936م عن رواية «هنري من الجهة المقابلة»: «إنكَ تقرأ هذا الكتاب بعناية أكثر من العديد من الكتب الأخرى، ولكن في الوقت نفسه تخشى أن تكون الكاتبة في سعيها لتصبح روائية هولندية قد اختارت المسار الواسع. آمل أنه لا يزال هناك متسع من الوقت لنطلب منها البقاء ماريانه فيليبس ...»

في ذلك الوقت، كانت جدتي مُؤلِّفة يصعب وصفها، فقد كانت أعمالها موضع إعجابٍ وذمٍّ في الوقت نفسه، وأحيانًا من قِبَل قُرَّاء كتبها المختلِفة أنفسهم. وجد بعضهم أن رواية «الاعتراف»، على وجه الخصوص، غير عادية، لكنهم لم يستطيعوا تحديد سبب ذلك. على النقيض من فترة 1930م، لم يعُد في الأدب المعاصر استكشاف النفس – حتى آخر الزوايا والشقوق المخيفة – أمرًا غير شائع، ورواية «الاعتراف» تُعد اليوم بعد تسعين عامًا من نشرها لأول مرة، لا تزال رواية حديثةً. كانت ماريانه فيليبس سابقةً لعصرها ولا يزال من الممكن اعتبارها كاتبة مثيرة للاهتمام.

يوديت بيلينفانته[2]

2- يوديت سي. إي. بيلينفانته. حفيدة ماريانه فيليبس. درست التاريخ الحديث في جامعة أمستردام. عملت من 1976م إلى 1998م مديرة المتحف التاريخي اليهودي في أمستردام. بعد أن كانت عضوًا في البرلمان لاحقًا. أصبحت المُنسِّقة الرئيسية للمجموعات الخاصة بمكتبة الجامعة في أمستردام من عام 2003م إلى عام 2008م. كما ترأست مؤسسة شارلوته ـ سالومون من 2002م إلى 2017م.